

مسيرة الجهاد الإسلامي

ضد  
الصلبيين  
في عهد  
المماليك

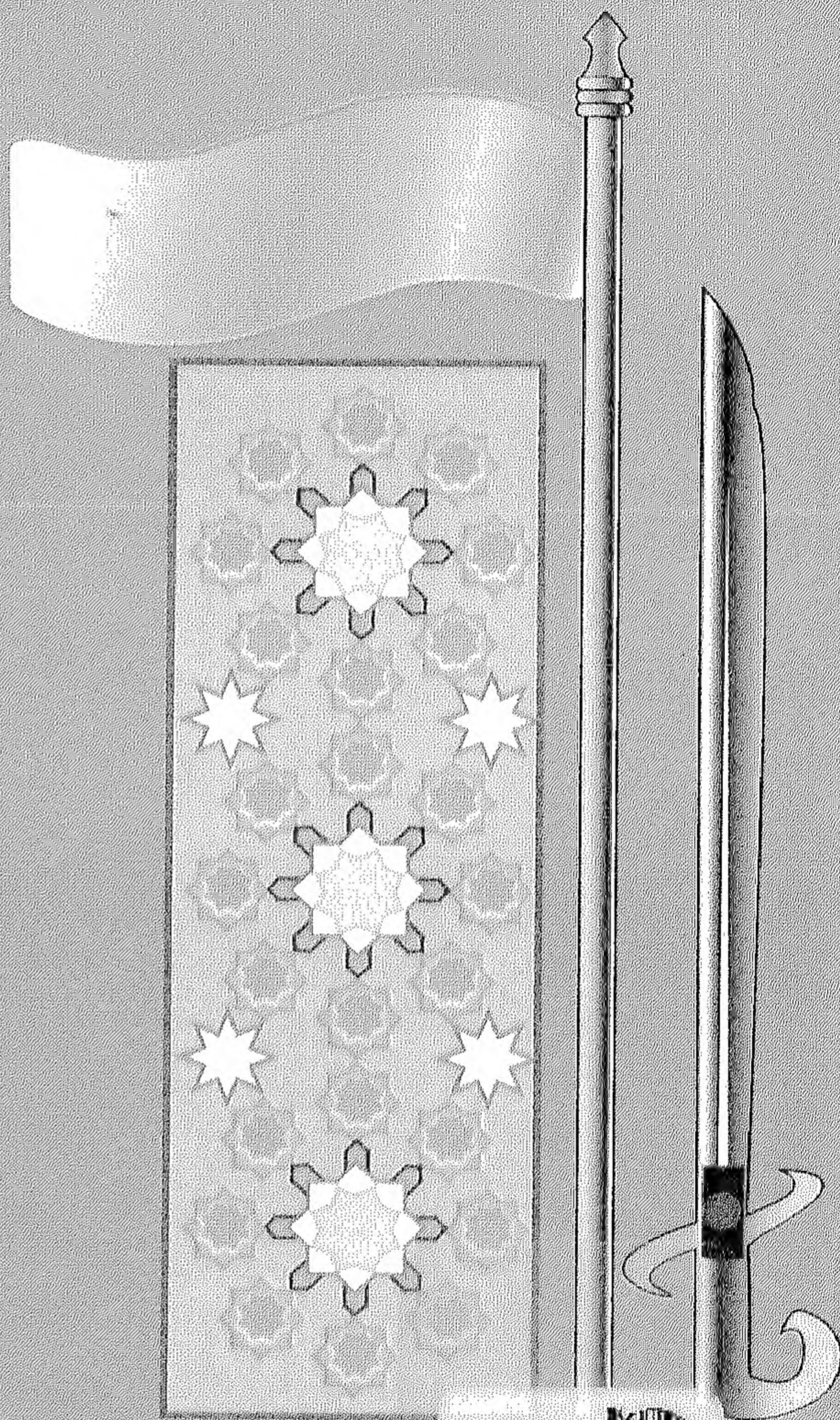
٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

المؤلف

عزمي عبد أبو عليان



دار النفائس  
للنشر والتوزيع - الأردن







**مسيرة الجهاد الإسلامي  
ضد الصليبيين في عهد المماليك  
« ٦٤٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م »**

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى  
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م



دار النفائس  
للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - العبدلي - مقابل جوهرة القدس  
هاتف : ٦٩ ٣٩ ٤٠ - فاكس : ٦٩ ٣٩ ٤١ - ص. ب. : ٢١١٥١١



# **مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك**

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٢ م «

تأليف

عزمي عبد محمد أبو عليان



**دار النفائس**

للنشر والتوزيع - الأردن



٩٥٦, ٠٧١

عزم عزمي عبد محمد أبو عليان

مسيرة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

روؤس الموضوعات :

١ - المماليك - تاريخ

٢ - الحروب الصليبية

رقم الايداع : ( ٧٩٨ / ٨ / ١٩٩٤ م

( تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية )



بسم الله الرحمن الرحيم

إلى شهداء الأمة الإسلامية الذين  
ارتقوا إلى جنان الخلد إعلاءً لكلمة  
الله تعالى، ورفعاً لراية الإسلام  
خفاقةً عاليةً.



عهداً ووفاءً







- بسم الله الرحمن الرحيم -

« المقدمة »

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين والمجاهدين، وصفوة الخلائق أجمعين، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد: فلقد كان الشرق الأدنى الإسلامي في العصر الوسيط يعيش انقساماً داخلياً عنيفاً من الناحيتين السياسية والدينية، فمن خلافة عباسية سنية في بغداد إلى خلافة فاطمية شيعية في القاهرة، وبسبب هذا الانقسام عاشت بلاد الشام صراعاً عسكرياً مبرحاً بين الخلافتين، وفي خضم هذه الأحداث وفي غفلة من العباسيين، وتغافل من الفاطميين - في بداية الأمر - تمكن الأوروبيون بدعوة من البابوية من احتلال مدينة بيت المقدس وجميع الساحل الشامي من أقصاه إلى أقصاه.

وجاء الاحتلال الأوروبي هذا تحت ستار ديني، وكان الصليب هو شعارهم الذي رفعوه في حروبهم أمام المسلمين، ومن هنا جاءت تسمية تلك الحروب بالحروب الصليبية.

وقد شكّل الاحتلال الأوروبي الصليبي تحدياً خطيراً للأمة الإسلامية، ليس على الأرض فقط، ولكن في معتقداتها الدينية، إذ أن هدف الصليبيين الظاهري والمعلن كان هدفاً دينياً شعاره الصليب.

وأمام هذا التحدي، هب الرأي العام الإسلامي بكل وعي وحماس، ونادى بالتغيير في واقعه الداخلي، وبالتصدي للمعتدي المحتل تحت شعار: ( الوحدة والجهاد ). وظل الرأي العام الإسلامي يتفاعل إلى أن قيض الله تعالى للأمة الإسلامية من حمل رايته ونذر نفسه له، فكان عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وكانت الوحدة الإسلامية بين مصر وبلاد الشام يحققها صلاح الدين، وجاء الوعد الحق ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وانتصر صلاح الدين في حطين وحرر بيت المقدس وغيرها من المدن والمواقع من براثن الاحتلال الصليبي.

على أن راية الوحدة والجهاد قد تذبذبت بعد صلاح الدين بين الارتفاع والانخفاض، ووصلت إلى مرحلة الإسقاط في بعض الأحيان، وظلت على تذبذبها إلى



أن قامت دولة المماليك في مصر، فعادت الراية إلى الارتفاع والارتقاء من جديد حتى بلغت الذروة، فكانت الوحدة بين مصر وبلاد الشام من جديد وكان الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في أجلّ وأبهى صورته حتى تم التحرير والتطهير الشامل بعون الله تعالى وفضله، فسقطت الحروب الصليبية وسقط شعارها معها، وظلت راية الوحدة والجهاد مرفوعة خفاقة بأيدي المماليك لمجابهة كل من يتجرأ على الأمة الإسلامية وديارها .

وعندما حاولت أوروبا والبابوية تجديد الحروب الصليبية بالاعتداء على سواحل مصر وبلاد الشام على أمل أن يؤدي ذلك إلى إعادة احتلال بيت المقدس، هب المماليك يدافعون عن أمتهم الإسلامية، ولما ازدادت هذه الاعتداءات حدة نقل المماليك المعركة إلى عقر دار الصليبيين في جزر حوض البحر المتوسط، فداسوا شعلتها بأقدامهم.

ولما حاول الصليبيون الالتفاف على ديار الإسلام من الجنوب عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر، انبرى لهم المماليك على الرغم من الإعياء الشديد الذي أصابهم، وتمكنوا من حماية مدخل البحر الأحمر منهم.

وهذا الكتاب هو عرض ودراسة للدور الهام والكبير الذي لعبه المماليك في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، بأسلوب مبسط وموثق، مبني على أهم المصادر المعاصرة للأحداث، وعلى المراجع ذات الصلة الوثيقة بالموضوع.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمامنا الأمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله من وراء القصد

المؤلف



# الباب الأول

## تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي

الفصل الأول: قيام دولة المماليك.

الفصل الثاني: المعادل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك.

الفصل الثالث: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان

الظاهر بيبرس.

الفصل الرابع: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان

المنصور قلاوون.

الفصل الخامس: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان

الأشرف خليل بن قلاوون.







## الفصل الأول

### قيام دولة المماليك

عقب وفاة السلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م<sup>(١)</sup> انفرط عقد الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام كدولة موحدة، وانقسمت بلاد الشام إلى ممالك متعددة، في حين احتفظت مصر بطابعها كمملكة قائمة بذاتها. ومن خلال هذا الانقسام دبّ النزاع بين ملوك بني أيوب الذين كانوا يحكمون تلك الممالك، فضلاً عن استمرار النزاع الذي كان قائماً بينهم وبين أبناء البيت الزنكي في الموصل، ولذلك فقد حرص أولئك الملوك على أن يكون كل منهم عصبه لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بمملكته، ولتحقيق هذه الغاية فقد عمدوا إلى الإكثار من شراء المماليك -أو الرقيق الأبيض- فاشترى منهم أعداداً كبيرة وعثوا بتدريبهم ليكونوا لهم عدة وسنداً.<sup>(٢)</sup>

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذي تولى الحكم في مصر (٦٣٨-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م) قد فاق غيره من ملوك بني أيوب في هذا المجال، فقد استكثر من شراء المماليك وبخاصة المماليك الترك، وفي ذلك قال الذهبي: «اقتنى الصالح أيوب من الترك ما لم يشتريه ملك، حتى صاروا معظم عسكره ورجحهم على الأكراد وأمر منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدلهيزه».<sup>(٣)</sup>

وعرف المماليك الترك بالمماليك البحرية، وعن سبب هذه التسمية قال الذهبي عند حديثه عن السلطان الصالح: «وسماهم البحرية، قلت: لكون التجار جلبوهم من البحر من بلاد القفجاق»<sup>(٤)</sup> وأعطى ابن خلدون رأياً آخر فقال: «ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل ازاء المقياس بما كانوا حاميتها»<sup>(٥)</sup>

(١) ابن الأثير، الكامل ج ٨، ص ٢٢٥.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٥١-١٥٢.

(٣) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ١٩٢.

(٤) م.ن، ج ٢٣، ص ١٩٢.

(٥) ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٠٦.



ودعم المقريري رأي ابن خلدون حين قال عند حديثه عن السلطان الصالح: «وأسكنهم معه في قلعة الروضة وسماهم البحرية».<sup>(١)</sup>

#### وصول المماليك البحرية إلى سدة الحكم:

نجح الخوارزمية<sup>(٢)</sup> في تحرير مدينة بيت المقدس من براثن الاحتلال الصليبي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م،<sup>(٣)</sup> (للمرة الثالثة)، وتبع ذلك تمكّن السلطان الصالح نجم الدين أيوب من إعادة وحدة مصر والشام كما كانت في عهد السلطان صلاح الدين.<sup>(٤)</sup> ولقد أفزع ذلك أوروبا والبابوية فزعا عنيفا، ففقدان بيت المقدس وقيام وحدة إسلامية جديدة سيكونان المقدمة نحو تدمير المعازل الصليبية في بلاد الشام تدميرا شاملا، ولما كانت البابوية حريصة على استمرار الوجود الصليبي في الشرق لكونه العامل الذي يبقى على زعامتها لأوروبا، فقد سارعت إلى إرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق وهي المعروفة بالحملة السابعة على رأسها الملك الفرنسي لويس التاسع، وجعلت وجهتها الأولى مصر لتحطيمها عسكريا والعبور من هوابتها إلى بيت المقدس، لكونها ثقل الأمة الإسلامية في ذلك الحين، والجدار المنيع الذي يحمي بيت المقدس وبلاد الشام. وقد رست الحملة قبالة الشواطئ المصرية، ثم ما لبثت أن احتلت دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، مما جعل السلطان الصالح يسرع بالتصدي لها، إلا أنه توفي في أثناء ذلك بعد اشتداد مرضه في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ/٢٢ تشرين ثاني ١٢٤٩م<sup>(٥)</sup> فقامت زوجته شجر الدر بتدبير أمور الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفا من حدوث فتنة بين

(١) المقريري، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ١٧٣.

(٢) الخوارزمية: نسبة إلى خوارزم، وقد فرت أعداد كبيرة منهم من وجه التتار ودخلوا في خدمة سلاجقة الروم وملوك الأيوبيين، إلى أن عاثوا فسادا في بلاد الشام واجتاحوا معظم مدنها، فقتل عليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب كقوة عسكرية فتفرقوا في البلاد في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، (انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٤-٣٣٩).

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٤-٣٣٩.

(٤) سعيد عاشور، مصر والشام، ص ١٠٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٧٨-١٧٩.



صفوف المسلمين، وفي الوقت ذاته أرسلت إلى ابن زوجها تورانشاه في حصن كيفا (بلدة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، مشرفة على دجلة) داعية إياه للقدوم إلى مصر لتولي عرش السلطنة ومواجهة الصليبيين.<sup>(١)</sup>

وما أن عاد تورانشاه حتى ألحق الهزيمة بالصليبيين وتمكن من أسر الملك الفرنسي لويس السابع، وذلك في أوائل المحرم ٦٤٨هـ/نيسان ١٢٥٠م، غير أن الأمر لم يستقم لتورنشاه، فقد قُتل بأيدي المماليك البحرية في أواخر الشهر نفسه، بسبب موقفه العدائي منهم.<sup>(٢)</sup>

ولمّا لم تكن الأوضاع مهيأة بعد لأن يتولى أحد المماليك منصب السلطنة فقد أجمع أمراؤهم الرأي على تقليد شجرالدر زوجة السلطان الصالح عرش السلطنة، على أن يكون الأمير المملوكي عزالدين أيبك التركماني أتابكاً للعساكر.<sup>(٣)</sup>

وقد واجهت شجرالدر في بداية عهدها مشكلة وجود الفرنسيين في دمياط، التي ظلت في قبضتهم على الرغم من هزيمتهم وأسر ملكهم لويس التاسع، ولذلك سارعت إلى استكمال المفاوضات التي كانت قد بدأت مع الملك لويس في عهد تورانشاه، فتم الاتفاق معه على أن يتم إطلاق سراحه مقابل تسليم دمياط، ودفع فدية مالية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدماً، ثم أبحر الملك لويس بأهله وأصحابه إلى عكا تاركاً قواته في الأسر ريثما يدفع بقية الفدية.<sup>(٤)</sup>

وإذا كانت شجرالدر قد نجحت في اخراج الفرنسيين من مصر، إلا أنها جوبهت بمعارضة داخلية عنيفة بسبب توليها السلطنة، وقاد هذه المعارضة شيخ العصر آنذاك عزالدين بن عبدالسلام الذي كتب «كتاب حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة»<sup>(٥)</sup>

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١، ص ٧٧٤-٧٧٥.

(٢) المقرئزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ص ٣٦١-٣٦٢، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٨-١٩.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٣٦١-٣٦٢، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٩.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٨٣.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ص ٣٤.



وازدادت هذه المعارضة حدة عندما استولى الملك الأيوبي الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق وغيرها من مدن الشام دون قتال ثم مواصلته الزحف جنوباً نحو مصر.<sup>(١)</sup> وحاول الماليك احتواء هذه المعارضة بمحاولة نيل تأييد الخليفة العباسي في بغداد المستعصم بالله لسلطان شجر الدر في مصر، إلا أن ردّ الخليفة جاء مخيباً لآمالهم، فقد أرسل اليهم قائلاً: «إن كانت الرجال عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير اليكم رجلاً»<sup>(٢)</sup> عندئذ أجمع أمراء الماليك رأيهم على أن تتزوج شجر الدر من الأمير عز الدين أيبك وتتنازل له عن السلطنة، فوافقت شجر الدر على هذه الخطوة وخلعت نفسها وتزوجت من الأمير عز الدين وذلك في أواخر ربيع الآخر ٦٤٨هـ/تموز ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يوماً.<sup>(٣)</sup>

غير أن هذه الخطوة لم تكن لتنتهي معارضة الأيوبيين في بلاد الشام لحكم الماليك، فلجأ هؤلاء إلى لعبة سياسية في محاولة منهم لإسكات الصوت الأيوبي، فقد أتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبي يدعى الأشراف موسى بن مسعود وأقاموه شريكاً مع المعز أيبك، وكان ذلك في جمادى الأول ٦٤٨/آب ١٢٥٠م.<sup>(٤)</sup>

ولكن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيين في بلاد الشام، فزحفوا باتجاه مصر بقيادة الناصر يوسف والتقوا مع الماليك في معركة قرب العباسية في السنة ذاتها، إلا أن الأيوبيين منوا بالهزيمة<sup>(٥)</sup>. مما شجع المعز أيبك على محاولة استثمار انتصاره بالزحف على بلاد الشام والقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية فيها، فدفع ذلك الملك الناصر إلى طلب المساعدة العسكرية من الملك الفرنسي لويس التاسع مقابل التنازل له عن بيت المقدس، بيد أن الملك الفرنسي لم يستجب له، فقد وجد نفسه مقيداً بصلح دمياط، فضلاً عن أنه ترك وراءه في مصر عشرة آلاف أسير صليبي سيتعرض مصيرهم للخطر إن هو أخلّ بشروط الصلح كما لم يكن واثقاً من جدية هذه العرض.<sup>(٦)</sup>

وقد سار المعز أيبك على ذات النهج الذي سار عليه الناصر يوسف، فقد اتصل

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٨٦، العيني، عقد الجمان ج ١، ص ٣٢-٣٣.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٣٦٨. (٣) م.ن، ص ٣٦٨.

(٤) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ١٣.

(٥) بيبس الدواداري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط، ورقة ٤٧.

(٦) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة الماليك البحرية، ص ٥٣.



بدوره بالملك الفرنسي وطلب منه المساعدة العسكرية ضد الأيوبيين مقابل التنازل له عن بيت المقدس ايضاً.<sup>(١)</sup>

واستغل الملك الفرنسي هذا العرض من الملك المعز فطالبه بشروط أخرى إلى جانب تسليمه بيت المقدس وهي:

١. الالتزام بسياسة التسامح مع النصارى في مصر وبلاد الشام.
  ٢. إطلاق سراح جيشه المأسور في مصر.
  ٣. التنازل عن بقية الفدية المطلوبة منه.
  ٤. تكون البلاد والغنائم التي يتم الاستيلاء عليها في بلاد الشام مناصفة بينهما.
- ولما كان المعز تواقاً لسحق الأيوبيين فقد وافق على هذه الشروط، فتم عقد الاتفاق الجديد سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م.<sup>(٢)</sup> وتنفيذاً لذلك اتفقا على الالتقاء على أرض فلسطين تمهيداً لشن هجوم مشترك على قوات الأيوبيين، غير أن الملك الناصر يوسف فوت عليهما هذه الفرصة عندما أرسل قواته إلى غزة قبل وصول القوات المملوكية إليها، ليس غيراً على بيت المقدس ولكن حنفاً على الماليك والصليبيين معاً.<sup>(٣)</sup>
- واستمر العداء قائماً بين الماليك والأيوبيين حتى سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م، حين تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله للصلح بينهما، ونجح مبعوثه الشيخ نجم الدين البادرائي في التوفيق بين المعز والناصر فعقدا اتفاقاً نصّ على ما يلي:-
١. أن يكون للملك المعز الديار المصرية وغزة وبيت المقدس ونابلس والساحل كله إلى نهر الأردن.
  ٢. أن يكون للملك الناصر يوسف ما وراء ذلك.
  ٣. أن يطلق الملك المعز جميع الأسرى من الملوك والأمراء الأيوبيين الذين وقعوا بيده في أعقاب معركة العباسية.<sup>(٤)</sup>
- وبهذا الاتفاق تفرغ المعز لتدعيم سلطانه في مصر، فقتل أكبر منافسيه الأمير

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٤، العيني، عقد الجمان، ج١، ص٨٠.

(٢) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة الماليك البحرية، ص٥٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٦.

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص٨١٠، المقرئ، السلوك، ج١، ص٣٨٥-٣٨٦، الصفدي، الوافي

بالوفيات، ج٩، ص٥٤٧٢، العيني، عقد الجمان ج١، ص٦٦-٨٥.



فارس الدين أقطاي، وعزل الملك الأشرف موسى، مستقلاً بالملك دونه وذلك سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م.<sup>(١)</sup>

وكانت نتيجة مقتل أقطاي أن فرّ أعوانه من كبار المماليك البحرية إلى بلاد الشام، عند ملوك البيت الأيوبي في دمشق والكرك، وكان على رأس المماليك آنذاك الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي سيكون له شأن عظيم في مجاهدة الصليبيين.<sup>(٢)</sup>

وقد أقلق وجود هؤلاء المماليك في بلاد الشام الملك المعز، إذ أن ذلك سيزيد من خطر الأيوبيين عليه، ولذلك أرسل الملك الناصر يحذره من غدرهم وغائلتهم ويخوفه عاقبة شرهم، فاستغل الناصر هذا الموقف وطالبه بإعادة ما أخذه من بلاد فلسطين ليقم فيها هؤلاء المماليك لأنها كانت من اقطاعاتهم، وبذا يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر.<sup>(٣)</sup> فأجابه المعز إلى ما طلب ولكنه في الوقت ذاته تحرك على رأس قواته وعسكر بالقرب من العباسية خشية أن يكون موقف الناصر خديعة ومكرًا، ولم يرجع إلى القاهرة إلا بعد أن توصل إلى عقد صلح جديد معه بواسطة الشيخ البادرائي سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م. ونص على ما يلي:-

١. أن يكون الشام جميعه للملك الناصر يوسف.
  ٢. أن تكون الديار المصرية للملك المعز.
  ٣. أن يكون الحد الفاصل بينهما بئر القاضي وهو ما بين الوراثة والعريش.
  ٤. ألا يأوي الملك الناصر عنده أحدا من المماليك البحرية.<sup>(٤)</sup>
- وبسبب هذا الصلح ساءت العلاقة بين الناصر والمماليك الذين عنده إلى أن غادروا دمشق سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وتوجهوا إلى الكرك داخلين في طاعة صاحبها الأيوبي الملك

---

(١) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ٤٧-٤٨، ابو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٩٠، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص ٤٧٢، العيني، عقد الجمان ج١، ص ٦٦-٨٥.

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٦، ولیم مویر، دولة المماليك في مصر، ص ٣٤.

(٣) المقرئ، السلوك، ج١، ص ٣٩٣، العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٣٥.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٥٩، ابو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٩٠.



المغيث عمر.<sup>(١)</sup>

أما في مصر فقد أقدمت شجر الدر على قتل زوجها المعز أيبك في السنة ذاتها، مما جعل مماليكه يقومون بقتلها ويقيمون في السلطنة ابنه المنصور نور الدين علي، وكان له من العمر خمس عشرة سنة، وجعلوا الأمير سيف الدين قطز أتابكا له.<sup>(٢)</sup> وبتطور هذه الأوضاع في مصر، حرّض المماليك البحرية الملك المغيث عمر صاحب الكرك على مهاجمة مصر وتملكها، على أن يؤازروه في ذلك، فأخذ برأيهم وهاجم مصر مرتين الأولى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. والثانية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. إلا أنه هزم في كليهما من قبل سيف الدين قطز.<sup>(٣)</sup>

وكانت هذه الأحداث تجري في مصر وبلاد الشام في الوقت الذي كان فيه المغول (التتار) بقيادة هولاكو يزحفون على الدولة العباسية ويحتلون بغداد ويقتلون الخليفة العباسي المستعصم بالله منهين بذلك الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ثم واصل المغول زحفهم باتجاه بلاد الشام، عندئذ قام قطز بعزل الملك المنصور علي واعتلى سدة الحكم ليتسنى له مواجهتهم.<sup>(٤)</sup>

أما المماليك البحرية الذين كانوا في الكرك فقد غادروها عائدين إلى مصر بعد أن أمنهم السلطان سيف الدين قطز، هذا في الوقت الذي واصل فيه المغول زحفهم حتى وصلوا إلى غزة، ومن هناك أرسل زعيمهم هولاكو كتابا إلى السلطان قطز يأمره فيه بالتسليم.<sup>(٥)</sup>

ولكن هيهات فقد ردّ قطز على هولاكو ردّاً عملياً، بأن قتل رسله وعلق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة، ثم انبرى لقتالهم، فدارت ملحمة عسكرية بين الطرفين في عين جالوت على أرض فلسطين في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/٢ أيلول ١٢٦٠م. انتهت بهزيمة

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٥٩.

(٢) بيهرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ٦٠-٦١، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص ٣٤، الصفدي،

الوافي بالوفيات، ج٩، ص ٤٧٣، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ١٤٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٥٧.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٨٩-١٩٩، ٢٠٣.

(٥) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٤٧، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٢٣٤.



المغول ومقتل قائدهم كتبغانوين وأسر ابنه (وكان هولاكو قد عاد إلى خراسان قبل ذلك).<sup>(١)</sup>

وبهذا الانتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون أصبحت الطريق ممهدة إلى دمشق، فسار إليها السلطان المظفر قطز واستردها من المغول، وأنفذ في أثرهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري على رأس قوة عسكرية، فلاحقهم حتى طهر شمال الشام منهم.<sup>(٢)</sup> وبذلك بسط المماليك سلطانهم على بلاد الشام وباتوا القوة الإسلامية الوحيدة التي قدر الله تعالى لها أن تقاتل عدوين في آن واحد: المغول الذين كانت معركة عين جالوت أولى الحلقات من سلسلة الوقائع اللاحقة معهم، والصليبيين الذين كانوا يحتلون أجزاء من بلاد الشام على امتداد الساحل.

وفي طريق عودة السلطان المظفر قطز إلى مصر، انقلب عليه الأمير ركن الدين بيبرس ومؤيدوه من المماليك بعد أن رفض قطز تعيينه نائباً على حلب، فضلاً عن العداء الذي كان قد وقع بينهما عند مقتل أقطاي، فقتله في الطريق ما بين الغرابي والصالحية، ودخل بيبرس القاهرة سلطاناً وتلقب بالملك الظاهر في السنة ذاتها ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م.<sup>(٣)</sup>

واجهت بيبرس في بداية عهده ثورة قادها الأمير علم الدين سنجر الحلبي في دمشق فقد رفض هذا الأمير الاعتراف بسلطنته، ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق وتلقب بالملك المجاهد، إلا أن بيبرس استطاع سحق هذه الثورة.<sup>(٤)</sup>

ووفق بيبرس في السنة التالية ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، باتخاذ خطوة على جانب كبير من الأهمية في التاريخ الإسلامي ألا وهي إحياءه للخلافة العباسية، إذا استقدم أحد أبناء البيت العباسي من الشام وأقامه خليفة في القاهرة، فثبت بيبرس بذلك دعائم

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٥-٦٦، البيهقي، مرآة الزمان، ج ٤، ص ١٤٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٦، القرمانلي، كتاب أخبار الدول وآثار الأول، ص ١٩٧.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٦، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ١٣٣ العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٢٥٣.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٩٩. البيهقي، مرآة الزمان، ج ٤، ص ١٤٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٣٢٢.



حكمه من خلال التقليد الذي قلده إياه الخليفة الجديد.<sup>(١)</sup> فقد جاء في كتاب التقليد: «وأمر المؤمنين يشكر الآن هذه الصنائع ويعترف أن لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع، وقد قللك الديار المصرية، والبلاد الشامية، والديار البكرية، والجزيرة والحجازية والفراتية مع سائر مايتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها اليك».<sup>(٢)</sup>

وبذلك تفرغ بيبرس لمواجهة أعداء الأمة والدين من صليبيين ومغول، وتابع طريقه المنصور قلاوون والأشرف خليل حتى تم تحرير بلاد الشام تحريرا نهائيا من براثن الاحتلال الصليبي.<sup>(٣)</sup>

#### انتقال الحكم إلى المماليك البرجية:

استمر حكم المماليك البحرية حتى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م حين حلّ محلهم المماليك البرجية الذين يرجع أصل تكوينهم كفرقة جديدة إلى أوائل حكم السلطان المنصور قلاوون، فقد سعى هذا السلطان إلى تكوين فرقة جديدة من المماليك من غير العناصر التركية ليكون إخلاصها له ويكون اعتماده عليها دون الفرق المملوكية السابقة<sup>(٤)</sup> وفي ذلك قال المقرئ: «وكان قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمئة من الأص والجركس، جعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية».<sup>(٥)</sup> ويعود هؤلاء في أصولهم إلى منطقة تقع بالجزء الجنوبي من شبه جزيرة القرم.<sup>(٦)</sup>

وقد سار السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على سنة أبيه، فقد استكثر من شراء المماليك الجركس، حتى أنه رغب في زيادة عددهم إلى عشرة آلاف مملوك، فاشترى

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٣٩، اليافعي، مرآة الزمان، ج ٤، ص ١٥١.

(٢) ابن أبيك الدوادوي، الدرة الزكية، ص ٧٥.

(٣) القرمانلي، كتاب اخبار الدول وآثار الأول، ص ١٩٧-١٩٩.

(٤) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١١، ١٢.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٧٥٦.

(٦) محمد مصطفى زيادة، حاشية السلوك، ج ١، ص ٧٥٦.



في مدة حكمه القصير حوالي ألفي مملوك من أسواق ثغر كافا بالقرم.<sup>(١)</sup>  
وبدأ حكم المماليك البرجية عندما اعتلى سدة الحكم الأمير برقوق اليلبغاوي  
الجرکسي وتلقب بالملك الظاهر بعد خلعه للسلطان الصالح حاجي بن شعبان آخر سلاطين  
المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م.<sup>(٢)</sup>

وإذا كان المماليك البحرية قد سجل لهم التاريخ تحرير بلاد الشام من الصليبيين  
فإن المماليك البرجية قد أضافوا صحائف مشرقة في سجل التاريخ الاسلامي عندما  
دافعوا عن ديار الإسلام أمام تجدد الحروب الصليبية، ثم تحولهم من مرحلة الدفاع إلى  
مرحلة الهجوم عندما بدأوا يدگون قواعد الصليبيين في عقر دارهم، كما سنبين في  
الباب الثاني.

واستمر حكم المماليك البرجية حتى سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م حين هزموا من قبل  
الدولة العثمانية التي استولت على بلاد الشام ومصر، منهيّة بذلك حكم المماليك  
الذي استمر لأكثر من قرنين ونصف.<sup>(٣)</sup>

---

(١) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج ٣، ص ٨٦. أبو المعاسن، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢١،  
ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٤٤٥.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ق ٢، ص ٤٧، القرمانلي، كتاب اخبار الدول وآثار الأول  
ص ٢٢٠.



## الفصل الثاني

### المعاقلة الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك

تمكن الصليبيون في الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وأواسط القرن السادس/ الثاني عشر الميلادي من احتلال الساحل الشامي على طول امتداده من قيليقية شمالاً وحتى غزة جنوباً، وبعمق داخلي متفاوت في عرضه امتد من الرها شمالاً وحتى أيلة جنوباً.

وشكّل الصليبيون في هذه المنطقة أربع وحدات سياسية هي:

١. إمارة الرها: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م حين أرسل أميرها الأرمني « ثورس » إلى الأمير بلدوين أحد الأمراء الصليبيين يدعوه للحضور إلى الرها لمساعدته ضد السلاجقة، فلبّى بلدوين دعوته، ومالّبث أن دبر هذا مؤامرة ضد ثورس حتى قتله ونصّب نفسه أميراً على الرها. <sup>(١)</sup>
  ٢. إمارة انطاكية: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م حين احتل الصليبيون المدينة، وكانت تحت حكم الأمير السجلوقي ياغي سيان، وانتصّب الأمير بوهمند أميراً عليها <sup>(٢)</sup>
  ٣. مملكة بيت المقدس: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م حين احتل الصليبيون مدينة بيت المقدس، وكانت تحت حكم الفاطميين، وأقيم الأمير جودفري بوايون ملكاً عليها.
  ٤. إمارة طرابلس: وبدأ تشكيلها منذ سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م حين احتلها الصليبيون وكانت تحت حكم الفاطميين- بعد أخذها من حاكمها ابن عمار- وانتصّب الأمير برترام أميراً عليها. <sup>(٣)</sup>
- وقد أحدث الاحتلال الصليبي هذا ردّ فعل قوي في العالم الإسلامي، فبرزت

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٤، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٤،

١٣٧ محمد العمروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص٥٦-٥٧.

(٢) ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨٦، محمد العمروسي،

الحروب الصليبية، ص٥٧، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص١٥٧، ١٦٧.

(٣) ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٣، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات، ص٢٠٣، ٣٠٨.



حركة جهاد قادها عماد الدين زنكي أتابك الموصل، وتمكن هذا المجاهد من فتح الرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، فسقطت بذلك أول أمانة صليبية نشأت في المشرق<sup>(١)</sup>

ثم قاد حركة الجهاد من بعده ابنه نور الدين محمود، فاستعاد العديد من المدن والقرى من أيدي الصليبيين.<sup>(٢)</sup>

تم ما لبثت حركة الجهاد أن أخذت بعداً أكثر قوة وتنظيماً، وذلك عندما استطاع السلطان صلاح الدين الأيوبي توحيد جهود مصر وبلاد الشام تحت قيادته، بعد أن عاد بمصر إلى حظيرة الخلافة العباسية في بغداد منهياً بذلك حكم الخلافة الفاطمية في القاهرة، وقد شن حرباً طاحنة ضد الصليبيين نجح خلالها في استعادة بيت المقدس والكثير من مناطق بلاد الشام في أعقاب معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م<sup>(٣)</sup> وفتح بيت المقدس خسر الصليبيون عاصمة مملكتهم، فاتخذوا من عكا عاصمة لهم، وذلك بعد أن أعادوا احتلالها للمرة الثانية سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م.<sup>(٤)</sup>

وقد تأرجحت حركة الجهاد بعد صلاح الدين بين مد وجزر، فلم يكن بعض من تولى الحكم من بعده بمستواه القيادي، أو بمستوى حرصه على متابعة الجهاد والحفاظ على مقدسات المسلمين، كالسلطان الكامل الذي سلم بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م<sup>(٥)</sup>، وبعد أن حررها الملك الناصر داود (ملك الكرك) سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م.<sup>(٦)</sup> هذا السلطان الصالح اسماعيل (ملك دمشق) حذو السلطان الكامل فأعاد تسليم بيت المقدس -ومناطق أخرى في بلاد الشام- إلى الصليبيين من جديد وذلك سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م<sup>(٧)</sup>، وبقيت بيت المقدس بأيديهم إلى أن حررها الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م.<sup>(٨)</sup>

ثم عادت حركة الجهاد ضد الصليبيين تقوى وتشتد حتى بلغت الذروة عندما حمل

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج٩، ص ٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٧، ٢١، ٣٢،... محمد العمروسي، الحروب الصليبية، ص ٦٩-٧١.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٧٧-١٧٨-١٨٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢١٤.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٤٦. (٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٢.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٦-٣٣٧.



رايتها الممالك الذين تمكنوا من تحرير بلاد الشام من براثنهم.  
وكانت المعادل الصليبية عند قيام الدولة المملوكية سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م. تمتد  
على طول الساحل الشامي من قيليقية شمالاً وحتى يافا جنوباً، ويعرض متفاوت،  
وتشكلت من وحدتين سياسيتين هما:

١. مملكة بيت المقدس: وعاصمتها عكا، ولم تكن هذه العاصمة تتمتع بسلطة  
مركزية بحيث تهيمن على جميع المعادل الصليبية داخل نطاق حدود المملكة، إذ  
أن النظام الذي كان يسودها هو النظام الإقطاعي المبني على نمط النظم الإقطاعية  
التي عرفها الصليبيون وعاشوها في غرب أوروبا قبل مجيئهم إلى الشرق،  
ولذلك فقد تألفت مملكة بيت المقدس من عدة إمارات إقطاعية، كيافا وأرسوف  
وقيسارية وصور وبيروت إلى جانب عكا ذاتها، فضلاً عن حصون وقلاع،  
كالقرين وتبنين والشقيف وغيرها خاصة بفرق الصليبيين العسكرية والدينية  
وأهمها فرقتا الداوية<sup>(١)</sup>، والاسبتيارية<sup>(٢)</sup> وكانت هذه الفرق تتمتع بالاستقلال عن  
الملكية وتتبع للبابوية مباشرة<sup>(٣)</sup>

---

(١) الداوية: (جمعية فرسان المعبد) فرقة دينية عسكرية، أسسها الفارس هيو باينز سنة ١١١٨م، عندما  
رفض الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي السماح له ولرفاقه النزول في جناح من اجنحة  
القصر الملكي في ساحة المعبد- المسجد الأقصى- ثم أصبحت طائفة مستقلة اتخذت من الصليب  
الأحمر شارة لها، وقد تألفت من ثلاث طبقات هي: الفرسان، والأجناد، ورجال الدين، واشتركت في  
جميع الأعمال الحربية التي قامت بها مملكة بيت المقدس. (رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢،  
ص ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) الاسبتيارية: فرقة دينية عسكرية، أسسها جيرار أحد الفرنج الغربيين في بيت المقدس سنة ١٠٧٠م،  
وقد تأسست أولاً في نزل يعود لحجاج الفرنج ليأوي إليه الحجاج الفقراء، وبعد أن احتل الصليبيون  
بيت المقدس، تحول القائمون على هذا النزل إلى طائفة مستقلة تتبع البابا مباشرة، وخصص لها رجال  
الكنيسة عشر دخلهم، وبعد أن توفي جيرار مؤسسها الأول سنة ١١١٨م. تولى أمرها الفرنسي ريموند  
لي بويه فتقرر في عهده أن تتحول إلى طائفة من الفرسان لقتال المسلمين واتخذوا من الصليب الأبيض  
شارة لهم (رنسيان تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٤٨).

(٣) عمر توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص ٨٤.



أما عن الأحداث السياسية التي عاشتها هذه المملكة عند قيام الدولة المملوكية، فبدأت منذ وصول الملك الفرنسي لويس التاسع إلى عكا سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م قادما من مصر على أثر الاتفاق الذي كان قد عقده مع شجر الدر، وقد أجمع الصليبيون على الاعتراف به حاكما فعليا لمملكة بيت المقدس، وكان الحكم قبل وصوله من حق كثراد إمبراطور المانيا، وكانت تمثله في الوصاية على عرشها الملكة اليس ملكة قبرص، وبوفاتها، انتقلت الوصاية إلى ابنها هنري الذي عين ابن عمه يوحنا سيد أرسوف نائبا عنه في إدارة مملكة بيت المقدس، فسلم يوحنا هذا عن طيب خاطر زمام الحكومة إلى الملك لويس، وإن لم يتحدد مطلقا ما كان له من وضع قانوني، لأن الاعتراف به حاكما أعلى لم يتم إلا أثناء غياب كثراد، الذي استمر الحكم من حقه من الناحية الشرعية بالنسبة لهم<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر فإن الملك لويس عمل على تحصين مدن عكا وحيفا وقيسارية وصيدا، تحسبا لأي هجوم قد تشنه عليها القوات الإسلامية، ثم دخل في تحالف مع الملك المعز أيبك ضد الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، إلا أن هذا التحالف مالبث أن انهار من أساسه بعد الاتفاق الذي تم بين المعز أيبك والناصر يوسف - كما ذكرنا في الفصل السابق<sup>(٢)</sup> - وقد أعطى ذلك فرصة لانتقام الملك الناصر يوسف من الملك لويس فوجه قواته للإغارة على معاقل الصليبيين عند يافا وارسوف وعكا وصيدا، بحجة عدم وجود صلح أو مهادنة بينه وبين الصليبيين، فردّ الملك الفرنسي بالإغارة على نابلس، علما بأنها كانت من نصيب الماليك في الاتفاقية التي عقدت مع الملك الناصر، وقد عزا الدكتور سعيد عاشور هذا الاعتداء إلى استياء الملك الفرنسي من موقف الماليك بعد اتفاقهم مع الملك الناصر<sup>(٣)</sup>. على أن الملك الفرنسي نجح في عقد هدنة مع الناصر يوسف سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م مدتها سنتان وستة أشهر وأربعون يوما، ثم عادر بعد ذلك عكا عائدا إلى فرنسا بعد أن ترك وراءه «جفرى مارجينس» ليكون ممثلا له<sup>(٤)</sup>.

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) سعيد عاشور، العصر المالكي في مصر والشام، ص ٥٦.

(٤) رنسيان، م.ن، ج٣، ص ٤٨٤-٤٨٥، سعيد برجوي، الحروب الصليبية في الشرق، ٥٨٠-٥٨١.



وفي أعقاب رحيله عقد يوحنا ابلين كونت يافا والوصي على مملكة بيت المقدس باسم ملك قبرص هدنة مع الملك الناصر مدتها عشر سنين، ولم تدخل فيها يافا في بداية الأمر بسبب رفض الناصر لذلك، ثم دخلتها في السنة التالية ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م في أعقاب تعرض قوات الناصر في بيت المقدس للهزيمة من قبل كونت يافا وممثل الملك لويس في عكا<sup>(١)</sup>.

وتطورت الأحداث سريعة في عكا بعد ذلك فقد جرت فيها حرب أهلية بين الجنوية والبنادقة سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، ومما زاد في حدتها انضمام البيازنة وأمير صور والإسبتارية إلى جانب الجنوية، فيما انضم أمير أنطاكية - طرابلس والداوية وفرق صليبية أخرى إلى جانب البنادقة، وامتدت الحرب على طول الساحل الشامي الذي يسيطر عليه الصليبيون برا وبحرا، ولم ينته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م.<sup>(٢)</sup>

## ٢. إمارة أنطاكية - طرابلس:

وكانت كل منهما إمارة مستقلة، وعندما توفي الأمير ريموند أمير طرابلس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. ولم يترك ولدا، خلفه في حكم طرابلس الأمير بوهمند ابن أمير أنطاكية بوهمند الثالث<sup>(٣)</sup>، وعندما توفي بوهمند الثالث سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م انتصب ابنه بوهمند الرابع أميرا على أنطاكية وطرابلس معا<sup>(٤)</sup> إلى أن توفي سنة ٦٣١هـ / ١٢٢٣م فخلفه ابنه بوهمند الخامس<sup>(٥)</sup>، وظل يحكم حتى وفاته سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م فخلفه ابنه بوهمند السادس وهو الذي عاصر أهم الأحداث مع الدولة المملوكية، ثم تلاه ابنه بوهمند السابع، ثم ابنته لويسا -ابنة بوهمند السادس-.

أما النظام السياسي في هذه الإمارة، فهو النظام ذاته الذي عُرف في مملكة بيت المقدس (عكا) فقد تألفت من مدن اقطاعية كجبيل واللاذقية والسويداء وطرطوس وغيرها وكذلك من حصون وقلاع للداوية والإسبتارية كبغراس والاكراذ وعكا وصافيتا

(١) رنسيان، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٨٥، سعيد برجوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٥٨١.

(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الاولى، ص ١٦٢، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٩٠.

(٣) سعيد برجوي، الحروب الصليبية، ص ٤٠٣.

(٤) رنسيان، المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٤٢.

(٥) رنسيان، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٦٠.



واللد، والمرقب، وغيرها علاوة على أنطاكية وطرابلس ذاتهما.  
وإلى جانب المعقل الصليبية هذه في بلاد الشام كانت هناك مملكة أرمينية  
الصغرى في إقليم قيليقية بين جبال طوروس والبحر المتوسط، وامتدت حتى حدود  
أنطاكية، وقد تحالفت هذه المملكة النصرانية مع الصليبيين في بلاد الشام ضد  
المسلمين، مما جعل الماليك يعاملونها كمعاملتهم للصليبيين.<sup>١١</sup>

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢١٥.



### الفصل الثالث

## مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين

### في عهد السلطان الظاهر بيبرس

أضحت سلطنة المماليك بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة من قبل السلطان الظاهر بيبرس في صورة القوة الحامية للخلافة المتمتعة ببيعته، مما أضفى عليها الصفة الشرعية وأكسبها أهمية كبيرة في نظر المسلمين كافة<sup>(١)</sup>، وغدا السلطان الظاهر بيبرس الزعيم الذي أنيط به حمل لواء الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية. فقد جاء في كتاب تقليد الخليفة العباسي الجديد المستنصر بالله، له: «ومما يجب أيضا تقديم ذكره، أمر الجهاد الذي أضحي على الأمة فرضا، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضا، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي (لا لغو فيها ولا تأثيم)<sup>(٢)</sup>». وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء اسرعت في سواد الحساد، وعرفت منك عزمة هي أمضى مما تجنيه ضمائر الأغماد، واشتهرت لك مواقف في القتال هي أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد، وبك صان حمى الإسلام من أن يبتذل، ويعزملك حفظ على المسلمين نظام هذه الدولة وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول، فايقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا، وأيد كلمة التوحيد فما تجدد في تأييدها إلا مطيعا سامعا...»<sup>(٣)</sup>.

ولما كان الصليبيون لا يزالون يحتلون أجزاء من بلاد الشام، ومغول فارس بزعامة هولاكو يعتدون على حدود الدولة الإسلامية عبر بوابتها الشرقية والشمالية في ذات الوقت، فقد وضع السلطان الظاهر بيبرس -حامل لواء الجهاد- نصب عينيه مجابهة هذين العدوين في آن واحد، وفي سبيل ذلك سعى إلى تأمين موقفين على جانب كبير

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٣.

(٢) سورة الطور، الآية ٢٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٧-١١٨، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٣٠٥-٣٠٦.



من الأهمية، الأول داخلي بحيث يقيم جبهة داخلية متراصة تتحد فيها جهود المسلمين في مصر وبلاد الشام، ولما كان الملك الأيوبي المغيـث عمر صاحب الكرك لم يزل يشكل خطراً على نظام حكمه- وبخاصة بعد أن أضحى المغيـث الزعيم الأيوبي الوحيد الذي ظل متحفزاً للانتفاض على مصر، بعد وقوع الناصر يوسف صاحب دمشق في أسر المغول- فقد عمل على التخلص منه أولاً. أما الثاني فهو تأمين موقف خارجي يستطيع من خلاله إحكام الحصار حول الصليبيين في بلاد الشام وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلهم من الشرق أو الغرب، هذا فضلاً عن مساعدته على الوقوف في وجه مغول فارس. فاتجه منذ سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٣م إلى عقد سلسلة من الأحلاف والاتفاقات مع الملوك المجاورين وغير المجاورين.

فبدأ بعقد حلف دفاعي مع الإمبراطور البيزنطي «ميخائيل باليولوجس» لعلـه أن الإمبراطورية البيزنطية كانت دائماً العدو اللدود للصليبيين في بلاد الشام، وعندما اعتنق بركة خان زعيم مغول التفجاق الإسلام مع قبيلته، سارع بيبرس بعقد حلف معه ضد مغول فارس للحيلولة دون قيامهم بالاعتداء على حدود دولته أو تقديم المساعدة للصليبيين، كذلك عقد بيبرس اتفاقاً مع الملك «مانفرد هوهنتشتاوفن» ملك صقلية ونابلي يقضي بتعهد مانفرد بعرقلة سبيل أية حملة صليبية جديدة تحاول الخروج من أوروبا وتنبيه السلطان عن أي نشاط صليبي يظهر في أوروبا بقصد مساعدة الصليبيين في بلاد الشام، كما عقد اتفاقاً مع دولة السلاجقة بآسيا الصغرى التي كانت على عداوة مع مغول فارس ومملكة أرمينية الصغرى.<sup>(١)</sup>

على أن السلطان بيبرس لم يكن لينتظر تحقيق هذه المواقف حتى يبدأ جهاده ضد الصليبيين-موضوع دراستنا- بل بدأ مرحلة عسكرية أولى معهم أثناء سعيه ذاك، مال فيها إلى مهادنتهم على بعض الجبهات وشن هجمات عسكرية على جبهات أخرى، وبعد أن حقق ما كان يصبو إليه بدأ مرحلته الثانية معهم وهي مرحلة الحرب الشاملة.

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٣، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ٦١-٦٢.

مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٠.



### مرحلة المهادنات والهجمات العسكرية الأولى:

بدأت هذه المرحلة عندما توجه السلطان الظاهر إلى بلاد الشام سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م. إذ لما نزل بمنطقة العوجا في جنوب فلسطين، أسرع أمير يافا «سيرجوان دبلين» بانفاذ رسله يسأل الأمان للحضور بين يديه، فرحب السلطان بذلك وأرسل له أتابكه كي يرافقه في حضوره، فلما حضر تلقاه باحتفاء وتكريم، ثم كتب له منشورا بالبلاد التي كان يحكمها ورده سالما إلى يافا.<sup>(١)</sup>

وقد شجع هذا الموقف بقية حكام الصليبيين، فحضر إليه عندما وصل إلى دمشق رسول من جهة عكا يسأله أمانا للرسل المتوجهين إليه من كافة المعاقل الصليبية، فاستجاب السلطان لذلك، وكتب إلى واليه على بانياس يأمره بتمكينهم من الحضور، فحضر أكابرهم والتمسوا الصلح وسألوه إعادة العسكر الذي كان قد انغذه للإغارة على بلادهم من جهة بعلبك في وقت سابق، ولما كان السلطان قد اتخذ سياسة المهادنة معهم في هذه المرحلة فضلاً عن غلاء الأسعار في بلاد الشام في تلك السنة، هذا في الوقت الذي كانت فيه معاقلهم مصدرا لجلب كثير من السلع، فقد وافق على الصلح وعقد مهادنات مع أمرائهم في عكا ويافا وبيروت «فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية (الناصر صلاح الدين) وإطلاق الأسارى من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة (أي من سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م - ٦٥٩هـ / ١٢٦١م). وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهد عليهم»، وكانت النتيجة أن أمنت السبل وكُثِرَ الجلب.<sup>(٢)</sup>

ولكي يضع السلطان الظاهر بيبرس هذه الهدنة موضع التنفيذ شرع في جمع أسرى الصليبيين ثم انفذهم إلى مدينة نابلس تمهيدا لمبادلتهم بالأسرى المسلمين الذين في أيدي الصليبيين، إلا أن الصليبيين أخذوا يماطلون في تسليم الأسرى المسلمين، مطالبين بتعويضهم عن منطقة زرعين في شمال فلسطين، فأجابهم السلطان رافضا مطالبهم: «إنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية (عشر ضياع) من مرج عيون، وقايضتم صاحب تبنين بمواضع، والمقايضة في أيديكم فكيف تطلبون العوض مرتين؟ فإن

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٧-١١٨، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٧.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٧.



كنتم باقين على العهد، وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد» ولما طال الأمر معهم دون نتيجة أمر بإعادة الأسرى من نابلس إلى دمشق واستخدامهم في العمائر.<sup>(١)</sup>

لقد جاء هذا الموقف السلبي من جانب الصليبيين لكي لا يطلقوا سراح أسرى المسلمين لاعتمادهم الكبير عليهم، نظرا لأنهم كانوا صناعا مهرة، وكان السلطان مدركا لموقفهم ذاك، وقد واجههم بحقيقته وعنقهم لعدم تمكين أسراهم من العودة إليهم قائلا لهم: «ولم ترحموا أهل ملتكم من الأسرى، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم».<sup>(٢)</sup>

وبفشل المفاوضات معهم، انفذ السلطان الأمير جمال الدين المحمدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على بعض معاقلهم وعلى العرب الزبيديين الذين كانوا يساعدونهم.<sup>(٣)</sup>

ثم تطلع السلطان للانتقام من بوهمند السادس أمير انطاكية - طرابلس بسبب تحالفه مع المغول ضد المسلمين، ولما ارتكبه من أعمال عدوانية في شمال بلاد الشام، فأرسل إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي -الذي كان قد انفضه على رأس قوات عسكرية إلى حلب لإعادة الأوضاع إلى طبيعتها هناك بعد الاضطرابات التي أصابها -يأمره بالتوجه إلى انطاكية ومهاجمتها، وانضم إليه لتنفيذ هذه المهمة صاحب حمص وحماء فنازلها شمس الدين وسيطر على مينائها، وأحرق المراكب الراسية فيه بعد أن استولى على ما بها من حواصل، وكادت انطاكية تقع في يده لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذي استنجد بالمغول، مما جعل الأمير شمس الدين ينسحب عنها<sup>(٤)</sup>، ويتوجه إلى مدينة السويداء التابعة لها، فحاصرها ثم دخلها عنوة بالسيف وقتل عددا من الصليبيين فيها، ثم عاد إلى القاهرة -بعد عودة السلطان إليها- ومعه أكثر من مائتين وخمسين أسيرا من الصليبيين.<sup>(٥)</sup>

وعاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشام مرة أخرى سنة

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨-١١٩، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٧..

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٤.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٤٨.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٢٠، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٤.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٣٣، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٥٠-٥١.



١٢٦٣هـ/١٢٦٣م، وقد استمر في اتباع سياسة المناورة مع الصليبيين إذ لم يكن قد انتهى بعد من أمر الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وتطبيقا لهذه السياسة، استقبل وفدا منهم جاء لتهنئته بالسلامة، وقد تعلق أعضاء الوفد عن تأخيرهم عنه بقولهم له: «ما عرفنا بوصول السلطان»، فرد عليهم السلطان ردا أشعرهم فيه بقوة جيشه ليزدادوا هلعاً ورعباً قائلاً لهم: «إن من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة، والحيتان في المياه، من كثرة هذه العساكر التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته حوافر خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنايكها قد أصمّ أسمع من وراء البحر من الفرنج، في مرغان من التتار، إذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون بأي شيء تعلمون؟»

كما استقبل نواباً من يافا وأرسوف وتقبل هداياهم تطيباً لهم وتسكيناً لقلوبهم وقد أصدر أوامره إلى قواته العسكرية بعدم النزول في زروعهم أو التعرض لها أو رعي خيولهم بها أو التعرض لمواشيهم، كما أمرهم الرفق بفلاحيتهم، لعل ذلك يعيدهم عن الغي الذي هم فيه.

وكان الصليبيون قد بلغ من صلفهم أن «كانت كتبهم قبل توجه السلطان مضمونها طلب فسخ الهدنة والندم عليها، وصارت عند قرب السلطان ترد كتبهم بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذيال المواثيق»<sup>(١)</sup>.

واستمر السلطان يحتمل موقفهم هذا إلى أن تمكن من إلقاء القبض على الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وعندئذ اتخذ منهم موقفاً صارماً، فقد أحضر رسلهم وقال لهم: «ما تقولون؟ فقالوا نتمسك بالهدنة التي بيننا، فردّ عليهم: لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان؟ وبعد أن ذكرهم بسوء أفعالهم، اشترط عليهم شرطاً جديداً لاستمرار الهدنة معهم وهو رد المعاقل التي كانوا قد أخذوها صلحاً من الملك الصالح اسماعيل سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، وهي صفد والشقيف وما يتبعهما من بلاد لأنهم قد حصلوا عليها مقابل نجدة الصالح اسماعيل ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب»<sup>(٢)</sup>.

فلما سمعوا قوله هذا بهتوا، إذ كانوا يسعون من خلال عقد هذه المهادنات إلى

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٦، ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ص ١٤٦، ١٥٩.



ترسيخ أقدامهم في بلاد الشام والحصول على مكتسبات جديدة ظنا منهم أن السلطان يهادنهم لضعف فيه، ففوجئوا والحالة هذه بأن السلطان يسعى إلى سحب البساط من تحت أقدامهم، ولذلك رفضوا رد المعاقل التي بأيديهم مكتفين بالموافقة على تبادل الأسرى فقط.

وأزاء هذا الرفض أمر السلطان بطرد رسلهم من حضرته، وأصدر من فوره أمراً بهدم كنيسة الناصرة، وأنفذ لهذه المهمة الأمير عز الدين طيبرس في قوة عسكرية، فهدمها وسواها إلى الأرض، ثم أنفذ الأمير بدر الدين الأيدمر في قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها، فنازلها وهاجم أبوابها واستاق الكثير من مواشيها وعاد إلى مخيم السلطان -قرب جبل الطور-<sup>(١)</sup>.

ولم يكتف السلطان بهذه الغارة، بل خرج بنفسه على رأس فريق من فرسانه للاستيلاء على عكا<sup>(٢)</sup>، فهاجمها وحرق أشجارها وزروعها إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها فاكتمى بما حققه وعاد أدراجه إلى القاهرة بعد أن زار بيت المقدس، وقد عين قبل رحيله الأمير ناصر الدين القيمري نائبا للسلطنة بالفتوحات الساحلية.<sup>(٣)</sup>

ولم تتغير العلاقات معهم بعد عودة السلطان إلى القاهرة، بل استمرت على الأسلوب ذاته ففي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، سأل الصليبيون في المنطقة الساحلية من فلسطين ومنها قيسارية، نواب السلطان الإذن لهم بزراعة البلاد وتقويتها من أموالهم وهي جملة كثيرة من الغلات، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد.<sup>(٤)</sup>

وفي السنة ذاتها أغارت قوة عسكرية إسلامية بأمر من السلطان على جهات أنطاكية فغنمت وقتلت وأسرت، كما أغارت قوة عسكرية أخرى بقيادة الأمير ناصر الدين القيمري على عكا، وأغارت قوة عسكرية أخرى بقيادة الأمير عز الدين الشجاعى على منطقة الخيظ (وهي جزء من الغور الأعلى في الشمال الشرقي من

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٥٦-١٥٨، ١٦٢، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢١٧، العيني،

عقد الجمان، ج ١، ص ٣٥٦.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣٥٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٤.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٦٢.

(٤) م.ن، ص ١٨٧.



فلسطين كانت تحت الاحتلال الصليبي).<sup>(١)</sup>

وفي محاولة للحد من الهجمات الإسلامية أخذ الصليبيون يشنون الهجمات المعاكسة علي المعقل الإسلامية، فقد أغارت قوة منهم من فرسان الداوية والاستتارية في عكا على اقليم عسقلان<sup>(٢)</sup>، فردّ الأمير ناصر الدين القيمري بالإغارة على عثليث وقيساريه<sup>(٣)</sup>، وهاجم الصليبيون منطقة بيسان ونهبوها وعادوا إلى عكا محملين بالغنائم<sup>(٤)</sup>، واعتدى الصليبيون الذين هادنوا الأمير ناصر الدين القيمري على جماعة من المسلمين وأسروا عددا منهم واستولوا على أموالهم ومواشيهم، فسير إليهم الأمير ناصر الدين يتهددهم بقوله لهم: «نحن هادناكم كما سألتكم المدة التي طلبتموها، وهذه الأخيذة كانت في مدة الهدنة»، فأرسلوا وزير قيسارية ليتحدث في الأمر، فما كان من الأمير ناصر الدين إلا أن أمسكه عنده، ولم يطلقه إلا بعد أن رد الصليبيون جميع ما أخذوه.<sup>(٥)</sup>

#### مرحلة الحرب الشاملة:

حقق السلطان الظاهر بيبرس مقصده من المرحلة الأولى بنجاح كبير، فقد تمكن من تأمين سلامة الجبهة الداخلية، كما أمن موقفا خارجيا مؤيدا له ضد الصليبيين، ولذلك لم تعد المرحلة الأولى هذه ذات نفع أو أهمية، فقرر الانتقال إلى مرحلة الحرب الشاملة، وهي مرحلة التصفية والتحرير.

#### فتح قيسارية:

بينما كان السلطان الظاهر بيبرس يصطاد في جهات العباسية سنة ٦٦٣هـ/

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٩٦-١٩٧.

(٢) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٤.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٧٨.

(٤) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٤٤.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٧٨.



١٢٦٥م وصلت الأخبار بهجوم المغول على بلاد الشام عبر حدودها الشمالية، فأُسرع بالعودة إلى القاهرة لجمع قواته وإعدادها تمهيدا للخروج على رأسها لصدّهم، وكانت قواته العسكرية متفرقة في البلاد المصرية، فيما كانت الخيول قد أرسلت إلى المراعي. والواقع أن الصليبيين كان لهم دور كبير في حث المغول على القيام بهذا الاعتداء إذ أفهموهم بأن عساكر الديار المصرية لا يمكنها وقت الربيع الحركة، غير أن السلطان بفضل تنظيمه للبريد قد نجح في جمع قواته بوقت قياسي «وما علموا أن للإسلام ملكا يحمل النفس على المشاق، وإذا ساق إلى جهة يخيل أنه ركب على البرق أو البراق».

وبتكمال أعداد قواته خرج بها في شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ / مستهل ١٢٦٥م. وعندما دخل فلسطين وصلت الأخبار بتمكن قواته المرابطة في البيرة في شمال الشام من صد المغول، عندئذ قرر مهاجمة الصليبيين في المنطقة الساحلية مستفيدا من استعداد قواته للقتال، فبعد أن قطع بجيشه نهر العوجا حط رحاله قريبا من غابة أرسوف مظهرا التلهي بالصيد، وبسرية تامة ساق في قوة عسكرية إلى أرسوف ثم قيسارية فكشف منطقتيها تمهيدا لمهاجمتهما، ثم عاد مسرعا إلى معسكره وكتب من فوره إلى القلاع الإسلامية القريبة بطلب المجانيق والصناع والحجارين، كما أمر الصناع في معسكره بصناعة المجانيق والصلالم. وبتكامل تجهيزاته تحرك بالجيش إلى أن وصل قريبا من عيون الأساور، وعند حلول الظلام أمر الجيش بلباس آلة الحرب والاستعداد في أقصى درجاته، وبسرية تامة تحرك قبيل الفجر إلى قيسارية، فوافاها على حين غفلة من أهلها بكرة نهار يوم الخميس ٩ جمادى الأول / ٢٨ شباط من السنة ذاتها. وبعد أن ضرب حصاره حولها من جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق شرع في مهاجمتها.

وفي أثناء ذلك قام بانفاذ الأمير شهاب الدين القيمري على رأس قوة عسكرية إلى عكا لمهاجمتها ومشاغلة الصليبيين فيها لمنعهم من تقديم أية مساعدة لقيسارية.<sup>(١)</sup>

وتمكن جموع المجاهدين من تجاوز خنادق قيسارية واعتلاء أسوارها باقتدار كبير رافقه رفع الأعلام فوقها وسط ذهول الصليبيين وفزعهم. وعبثا حاولوا المقاومة، فقد تمكن المجاهدون من إحراق أبواب المدينة والاندفاع إلى داخلها في نفس يوم الخميس<sup>(٢)</sup>،

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢٢-٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٨-٨٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٨، ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٢٣٣، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ٢٥٢.



فما كان من الصليبيين إلا أن هربوا إلى قلعتها وتحصنوا بداخلها، وكانت هذه القلعة التي عرفت بالخضراء، تمتاز بالحصانة والمنعة فضلاً عن وقوعها على حافة البحر، فزحف السلطان بقواته وحاصرها، ونصب عليه المجانيق، كما استخدم الدبابات ذات العجلات، والزحافات في هجومه عليها، وكمنت وحدة من رماة النشاب فوق كنيسة قبالة القلعة لمنع الصليبيين من اعتلاتها، وبلغت مرحلة القتال ذروتها عندما خاض السلطان عباب البحر على رأس كوكبة من فرسانه لشل حركتهم<sup>(١)</sup> وأخذ في بعض الأيام في يده ترسا وقاتل ومارجع الا وفي ترسه عدة سهام<sup>(٢)</sup> وتحت وطأة الحصار والرماية الشديدة اضطر الصليبيون إلى الهرب من القلعة باتجاه عكا بحرا، فدخلتها القوات الإسلامية في يوم الخميس منتصف جمادى الأولى / ٤ آذار من السنة ذاتها، وأذن عليها الصلاة فجر يوم الجمعة.<sup>(٣)</sup>

وبعد هذا الفتح المؤزر شرع السلطان بهدم المدينة والقلعة بعد أن قسّم ذلك على عساكره ومماليكه، وقد شارك بنفسه في عمليات الهدم، ثم ملك سائر أعمالها للأمرأء الذين حضروا حصارها والغائبين عنه بالبيرة الذين صدوا المغول.<sup>(٤)</sup>

وقبل أن يفرغ من هدم المدينة وقلعتها سیر الأمير سنقر الألفي والأمير سيف الدين المستعري في قوة عسكرية إلى الملوحة بالقرب من حيفا لهدم قلعة للصليبيين هناك، وكانت قلعة عاتية عاصية، فهدمت ودكت إلى الأرض.<sup>(٥)</sup>

ثم سیر الأمير سنقر الألفي مرة أخرى في قوة عسكرية إلى حيفا فهاجمها ودخل قلعتها «فنجأ الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر واحضرت الأسارى والرؤوس وأخربوا المدينة وقلعتها وأحرقوا أبوابها وجعلوها خاوية على عروشها».

وفي الوقت ذاته كان السلطان ينطلق بنفسه على رأس قوة عسكرية إلى عثليث

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١-٢٣٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٩، ابو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢، ابو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٢٣٣، ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ٢٥٤، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٣٦٧.

(٣) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٠٧، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٣٠.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٤، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٢٧-٥٢٨.



فأغار عليها « وأمر بتشعيثها وقطع أشجارها، فقطعت جميعها وخربت ابنيتهما في ذلك النهار » ثم عاد إلى قيسارية لاستكمال هدم قلعتها.<sup>(١)</sup>

### فتح أرسوف:

ما أن انتهى السلطان الظاهر من تدمير قيسارية حتى تحرك في أوج انتصاره الكبير وبسرية تامة صوب أرسوف جنوباً، فنازلها في مستهل جمادى الآخرة ٦٦٣هـ/ آذار ١٢٦٥م وضرب حصاره على امتداد جهاتها البرية ونصب عليها المجانيق.<sup>(٢)</sup>

وقد اتبع السلطان خطة عسكرية محكمة لاقتحامها، وصفها المقرئ بقوله: "ونقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة وعمل منها ستائر وحفر سريين من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقفه بالأخشاب، وسلم أحدهما للأمير سنقر الرومي... وسلم الآخر للأمير سيف الدين قلاوون... وعمل السلطان طريقاً من الخندقين إلى القلعة وردمت الأحطاب في الخندق، فتحيل الفرنج وأحرقوها كلها، فأمر السلطان بالحفر من باب السريين إلى البحر، وعمل سروباً تحت الأرض يكون حائط خندق العدو ساتراً لها، وعمل في الحائط أبواباً يرمى التراب منها وينزل في السروب حتى تساوى أرضها أرض الخندق، وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك، وولى أمره للأمير عز الدين أيبك الفخري، فاستمر العمل، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده في الحفر وفي جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الأحجار، أسوة غيره من الناس وكان يمشي بمفرده وفي يده ترس، تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر يرمي مراكب الفرنج، وكان يجر في المجانيق، ويطلع فوق الستائر يرمي من فوقها، ورمى في يوم واحد ثلاثمائة سهم بيده...".<sup>(٣)</sup>

وذكر ابن عبد الظاهر من الذين شاركوا في هذا الفتح بقوله "وحضر العباد والزهاد والفقهاء إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالم، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش، بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال ويجررن في المجانيق".<sup>(٣)</sup>

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٤، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص ٤٥.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٢٨.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٨.



واستمر المجاهدون يحاصرون المدينة حتى انهارت كل مقاومة كانت لدى حاميتها من فرق الاستتارية إلى أن سقطت المدينة في يوم الخميس ٨ رجب/ ٢٦ نيسان من السنة ذاتها، عندئذ طلب الصليبيون الذين تحصنوا بداخل القلعة الأمان من السلطان، فأمنهم وأمر بجمع سيوفهم، كما أمر بنقل المصابين منهم إلى يافا.<sup>(١)</sup>

"ولما لم يبق بأرسوف أحد من الفرنج أباح القلعة للمسلمين بما فيها من غلال وذخائر ومال، وكانت بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض منها إلا لما اشتراه بماله، وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا تلك الساعة، وأخذت قيودهم قيد بها الفرنج".<sup>(٢)</sup>

ثم شرع السلطان بتقسيم أبراجها على الأمراء لهدمها، وأمر بأن يتولى الأسرى الصليبيون هدم الأسوار، فهدمت بأيديهم.<sup>(٣)</sup>

وكتب السلطان إلى قسطلان يافا كتابا بأن يكتب إلى صاحبه (أمير يافا)، (بأننا لا نحتمل الهزيمة، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها تلة مرتفعة، وإذا أسر لنا فلاح أسرنا الفلاح من المقاتلة لابس السلاح، وإذا هدموا جدارا هدمنا أسوارا والسيف في يد الضارب، والجواد عنانه في قبضة الراكب، ولنا يد تقطع الأعناق، ويد تصل الأرزاق، ومن تحرش فعن تجربة، ومن أراد شيئا من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة).<sup>(٤)</sup>

وقد حرص السلطان على إبلاغ حلفائه نبأ انتصاراته هذه، كملك صقلية وإمبراطور الدولة البيزنطية، وبركة خان زعيم المغول القفجاق، وجمهورية جنوا، الذين ربطتهم به رابطة العداء والكراهية للصليبيين.<sup>(٥)</sup>

ولدى عودته إلى القاهرة أخذ معه الأسرى الذين وقعوا في قبضته غنائم حرب

---

(١) م.ن، ص ٢٤١-٢٤٢، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٩-٩٠، ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٣٢، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٢٨-٥٢٩.

رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٤٧، وليم موير، دولة الماليك في مصر، ص ٤٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٤٣.

(٣) م.ن، ص ٢٤٣، ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٨٣٢، وليم موير، دولة الماليك في مصر، ص ٤٦.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٤٣.

(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٥.



ليزين بهم موكبه اثناء دخوله القاهرة وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة.<sup>(١)</sup>

### فتح قلاع حلبا ومرقا والقليعات:

قضى السلطان الظاهر بيبرس فترة قصيرة في القاهرة ثم عاد إلى بلاد الشام في منتصف سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م لمواصلة جهاده ضد الصليبيين وفتح المزيد من معاقلهم، وكان الأمير بوهمند السادس أمير انطاكية - طرابلس قد تحرك في أوائل السنة ذاتها للإغارة على حمص بمساعدة فرسان الداوية والاسبتارية، غير أنه ارتد عنها مهزوماً بعد أن تصدى له نائبها الأمير علم الدين الباشقردي.<sup>(٢)</sup> وأزاء هذا الاعتداء جرد السلطان عندما وصل إلى غزة قوة عسكرية على رأسها الأمير جمال الدين أيدغدي والأمير سيف الدين قلاوون إلى حمص أولاً لرد أي اعتداء قد يشنه عليها بوهمند من جديد ثم أمرهما بالتوجه إلى طرابلس للإغارة على بلادها الساحلية فتحركا من فورهما إلى أن وصلا قريبا من حمص ثم ارتدا إلى جهة حصن الأكراد، وهناك أغارا على معقل قريب منه «فأقاموا عليه يوما واحدا، وأخذوه وأسروا به جماعة»، وكان بقلعة حلبا جماعة، فهربوا وأخلوها، ودخل العسكر إليها وكسبوا منها شيئا كثيرا... ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم فقتلوهم وأخذوا نساءهم، «ولما شاهد أهل قلعة عرقا ما جرى في حلبا نجوا بأنفسهم»، «وما زالت العساكر حتى أخربت القلعتين المذكورتين، ونزلوا على حصن يعرف بالقليعات، وهو حصن عظيم وتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان، وهدمت أيضا».

وفي أثناء عودة هذه العساكر كمن الأمير سيف الدين قلاوون بالقرب من القليعات وسير كشافة لمراقبة تحركات الصليبيين، فوجد خمسين منهم قد توجهوا من صافيتا إلى حصن الأكراد لنجدته، فقتلهم جميعا وأحضر رؤوسهم إلى السلطان عند عودته، كما أفشل غارة قام بها فرسان الداوية على بعض أفراد قواته، فقتل منهم عددا وأسر عددا آخر.

وكان قد انضم إلى العساكر الإسلامية في هذه الغزوة الفا فارس من الأعراب على

(١) وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص ٤٦.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٥، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٤٣، رنسيما، تاريخ الحروب

الصليبية، ج ٣، ص ٥٥٢.



رأسهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وقد أصيب شرف الدين هذا بجرحين فيها. وبالسيطرة على هذه القلاع الثلاث حلبا وعرقا والقليعات التي كانت تؤلف خط دفاع محكم يحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي لإشرافه على المنفذ الذي يوصل بين طرابلس وحمص، أصبح الطريق مفتوحا للقوات الإسلامية كيما تضيق الخناق على طرابلس ذاتها تمهيدا لتحريرها من أيدي الصليبيين.

وقد شجعت هذه الانتصارات السلطان الظاهر، فجرد عددا من الأمراء على رأس قوات عسكرية للإغارة على العديد من معاقل الصليبيين على طول الساحل الشامي وكانت على نحو ما يلي:

الأمير علاء الدين البندقداري والأمير عز الدين أوغان إلى صور.

الأمير سيف الدين أتامش إلى صيدا.

الأمير بدر الدين بيسرى إلى جهة حصن القرين.

الأمير ناصر الدين القيمري إلى عثليث.

فيما اتجه السلطان على رأس بقية جيشه إلى عكا، ثم إلى قلعة القرين، ولما وجدهما محصنتين، أقلع عنهما باتجاه صفد، فكشف منطقتها ثم عاد إلى معسكره.<sup>(١)</sup> وقد عمت الهجمات الإسلامية بلاد الفرنج من حدود طرابلس شمالا وحتى المناطق القريبة من أرسوف جنوبا. وغنم المسلمون فيها غنائم كثيرة «وتوالت المكاسب حتى لم يوجد للأبقار والجواميس من يشتريها» ولما كانت هذه الهجمات قد أثرت في الصليبيين تأثيرا كبيرا فقد أرسل مقدم الاستتار بعكا إلى اتابك السلطان لكي يسعى في الصلح. غير أن الجواب الذي أرسل إليه كان يتضمن التهديد والتخويف.<sup>(٢)</sup>

#### فتح صفد:

كان السلطان قبل أن يتحرك إلى صفد قد أنفذ إليها الأمير فخر الدين الشهابي في قوة عسكرية، فاستمال أهل البلاد المجاورة لها، كما أنفذ الأمير فخر الدين الفائزي

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥١-٢٥٣، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٤٥.

King, The Knights Hospitallers in Holly Land, P260.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٣-٢٥٤، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٤٥.



إلى قلعة الشقيف في مظاهرة عسكرية لصرف النظر عن وجهته الحقيقية، ولمنع الصليبيين من تقديم أي عون لصغد عند محاصرتها.<sup>(١)</sup>

ووصل السلطان إلى صفد في ٨ رمضان ٦٦٤هـ / ١٣ حزيران ١٢٦٦م وشرع من فوره بضرب حصاره حولها، وفي اثناء ذلك قدم عليه رسل من قبل أمراء صور وبيروت ويافا يلتمسون موادعته، بيد أن السلطان زجرهم وأنكر على أمرائهم امورا تنقض العهد معهم، ومن ذلك أنه كان قد اتفق مع أمير صور على أن يشارك الجنوية بحرا في محاصرة عكا (لخلافات كانت بين الجنوية والصليبيين في عكا) أثناء هجومه عليها من ناحية البر، إلا أن أمير صور لم ينفذ ذلك، بل أعان فرقة من الصليبيين للإغارة على بانياس، وقتل غلاما له (للسلطان) داخل إمارته.

وأما أمير بيروت فردّ على رسوله: «إن صاحبكم الذي كان متفقا معنا قد هلك»، وأنكر عليهم تعرضهم لمركب من مراكب أحد قواده، إذ غدروا بأهله وأخذوه، وأما أمير يافا، فأنكر عليه نصبه المجانيق على قلعة يافا مع أنه في صلح، فعاد الرسل دون تحقيق الهدف الذي قدموا لأجله.<sup>(٢)</sup>

وما أن وصلت المجانيق التي كان قد طلبها من دمشق (في ٢١ رمضان / ٢٦ حزيران) حتى نصبها حول صفد، وأول ما بدأ به قصف بيت مقدم الداوية فيها. ويتكامل عودة قواته التي أنفذها للإغارة على معاقل الصليبيين شرع بشن هجومه الأول عليها في ٢ شوال / ٧ تموز مستخدما السهام والرماح المشتعلة بالنفط، وقد وعد الحجارين «أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني والثالث إلى العشرة». واشتد القتال عليها ليلاً، وقاد السلطان بنفسه هجوما على خندق الباشورة (سد ترابي) إلا أنه لم يتمكن من اقتحام المدينة، فيما حقق فقط أحداث نقوب في أسوارها.

ونتيجة لكثرة الجراح التي حدثت بين صفوف مقاتليه، فقد أمر بنصب خيمة جعل فيها الحكماء والجراحية لمداواتهم.

ثم شن هجوما ثانيا في ٨ شوال / ١٣ تموز فلاقى ذات المصير، إلا أنه نجح في

(١) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٠٨، King, op, cit, p260

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٥، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٤٦.



عمل جسر اقامه على باب القلعة، وشن بعد ذلك هجوما ثالثا في ١١ شوال/ ١٦ تموز ولكنه أخفق ايضا.<sup>(١)</sup>

وتعود أسباب هذا الفشل المتكرر إلى منعة القلعة وقوتها، فقد جددت استحكاماتها من قبل فرسان الداوية قبل خمس وعشرين سنة - قبل تاريخ حصارها - كما أن الحامية فيها كانت وفيرة العدد.<sup>(٢)</sup>

وبإصرار السلطان على اقتحامها قام بشن هجوم رابع في ١٤ شوال/ ١٩ تموز، واستمر طوال الليل وحتى صباح اليوم التالي ١٥ شوال/ ٢٠ تموز، وتمكن خلال ذلك من الاستيلاء على أسوار الباشورة ورفع أعلامه عليها، بعد دحر الصليبيين الذي اندفعوا إلى القلعة وتحصنوا بها، واستمر السلطان يناصبهم الحصار ويناهزهم القتال.<sup>(٣)</sup> وأعلن في الوقت ذاته بأنه سيمنح العفو لكل من يستسلم له منهم<sup>(٤)</sup>. عندئذ أرسل الصليبيون - بعد أن تقطعت الأسباب بهم - إلى السلطان يطلبون الأمان، فاشتراط عليهم «أن لا يستصحبوا سلاحا ولا لامة حرب ولا شيئا من الفضيات، ولا يؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم» واستمرت المفاوضات معهم إلى ما بعد صلاة يوم الجمعة ١٨ شوال/ ٢٣ تموز، حين تمت الموافقة على هذه الشروط، «فلما كان وقت العصر فتحت الأبواب. وطلعت الصناجق (الأعلام) وكانت ساعة مشهودة ووقف السلطان راكبا على باب صفد ونزل الفرنج أولاً فأولاً، وصاروا جميعا في يديه، وفي اثناء تفتيشهم وجد بأنهم قد نقضوا شروطه، اذا اصطحبوا معهم أسلحة وبعض أسرى من المسلمين على أنهم نصارى، فأمر السلطان بضرب رقابهم، فضربت على تل قريب من صفد.<sup>(٥)</sup> وكانوا زهاء ألفي فارس.<sup>(٦)</sup>

وقد ذكر بعض المؤرخين بأن السلطان الظاهر لم يحلف لأهل صفد عندما عرض

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٥٠-٥٥١.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٩.

(٤) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٥١.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٦) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١١٨، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص ٤٧.



عليهم الأمان وإنما أجلس مكانه أحد الأمراء ويدعى «كرمون انماالتتري» فحلف لهم وهم يظنونهم السلطان.<sup>(١)</sup>

وعندما علم أهل عكا بقتل هذا العدد في صفد، أرسلوا إلى السلطان يطلبون جثث القتلى قائلين له: «تصدق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء إلى عكا لأجل البركة بهم، فترك السلطان رسولهم في مخيمه، ثم أخذ كوكبة من الفرسان وساق في أول الليل إلى عكا فما أصبح إلا وهو على بابها. فلما فتح الصليبيون الباب وخرجوا لقضاء حوائجهم ساق عليهم فقتل منهم عددا كبيرا وعاد من فوره إلى صفد، فلما دخل إلى خيمته طلب رسول عكا وأعاد إليه الرسالة قائلا له: «عود «عد» إليهم. فقد عملنا عندهم شهداء، وكفيناكم مؤونة النقل وكلفته».<sup>(٢)</sup>

واتخذ السلطان الظاهر من مدينة صفد بعد تحريرها مركزا لنيابة جديدة من نيابات الدولة المملوكية في الشام، وولى الأمير عز الدين العلائي نائبا لها، كما ولى الأمير علاء الدين أيدغدي مقدما لعسكرها، والأمير مجد الدين الطوري نائبا لقلعتها وحمل إليها الذخائر والسلاح، كما استدعى الرجال من دمشق للإقامة بها، وقرر نفقة رجالها مبلغ ثمانين ألف درهم في الشهر، كما استخدم الأمراء على أعمالها التي تشكلت منها في ذلك الحين.<sup>(٣)</sup>

وجاء هذا الفتح المؤزر مكسبا كبيرا للمسلمين، إذ كان هذا المعقل مصدر خطر دائم هدد الصليبيون من خلاله القوات الإسلامية والفلاحين المسلمين على امتداد عرض فلسطين شمالاً، نظرا لموقعه الحربي المتوسط في قلب الجليل. فضلا عن منعه وارتفاعه وقد عبر ابن عبد الظاهر عن سبب اهتمام السلطان بأمر صفد بقوله «لأنها الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الإسلام».<sup>(٤)</sup>

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٣٨، ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص١١٧، الكتبي،

عيون التواريخ، ج٢٠، ص٣٣٦، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨.

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص١١٨.

(٣) الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص٣٦٠، المقرئ، السلوك، ج١، ص٥٤٧-٥٤٨.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٤.



### فتح طبرية وبلادها وهونين وتبنين والرملة واللد:

بعد فتح صفد توجه السلطان الظاهر الى طبرية فاستولى عليها وعلى بلادها المجاورة لها وذلك في الشهر ذاته (شوال/ تموز) كما (استولى في شهر ذي القعدة، واخر آب) على هونين وتبنين ودمرهما بحيث لم يبق لقلاعتهما أثرا. ثم استولى في الشهر ذاته على الرملة واللد،<sup>(١)</sup> وانفذ قوة عسكرية إلى حيفا، فقطعت أشجارها، ثم توجه السلطان بعد ذلك إلى دمشق، وأمر جيشه بعدم دخولها بل التوجه إلى مملكة أرمينية الصغرى مباشرة لتدميرها.<sup>(٢)</sup>

### تدمير مملكة أرمينية الصغرى:

كان الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى قد دخل في حلف مع هولاكو زعيم مغول فارس ضد المسلمين، كما دخل في حلف مع الصليبيين في بلاد الشام، وزاد من صلفه أنه اتبع سياسة جديدة ضد الممالك في مصر وهي فرض حصار اقتصادي عليهم. وذلك بمنع تصدير الأخشاب والحديد من آسيا الصغرى إليهم، وقد هدف من وراء ذلك إلى حرمان الممالك من إنشاء قوة بحرية، إذ كانت أخشاب الأناضول تدخل في صناعة السفن الحربية المملوكية. أزاء ذلك ظل السلطان الظاهر بيبرس ينتظر الفرصة المناسبة للانتقضا على مملكة أرمينية وتدميرها، وكان انشغال ابغا ابن هولاكو وخليفته في حكم مغول فارس- بالحرب ضد مغول القفجاق المسلمين من ناحية ومغول التركستان من ناحية أخرى، قد أتاح للسلطان الظاهر الفرصة التي كان ينتظرها،<sup>(٣)</sup> فجهز جيشا كثيفا جعل قيادته للأمير سيف الدين قلاوون وللملك الأيوبي المنصور الثاني ملك حماه، للزحف على مملكة أرمينية الصغرى وتدميرها، وبالقرب من دريساك (قلعة حصينة قرب أنطاكية) دارت معركة كبرى بين الجيشين الإسلامي والأرميني في شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/ آب ١٢٢٦م، هزم فيها الجيش الأرميني شر هزيمة وقتل في المعركة الأمير توروس ابن الملك هيثوم الأول، فيما وقع الأمير ليو ابنه الآخر أسيرا في أيدي

(١) المقرزي، السلوك، ج١، ص ٥٥٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٧.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٧، رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣،



المسلمين، أما الملك نفسه فكان متغيبا عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة مغول فارس.<sup>(١)</sup>

وبعد هذه المعركة انقسم الجيش الإسلامي إلى فرقتين، فرقة قادها الأمير سيف الدين قلاوون وتوجه بها إلى مدن أرمينية الرئيسية وهي المصيصة، أذنه، طرسوس، إياس، فهاجمها ودمرها دون مقاومة تذكر. أما الفرقة الثانية فقادها الملك الأيوبي المنصور الثاني وتوجه بها إلى سبيس عاصمة أرمينية، فاستولى عليها دون مقاومة أيضا، وبعد أن نهبها أشعل النيران فيها.

وبعد أن مكث الجيش الإسلامي مدة عشرين يوما في أراضي مملكة أرمينية عاد إلى الشام ومعه أربعون ألف أسير وغنائم كثيرة لا تحصى، وغنمت العساكر ما لا يُعدّ ولا يحصى حتى بيع الرأس البقر بدرهمين، ولا يوجد من يشتريه، وكانت ذبائح العسكر في كل يوم جملة من البقر والجاموس والأغنام.<sup>(٢)</sup>

وعندما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى السلطان الظاهر. اتجه مسرعا من دمشق إلى أفامية لاستقبال قواته هناك، ثم عاد على رأسها إلى دمشق.<sup>(٣)</sup>

وكان السلطان في أثناء توجهه للالتقى عساكره قد نزل على بلدة قارا الواقعة بين دمشق وحمص، وكان أهلها من النصاري، فشكى إليهم أنهم يعتدون على المسلمين في الضياع المجاورة وبييعون من يقع إليهم للصليبيين في عكا بيع الرقيق دون أن يراعوا حرمة في ذلك طالما أنهم يعتبرون من رعايا الدولة، فأمر السلطان بنهب أهلها وقتل كبارهم وسبي النساء والأولاد، كما أمر بتحويل كنيسة إلى جامع، ونقل إليها رعية من المسلمين ورتب فيها خطيبا وقاضيا.<sup>(٤)</sup>

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٠-٢٧١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٤٧، وليم

موير، دولة المماليك في مصر، ص ٤٨، رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٥٣-٥٥٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧٠-٢٧٧، أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٣-٤، المقرئ،

السلوك، ج ١، ص ٥٥٣، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٤٢٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٧١.

(٤) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٢٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٥٣، أبو المحاسن، النجوم

الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٠، العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٤٢٥.



أما الملك هيثوم الأول، فلما عاد إلى مملكته ومعه جماعة صغيرة من المغول ألفى ولي عهده الأمير ليو أسيرا، وعاصمته خرابا، وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكته بعد ذلك مطلقا من هذه الكارثة التي حلت بها جراء ما اقترفت يداها، وصار دورها سلبيا في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى.<sup>(١)</sup>

#### اعتداءات الصليبيين ورد القوات الإسلامية:

في مطلع المحرم سنة ٦٦٥هـ / تشرين أول ١٢٦٦م قدمت للصليبيين نجدة من جزيرة قبرص على رأسها الملك هيو وعدتها ألف ومائة فارس وصلت إلى عكا، ولما كان هيو متحمسا لقتال المسلمين، فقد قاد هذه القوة التي أتى بها مع فرسان الطوائف الدينية والعسكرية والكتيبة الفرنسية وشن هجوما على منطقة الجليل حتى وصل إلى طبرية، غير أن القوات الإسلامية المرابطة في صفد تصدت للملك هيو ولاحقته قريبا من عكا حيث أنزلت به هزيمة منكرة وقتلت الكثير من قواته. «وصار في عكا بسببهم عزاء عظيم لما قتل من ملوكهم في هذه الغزاة».<sup>(٢)</sup>

أما السلطان الظاهر، فكان قد عاد إلى مصر عن طريق الكرك، وفي الطريق عند بركة زيزاء وقع عن فرسه أثناء الصيد فكسرت فخذه، فحمل إلى القاهرة، وتعافى بعد مدة، وفي أثناء ذلك ورد عليه رسول من قبل الملك هيثوم الأول ملك أرمينية يشفع في ولده ليو الذي كان قد وقع في الأسر، فأمر السلطان بفك قيده فقط ولم يطلق سراحه، وكتب للملك هيثوم موادعة على بلاده لمدة سنة.<sup>(٣)</sup>

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٨، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٨، المقرئ، السلوك، ج١، ص ٥٥٤-٥٥٥.

(٣) المقرئ، السلوك، ج١، ص ٥٥٥، وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص ٤٨-٤٩.



## المهادنات مع قوى الصليبيين

في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ / شباط ١٢٦٧م تحرك السلطان إلى بلاد الشام على رأس شطر من جيشه تاركاً معظمه في مصر، إذا كان هدفه تعمير صفد وقلعتها، وكان قد أمر في السنة السابقة ببناء قلعة في قاقون لتكون عوضاً عن قيسارية وأرسوف بعد تدميرهما، وقد كملت عمارة هذه القلعة في الشهر الذي قدم فيه إلى بلاد الشام<sup>(١)</sup>.

وعندما وصل إلى غزة ورد عليه رسل الصليبيين ومعهم هدايا وجماعة من أسرى المسلمين هدية له تعبيراً عن حسن نواياهم تجاهه، فكسا الأسرى وأطلقهم وأحسن للرسول، ثم توجه إلى صفد، وفي أثناء مقامه فيها بلغه أن الصليبيين في عكا يخرجون منها في بعض الأيام من الصباح وحتى الضحى، فسرى إليها في كوكبة من الفرسان سراً، ولم يشعر أهل هكا إلا وهو على باب مدينتهم مرة أخرى، فدمر عمائرهم وآبارها وقطع أشجارها، واستمر على ذلك مدة أربعة أيام.

وفي أثناء مقامه في صفد ورد عليه رسل من قبل بعض قوى الصليبيين في بلاد الشام يلتمسون المودة والمهادنة لخشيته من أن يقوم بالانتقاض على معاقلم بعد أن أفزعتهم تلك الانتصارات الكبيرة والساحقة التي حققها بين سنتي ٦٦٣ - ٦٦٥ هـ / ١٢٦٥ - ١٢٦٧م.

فقد ورد عليه رسل الملك «هيشوم الأول» ملك أرمينية، فجدد السلطان الهدنة له لمدة سنة أخرى، ولكنه احتفظ بالأمير ليو ولم يطلق سراحه<sup>(٢)</sup>.

وورد عليه رسل ملكة بيروت «إيزابيلا دي ابلين»، فعقد معهم مودة بعد أن التزمت الملكة برد التجار مع أموالهم الذين أسروا في وقت سابق - وهم أهل أحد قاداته<sup>(٣)</sup>.

وورد عليه رسل أمير صور «فيليب دي مونتفورت»، فعقد معهم هدنة مدتها

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ٢٧٥، ٢٨٠، المقرئ، السلوك، ج١، ص ٥٥٧.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٢، المقرئ، السلوك، ج١، ص ٥٥٩.

عشر سنين لصور وبلادها وهي تسع وتسعون قرية، وذلك بعد أن ردّ الأمير جماعة من المغاربة كانوا قد وقعوا بيده، ودفع دية غلام للسلطان كان قد قتله في وقت سابق<sup>(١)</sup>.  
وورد عليه رسل بيت الإسمبتيار يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب، وكانوا قد تحدثوا مع السلطان في هذا الأمر في السنة السابقة، وكان الأمر قد استقر معهم حينذاك على أن يكون الفسخ بيد السلطان، ولما حضرت رسلهم هذه المرة التمسوا أن يحلف لهم السلطان على الهدنة، فقررت الهدنة معهم لعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وبطل بموجبها ما كان يأخذه الإسمبتيارية من قطيعة عن بلاد الدعوة الإسماعيلية (وهي حصون، مصياف والعليقة والكهف والقدموس والمنيقة)، وحماه وشيزر وأفامية وأبي قبيس وعينتاب<sup>(٢)</sup>، وكان ما يأخذه الإسمبتيارية ألفاً ومائتي دينار ومائة مد من حنطة، وشعير (نصفين) عن بلاد الدعوة الإسماعيلية، وأربعة آلاف دينار عن حماه وشيزر وأفامية، وثمانمائة دينار على بلاد أبي قبيس وعينتاب<sup>(٣)</sup>.

وورد عليه قسطلان يافا يطلب عقد هدنة مع الأمير جاك الذي تولى إمرة يافا بعد وفاة والده «جوان دبلين»، إلا أن السلطان رفض ذلك بسبب الغارات التي كان يشنها هذا الأمير على المسلمين، وأجاب القسطلان بقوله: «الذي كان معي صلحا قد مات»<sup>(٤)</sup>، وبفراغ السلطان من تعمير صند وعقد هذه المهادنات عاد أدراجه إلى القاهرة في أوائل سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨ م.

ومما هو جدير بالملاحظة أن السلطان الظاهر بيبرس لم يعقد هذه المهادنات مع بعض قوى الصليبيين في بلاد الشام إلا ليحول بينهم وبين تقديم المساعدة العسكرية الفعلية للمعاقل التي كان يضعها على قائمة مخططاته العسكرية، وما رفضه لعقد هدنة مع صاحب يافا إلا دليلاً على ذلك، إذ كانت يافا أول هدف على قائمته آنذاك، وبخاصة بعد أن أصبحت معقلاً يتيماً في وسط محيط إسلامي، كما أن السلطان لم

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٢، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٥٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٣.

(٣) م.ن، ص ٢٨٩.

(٤) م.ن، ص ٢٨٩.



يلزم نفسه -كما سنبين- بتنفيذ تلك المهادنات إذا ما سنحت له فرصة الانقضاظ على معاقلهم، كيف لا وهم المعتدون المحتلون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر من ناحية، ولم يحترموا العهود والمواثيق التي كانوا يعطونها للمسلمين عندما كانوا يحتلون مدنهم وقراهم من ناحية أخرى.

#### **تجدد القتال بين الصليبيين في عكا:**

لم يحاول الجنوية والبنادقة تصفية خلاقاتهم التي ظلت قائمة بينهما داخل عكا منذ عقد المعاهدة التي توصلوا إليها سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م على أثر القتال الذي نشب بينهما قبل ذلك بسنتين، وقد تجدد القتال بينهما مرة أخرى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م وذلك عندما أتى اسطول جنوي في السنة ذاتها مؤلفاً من ثمان وعشرين سفينة بقيادة الأمير «لوتيشستوجر مالدي» الذي شق طريقه إلى عكا واستولى على برج الذباب الذي يقع في طرف حاجز المياه، فتصدت له السفن البندقية، ودارت معركة بحرية بين الطوفين انسحب بعدها الأسطول الجنوبي إلى صور على أثر خسارته لخمس عشرة سفينة<sup>(١)</sup>

#### **فتح يافا:**

عاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشه إلى بلاد الشام في مستهل جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ / شباط ١٢٦٨م وأرسل إلى نائب دمشق يأمر بتجهيز الجيش الشامي والخروج به إلى قلعة الشقيف لحصارها ريثما يصل إليه، وعندما وصل قريبا من يافا حضر إليه رسل صاحبها يطلبون الهدنة<sup>(٢)</sup>، وكان السلطان قد بلغه «بان أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا، وأقاموا في يافا حانة، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسبابا ليست في الهدنة» فعزم على فتحها، فألقى القبض على رسل صاحبها ثم نزل عليها على حين غفلة من أهلها، وشرع من فوره بحصارها ثم افتتحها عنوة بالسيف في ٢٠ جمادى الآخرة / ٧ آذار من

---

(١) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٤٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٢، ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٢٤.

السنة ذاتها، فلم يسع أهلها إلا اللجوء إلى القلعة، فحاصرها السلطان إلى أن تسلمها صلحاً في اليوم المذكور، ثم سمح لأهلها بالخروج منها، وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا البحر إلى عكا، ثم شرع في هدم القلعة والمدينة، وجمع أخشابها ورخامها وحمله في البحر إلى القاهرة<sup>(١)</sup>.

وملك السلطان بعض قراها لعدد من الأمراء المماليك، ورتب إقامة قبائل من التركمان بالبلاد الساحلية التي افتتحها لحمايتها، وأمر ببناء الجوامع والمساجد بهذه البلاد وإظهار شعائر الإسلام وإزالة المنكرات منها، كما رتب الخفراء على السواحل والزمهم بدركها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس في غيره وقال: «هذه بلاد فتحها الله على يدي»، واختار أن يكون مأكوله ومشروبه من هذا المال<sup>(٢)</sup>.

### فتح الشقيف:

عندما فرغ السلطان من هدم يافا اتجه إلى صفد لأخذ المجانيق والسلاح، ثم تحرك قاصداً الشقيف فنازلها في ١٩ رجب ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م وقدم عليه للمشاركة في الجهاد عدد كبير من الفقهاء والفقراء<sup>(٣)</sup> وكان قد ورد عليه أثناء مسيره إليها بعض المسافرين من عكا ومعهم كتب من أهلها إلى من بالشقيف من الصليبيين، وكانت هذه الكتب أوراقاً مقصوصة عوضاً عن الكتابة، وكان مضمونها بعد ترجمتها: «لا يهولنكم نزول هذا العدد عليكم وقاتلوه أشد قتال، وإن احتجتم إلى شيء تصرفونه فيما بينكم عليه فخذوه من فلان» وسموا لهم رجلاً، فأعمل السلطان الحيلة والمكيدة للسيطرة على القلعة، فأمر أن يكتب مثلها وأن يزداد فيها «وإن أنتم رأيتم من أنفسكم عجزاً من قتاله فسلموا الحصن اليه، واجعلوا فيما تشرطون عليه سلامة أنفسكم وأولادكم وحرمةكم»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥١، أبو المحاسن،

النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٢.

Khawaiter, Baibars The First, P97

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٦٥.

(٤) ابن شداد الحلبي، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٩٦.



وأضاف ابن شداد الحلبي في مصدر آخر، بأنه قد حذر في هذا الكتاب مقدم الشقيف من الوزير المقيم عنده على لسان أهل عكا، وأرسل في الوقت ذاته كتاباً آخر إلى الوزير نفسه يحذره من مقدم الشقيف -على لسان أهل عكا أيضاً-<sup>(١)</sup> فدب الخلاف بينهم وأخذت الفتنة تستعر في القلعة في الوقت الذي شدد فيه السلطان الحصار عليها مستخدماً ستة وعشرين منجنيقاً لقصفها<sup>(٢)</sup>، مما اضطرهم إلى إخلاء إحدى القلعتين وتخريبها، فسيطر عليها السلطان، وشدد حصاره على القلعة الأخرى، ونتيجة لذلك «سألوا الأمان على نفوسهم، وأنهم يؤخذون أسارى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال فأجاب السلطان إلى ذلك»<sup>(٣)</sup>، وتسلم القلعة منهم في ٢٩ رجب/ ١٥ نيسان من السنة ذاتها<sup>(٤)</sup>، وأخرج منها النساء والأطفال وحملهم على الجمال إلى صور وسير معهم من يحفظهم، في حين قيد الرجال كلهم وسلمهم للعسكر، ثم شرع في هدمها، فهدمت إلى الأرض، إلا أنه عاد وولى الأمير سيف الدين بلبان الزيني لعمارتها فيما بعد، نظراً لأهميتها العسكرية<sup>(٥)</sup>.

وقد أربع هذا الفتح ملكة بيروت وتخوفت من أن يلحق بمقلها المصير ذاته، فأرسلت إلى السلطان تفاوضه على استمرار الهدنة، ولكي تظهر مصداقيتها في ذلك، فقد توقفت عن الماطلة في تسليم التجار مع أموالهم الذين كانوا قد أسروا في وقت سابق، وإعادتهم إلى السلطان، عندئذ أقر استمرار الهدنة معها.<sup>(٦)</sup>

### فتح أنطاكية:

ما أن انتهى السلطان من أمر الشقيف حتى تحرك بجيشه شمالاً صوب طرابلس وخيم بالقرب منها، ثم هاجم النواحي المحيطة بها، فقطع أشجارها وهدم كنائسها

---

(١) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ص ١٥٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٥٦٥.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٨.

(٤) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة، ص ١٥٨ - ١٦٠.

Khwaiter, op. cit, P98.

(٥) ابو المحاسن، التجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٢.

(٦) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٩.

وافتح برجاً كان قد عصى فيه جماعة من الصليبيين فضرب رقابهم، وأسر عدداً منهم وغنم غنائم كثيرة، كل ذلك وأمير طرابلس قابح في مدينته فزعاً لا يحرك ساكناً<sup>(١)</sup>.

ثم تحرك السلطان باتجاه صافيتا وانطرطوس فتلقاه أميرها الصليبي بالخدمة وأطلق سراح ثلاثمائة أسير مسلم كانوا في قبضته وذلك تعبيراً عن تودده، فشكره السلطان ولم يتعرض لبلاده، وواصل سيره إلى حمص ثم حماه، وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق لاجتياح بلاد أنطاكية:

- فرقة بقيادة الأمير بدر الدين الخزندار ووجهتها ميناء السويدية لقطع الطريق بين أنطاكية والبحر.

- فرقة بقيادة الأمير عزالدين أوغان ووجهتها الدريساك، لسد الممرات بين أرمينية والشام، ولمنع أية مساعدة تقدم منها لأنطاكية عند البدء بمهاجمتها.

- فرقة بقيادة السلطان نفسه وقد نزل بها أولاً على أفامية، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها محاصراً في الأول من شهر رمضان سنة ٦٦٦هـ / ١٥ آيار ١٢٦٨م، وقد وافته الفرقتان السابقتان بعدما أحدثاه من تدمير وقتل وأسر في منطقة السويدية والدريساك<sup>(٢)</sup>.

وكان بوهمند أمير أنطاكية في طرابلس آنذاك، فتولى قيادة أنطاكية الكند اسطبل «سيمون مانسل»، وحدث أن كان سيمون هذا يقود جماعة من العساكر خارج المدينة في محاولة لمنع مهاجمتها، غير أنه وقع في أسر القوات الإسلامية، فلما حضر إلى السلطان «رأه» (السلطان) رجلاً عاقلاً، وسأل أن يدخل إلى أنطاكية ويتوسط لأهلها، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله تعالى، فسير كند اسطبل من أحضر ولده وجعله رهينة، ودخل البلد وتحدث وخرج معه جماعة من القسيسين والرهبان وأقاموا يترددون ثلاثة أيام، فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس (الأمير بوهمند)<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٠٠، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٢٦.

(٢) المقریزی، السلوك، ج ١، ص ٥٦٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٤٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٠٧، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣، ص ٥٥٨.



ولمّا لم يصل السلطان معهم إلى نتيجة شرع بشن هجوم عام على جميع قطاعات أسوارها، وركز في هجومه على موضع من أسوارها بالقرب من القلعة وقبالة منحدر جبل سيلبيوس، في محاولة لاقتحام المدينة عبره، وأمام شدة ضرباته انهارت كل مقاومة للصليبيين<sup>(١)</sup>، وتمكن المجاهدون من اعتلاء الأسوار من الموضع الذي انتخبه السلطان، وتدفقوا إلى داخل المدينة في يوم السبت ٤ رمضان / ١٨ أيار<sup>(٢)</sup>. فهرب من استطاع من أهلها إلى القلعة، «وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن رجل في المدينة وكان بها فوق المئة ألف نفر»<sup>(٣)</sup> وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لا يفر منها أحد<sup>(٤)</sup>.

وأما القلعة فاجتمع فيها من المقاتلة الصليبيين ثمانية آلاف سوى النساء والأطفال، ولمّا لم يكن بالقلعة مياه ولا طواحين تكفيهم، فقد أنفذوا إلى السلطان «يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى، فأمنهم على ذلك، وتسلم القلعة منهم في اليوم التالي الأحد ٥ رمضان / ١٩ أيار من السنة ذاتها»<sup>(٥)</sup> ووجد أثناء تسلم القلعة جماعة من المسلمين الحلبين أسرى لديهم، فأطلق سراحهم<sup>(٦)</sup>.

وكانت الغنائم لا تحصى لدرجة أن «قسمت النقود بالطاسات»<sup>(٧)</sup> أما الأسرى فكانوا أكثر من أربعين ألف أسير<sup>(٨)</sup>، فأقام السلطان يومين وهو يباشر تقسيم الغنائم والأسرى بين قواته العسكرية<sup>(٩)</sup>، ولم يجز إلا لعدد قليل من الأسرى من أثرياء المدينة

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٠٨، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ١٧١ - ١٧٢.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٠٨، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٥٨.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣١٨، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٦٧.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٦٧.

(٥) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٠٨.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٢، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٣.

(٧) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٤، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١٧٢.

(٨) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٣.

(٩) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٤.

بافتداء أنفسهم بالمال ومنهم الكند اسطبل سيمون مانسيل<sup>(١)</sup>، ثم غادر المدينة بعد أن أمر بإحراقها، فأصبحت أثراً بعد عين<sup>(٢)</sup>.

وقد أحدث استعادة المسلمين لأنطاكية فزعاً كبيراً في قلوب الصليبيين المحيطين بها، فأرسلوا إلى السلطان يطلبون الأمان، فأمنهم وأرسل قوة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بيليك لتسلم حصونهم وهي: ديركوكش، شقيف كفردين، شقيف كفر تلميس، فتسلمها منهم وعاد بهم أسرى إلى السلطان<sup>(٣)</sup>.

فلما رأى الداوية في حصن بغراس سقوط هذه الحصون، تركوا حصنهم فارين منه، فأرسل السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر في قوة عسكرية فاستولى عليه<sup>(٤)</sup>.

وقد هال ذلك بطريق قلعة القصير - وهو من نصارى بلاد الشام - وتخوف من أن يقوم السلطان بالاستيلاء على قلعته، فأرسل إليه يلتمس المودة على أن يتنازل له عن نصف البلاد التي تتبعه، فسمح له السلطان بالبقاء بها سبع سنوات على أنه من أتباعه، وكتب له هدنة بذلك<sup>(٥)</sup>.

ولم يبق من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية التي ظلت معزولة في جيب صغير إلى أن تم فتحها على يد السلطان المنصور قلاوون فيما بعد<sup>(٦)</sup>.

أما أمير أنطاكية «بوهمند السادس» الذي كان قابلاً في طرابلس مركز إمارته الثاني، فقد كتب إليه السلطان الظاهر بيبرس يبشره بفتح أنطاكية ساخراً منه ومحتقراً إياه، ومن جملة ما قاله له: «وكتابتنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر يكونك لم تكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها

---

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٨ - ٥٥٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٢٤، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١١٢، ولیم مویر، دولة المماليك في مصر ص ٤٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

Khowaiter, op. cit, P101

(٤) ابن عبد الظاهر، العروض الزاهر، ص ٣٢٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٢.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٢٥، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٦٠.

(٦) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٦٠.



الحي إذا شاهد الأموات»<sup>(١)</sup>.

وبالاستيلاء على أنطاكية انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية الصغرى، وتبددت فكرة التحالف بين أنطاكية وأرمينية والمغول<sup>(٢)</sup>.

وقبل أن يعود السلطان الظاهر بيبرس مزهواً بالنصر إلى دمشق عقد هدنة مع الملك هيثوم الأول ملك أرمينية نتج عنها ما يلي:

١- إطلاق سراح الأمير «ليو ابن الملك هيثوم» من الأسر، مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر من سجن أبغا بن هولكو زعيم مغول فارس، وقد توسط في ذلك الملك هيثوم، وكان سنقر الأشقر قد وقع في أسر المغول عندما احتلوا حلب على عهد هولكو.

٢- تنازل الملك هيثوم عن المناطق التالية للسلطان الظاهر وهي: بهسنا، الدريساك، مرزبان، رعيان، الزرب، شبح الحديد، وكانت كلها ضمن إقليم مرعش<sup>(٣)</sup>.

وبذلك سيطرت الدولة المملوكية - باستثناء بهسنا التي ماطل هيثوم في تسليمها في ذلك الحين - على مناطق لها أهميتها العسكرية بسبب تحكمها في الطريق بين الجزيرة الفراتية حيث المغول حلفاء هيثوم وأرمينية الصغرى<sup>(٤)</sup>.

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣١٢ - ٣١٣، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٨، ص ٣٠٢.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٥٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٢٨، أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٥.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٤٨.

## أوضاع الصليبيين في عكا

### وتطور علاقة السلطان الظاهر بيبرس بهم

توفي الملك «هيو الثاني» ملك قبرص الوصي على عرش مملكة بيت المقدس (عكا) عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧، ولم يتجاوز من العمر أربعة عشر عاماً، فخلفه على العرش الوصي «هيو لوزجنان» باسم هيو الثالث، الذي لم يلبث أن توج ملكاً على قبرص في العام ذاته،

وحدث في العام التالي أن أعدم الملك «كنرادين هوهنتشاوفن» في نابولي بناءً على أوامر من شارل انجو ملك صقلية، بعد أن حاول عبثاً أن يسترد منه ارثه في إيطاليا، وكان كنرادين الملك الأصيل لمملكة بيت المقدس، وبمقتله زال الفرع الأكبر للأسرة الحاكمة في بيت المقدس (عكا)، ولما كانت الأسرة الحاكمة في قبرص هي التي تلي أحقية ولاية عرش مملكة بيت المقدس، فقد توج هيو الثالث ملكاً على مملكة بيت المقدس إضافة إلى ملكه في قبرص عام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، (على الرغم من الخلافات التي حدثت بين الصليبيين قبيل ذلك حول أحقية عرش مملكة بيت المقدس)، وأضحى عليه أن يمضي إلى صور كي يتوج في كاتدرائيتها التي صارت منذ تحرير مدينة بيت المقدس من قبل السلطان صلاح الدين، الموضع التقليدي الذي يتوج فيه ملوك مملكة بيت المقدس<sup>(١)</sup>.

على أن الملك هيو الثالث الذي وصل إلى عكا بعد تتويجه في صور أثر أن يتوود إلى السلطان الظاهر أملاً في عقد هدنة معه، وبعد أن توسط له أمير صور، أرسل وفداً إلى السلطان عقب عودته من أنطاكية «وحصل الاتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شيء يسير وهو مدينة عكا وبلادها، وهي إحدى وثلاثون ضيعة، وتقرر أن حيفا تكون للفرنج، ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وبلاد الكرمل تكون مناصفة، وعثليث يكون لها خمس قرى، والباقي مناصفة، والقرين، عشرين قرايا، والباقي للسلطان، وبلاد صيدا، الوطاة للفرنج، والجبلية للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص»<sup>(٢)</sup>.

(١) رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٦٢ - ٥٦٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٢.



وتحدث المؤرخ ابن عبدالظاهر عن هذا الصلح بقوله: «هذا ما استقر عليه الحال في البلاد كلها، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وأنها لا تنقض برجل غريبة، ولا ملك يحضر في البحر، واشتراط عليه إطلاق رهائن البلاد، وتوجهتُ رسولاً أنا والأمير كمال الدين بن شيت لاستحلاف الملك، وسير السلطان معنا هدية، عشرين نفرًا من أسارى أنطاكية قسيسين ورهبانا، فدخلنا عكا في رابع وعشرين شوال، واحتفل بنا احتفالاً كثيراً، وكان السلطان قد وصّى بأن لا نتواضع له في جلوس ولا مخاطبة، فلما دخلنا إليه رأيناه على كرسيه هو والمقدمين، فلم نجلس إلى أن وضع لنا كرسي قبالتة، ومد الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم نعطه حتى مد الملك يده وأخذه، وتوقف في أشياء منها أنه رغب في أن مملكة قبرص يكون لها صلح بمفردها، وأن الصلح يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر، وأن الإسماعيلية (الدعوة) لا يكون لها حديث في الهدنة، واستعفى من حديث الرهائن، وفصول آخر، وعادت رسل السلطان عنه، ولم يحلف وبقيت الأمور ساكنة»<sup>(١)</sup>.

ويعود سبب عدم توقيع الملك هيو الثالث على هذه الهدنة إلى تخوفه من شارل المجو ملك صقلية الذي كان يتطلع لحكم بيت المقدس (عكا) بوصفه وريثاً للإمبراطور «فردريك الثاني» الذي كان قد تسلم مدينة بيت المقدس من السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.

أما الملك شارل المجو هذا، فقد أرسل إلى السلطان الظاهر كتاباً يوصية فيه بالصلبيين المتواجدين في المنطقة الساحلية ورفع السيف عنهم، فكتب السلطان إليه بقبول شفاعته فيهم، نظراً للعلاقة التي كانت تجمعهم به<sup>(٢)</sup>.

على أن السلطان ما لبث أن عاد إلى شن هجماته العسكرية ضدهم سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وذلك أن الصليبيين في عكا قد أقدموا على تنصير أربعة من ممالك السلطان كانوا قد هربوا إليهم، كما فعل ذلك أيضاً أمير صور، إذ نصر مملوكاً للسلطان كان قد هرب إليه كما نصر فتاة مسلمة كانت أسيرة لديه، وعندما طالب السلطان بردهم إليه رفض الصليبيون ذلك، وكان أن حضر رسل من جهتهم آنذاك يطلبون استمرار

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٢ - ٣٣٣،

(٢) م.ن، ص ٣٣٦.

الهدنة، فأمر بتقييدهم، وكتب من فوره إلى نوابه بفسخ الهدنة مع الصليبيين في عكا وصور، وبناء على أوامره شن الأمير جمال الدين أقوش الشمسي على رأس قوة عسكرية هجوما على بعض معاقلها، كما شن السلطان بنفسه على رأس قوة عسكرية أخرى هجوما على المناطق المحيطة بصور، وأعطى أوامره إلى طائفة من جنده باستغلال بلاد صور وقطع الميرة عنها للتضييق عليها<sup>(١)</sup>.

غير أن السلطان وإن كان قد اتخذ هذا الموقف مع أمير صور إلا أنه وفي الوقت ذاته كان شديد الحرص على عدم معاداة الصليبيين في آن واحد، فقد استقبل رسل ملكة بيروت «ايزابيلا دي ابلين» وكان طلبهم عقد هدنة معها فوافق على ذلك وعقد هدنة مع الملكة مدتها عشر سنين<sup>(٢)</sup>.

---

(١) م.ن، ص ٣٤٦ - ٣٤٧، المقرزي، السلوك، ج ١، ص ٥٧٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٥٨، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٤، ٣٩٥، انظر نص الهدنة في الملحق.



### حملة ملك أراغون إلى عكا سنة ١٢٦٨هـ / ١٢٦٩م

إزاء الهزائم المتلاحقة التي منى بها الصليبيون في بلاد الشام، تحرك ملك أراغون جيمس الأول على رأس أسطول قوي إلى الشرق، أملاً في انقاذ ما تبقى من معاقل الصليبيين، وكان في الوقت ذاته قد أرسل إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول بأنه قادم إليه من جهة سيس عاصمة مملكة أرمينية في سفن كثيرة لشن هجوم مشترك على ديار الإسلام، بيد أن الرياح تجرى بما لا تشتهي السفن، فقد صادفته عاصفة عاتية أثارت الرعب في قلبه فارتد خاسئاً إلى بلاده على رأس الشطر الأكبر من أسطوله، ولم يواصل الحملة إلا أسطول صغير قاده ولداه غير الشرعيين هما «فرناندو سانكيز ويدرو فرنانديز» قبلغا عكا في أوائل سنة ٦٦٨هـ / تشرين أول ١٢٦٩م<sup>(١)</sup>.

وبهذه النجدة التي أتت إلى عكا توهم الصليبيون فيها أنهم قادرون على مواجهة القوات الإسلامية خارج أسوار عكا، فخيّموا بظاهرها «وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم» وقادهم الغرور إلى شن غارة على نواحي الجليل بقيادة «ولفريترميس» الذي لم يدر بخلده أن السلطان الظاهر كان يرصد حركاته، مما أوقعه في كمين السلطان، وتناولتهم القوات الإسلامية قتلاً وأسرًا، فلم يبق منهم على قيد الحياة ممن شارك في القتال إلا عدداً بالغ القلة، وبهذا الفشل الذريع، أبحر ولدا ملك أراغون عائدين إلى بلادهما<sup>(٢)</sup>.

أما السلطان الظاهر فقد تحرك على رأس خيار عسكريه إلى جهة حصن المرقب، ولما كانت الأمطار والثلوج شديدة عدل عنه إلى حصن الأكراد، ثم ما لبث أن عاد أدراجه إلى القاهرة عندما ترامى إلى مسامعه خروج الملك الفرنسي لويس التاسع على رأس حملة صليبية جديدة إلى الشرق، وهي المعروفة بالحملة الثامنة، وقد توجه بها سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م إلى تونس، وهناك انتهى أمرها إلى الفشل بعد موت الملك لويس.

وكان السلطان الظاهر يخشى أن تتجه الحملة إلى مصر، ولذلك «اهتم بالثغور والشواني (السفن)، وفكر في جهة عسقلان وأن الملك الفرنسي ربما يقصدها ليعمرها

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٦٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢،

ص ١١٥١. Khowaiter, op. cit, P105.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٦٢ - ٣٦٤، رنسيمان، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٦٧ - ٥٦٨.

وكان بها بقايا أسوار لا سيما قلعتها، فتوجه إليها بنفسه وهدمها<sup>(١)</sup>.

### فتح قلعة صافيتا:

وبفشل حملة لويس التاسع عاد السلطان على رأس جيشة إلى بلاد الشام لمواصلة جهاده ضد الصليبيين، فهاجم المناطق المحيطة بطرابلس وحرر قلعة صافيتا بالأمان في شهر رجب ٦٦٩هـ/أذار ١٢٧١م، وسمح لمن كان بها من الداوية وعدتهم سبعمائة رجل عدا النساء والاطفال بالخروج من الحصن، فتوجهوا إلى انطربوس<sup>(٢)</sup>. كما استولى على الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، بالأمان أيضا، كحصن المجدل وتل خليفة وغيره من الحصون الأخرى المنتشرة هناك<sup>(٣)</sup>.

### فتح حصن الأكراد:

ثم توجه السلطان بقواته إلى حصن الأكراد فنازله واستولى على بعض أرباضه، ويتكامل نصب المجانيق حوله، شرع بمهاجمته، وتمكن من فتحه عنوة بالسيف في ١٦ شعبان ٦٦٩هـ/أذار ١٢٧١، فخرج الصليبيون إلى التلة المقابلة له، فاعمل السلطان الحيلة لإجبارهم على الاستسلام، إذ كتب «كتابا على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالتلة يأمرهم بالتسليم» وقد نجحت هذه الحيلة، فقد طلبوا الأمان من السلطان، فأمنهم وسمح لهم بالخروج، فتوجهوا إلى طرابلس، وتسلم السلطان الظاهر الحصن في ٢٤ شعبان/٧ نيسان من السنة ذاتها<sup>(٤)</sup> وأمر بعمارة البلد، وجعل كنيسة جامعاً وأقام فيه الجمعة، وولى فيها نائبا وقاضيا<sup>(٥)</sup>.

وقد جاء فتح هذا الحصن ليدعم مركز المسلمين في مواجهة الصليبيين فقد،

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٨٥ - ٥٩٠.

King; Op. Cit, p 270

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٩، المقرئ،

السلوك، ج ١، ص ٥٩٠، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٧١.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٧٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٠.

(٤) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ١٩١، أبو المحاسن،

المصدر السابق، ج ٧، ص ١٥١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٩.



اتخذه السلطان قاعدة لعملياته الحربية ضد إمارة طرابلس<sup>(١)</sup>.

وقد أفزع هذا الفتح صاحب انطربوس، وهو مقدم بيت الداوية، فأرسل إلى السلطان طالباً المهادنة، وتعبيراً عن مصداقيته في ذلك، بعث إليه بمفاتيح مدينته، فصالحه السلطان على الأسس التالية:

١- استرجاع جميع ما أخذه الداوية من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية، (الناصر صلاح الدين).

٢- ترك جميع ما للداوية من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.

٣- يكون للسلطان نصف محاصيل انطربوس.

٤- يعين السلطان نائباً عنه في انطربوس<sup>(٢)</sup>.

وقد شجع هذا الصلح صاحب حصن المرقب وقلعة لد وهو مقدم بيت الإسبتار، فطلب عقد هدنة مع السلطان، فعقد السلطان معه هدنة أولها مستهل شهر رمضان ولمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على الأسس التالية:

١- استرجاع جميع ما أخذه الإسبتار من بلاد الإسلام في الأيام الناصرية.

٢- ترك جميع ما للإسبتار من مناصفات وحقوق على بلاد الإسلام.

٣- تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين الإسبتار.

٤- عدم تجديد عمارة بحصن المرقب<sup>(٣)</sup>.

#### فتح حصن عكار:

ثم توجه السلطان الظاهر بقواته العسكرية في ١٧ رمضان ٦٦٩هـ/ أواسط نيسان ١٢٧٢م إلى حصن عكار الذي كان يمتاز بموقعه الحصين في جبال صعبة المرتقى، وكان يشكل ضرراً بالغاً على المسلمين فحاصره ونصب عليه المجانيق، وبعد قتال شديد طلب الصليبيون الإسبتارية الذين كانوا فيه الأمان في ٢٩ رمضان/ أوائل أيار على أن

---

(١) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٦٨، ٢٧١. King. op. Cit,

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٨ - ٣٧٩، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٩١ - ٥٩٢، ابن

أيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٥٤ - ١٥٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥١.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٢، انظر نص الهدنة

في الملحق.

يكنهم السلطان من التوجه سالمين إلى طرابلس، فأجابهم وسمح لهم بالرحيل، فدخلته القوات الإسلامية، وبعد أن صلى السلطان به صلاة العيد رحل عنه ونزل بمرج صافيتا، وكتبت البشائر إلى البلاد الإسلامية بما فتح الله به<sup>(١)</sup>، كما كتب إلى أمير طرابلس بوهمند السادس مبشراً إياه بهذا الفتح تحطيماً لمعنوياته وتحذيراً له بسبب تحالفه مع أبغا بن هولكو زعيم المغول، ومما جاء في هذا الكتاب «قد علم القومص بيمند - جعله الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه - نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها من جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في صبرها على مناكدة الأحوال، ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان غير حبالها رشا، وكيف صابرت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، حسنت بهم استعانة نائبك الذي انتخى بهم، وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس عوضه «الله أكبر» ومن بقي من رجالك اطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح، واطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفتري... ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فنعرف كنائسك واسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب، وتعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول أنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعاً، ولا قضت من ربه بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلا كما عافت شرب دمائهم، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عسكر يعلم القومص هذه الجملة المسرودة، ويعمل بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده»<sup>(٢)</sup>.

كما أرسل له رسالة مشافهة على لسان رجل من فرقة الإسبتارية يقول فيها،

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٧٩ - ٣٨٠، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٩٢، ابن ابيك الدواداري، المصدر السابق، ص ١١٥، ابو المحاسن، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٥١ - ١٥٢، اليافعي، مرآة الجنان ج ٤، ص ١٧٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٠ - ٣٨١، ابن ابيك الدواداري، الدرر الزكية، ١٥٦.



«أين تروح مني والله لا بد أن أخذ قلبك وأشويه، وأنت تنظر، وما ينفعك أبغا بن هلاون»، فلما بلغت هذه الرسالة، أخذ يحترس على نفسه، «ولا عاد يركب ولا يصيد خوفاً على نفسه من الإسماعيلية (أن تغتاله بأمر السلطان) وكان يحب الركوب للصيد، فامتنع من ذلك، فلما بلغ السلطان الظاهر ذلك، سير إليه غزلان مذبوحة وضبعاً حياً، وحمل ثلج ورسالة يقول له فيها: «لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل عليك»<sup>(١)</sup>.

وقد أتبع السلطان ذلك بالتحرك على رأس جيشه صوب طرابلس ونزل عليها في ١١ شوال/أيار من السنة ذاتها، فما كان من بوهمند إلا أن أرسل إلى السلطان يستعطفه ويسأله الصلح، فبعث إليه السلطان الأمير فارس الدين الاتابك والأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي لمفاوضته على الأسس التالية:

- ١- يكون للسلطان من أعمال طرابلس نصف بالسوية.
- ٢- يكون للسلطان دار وكالة وزكاة ونائب ومشد وديوان في طرابلس.
- ٣- يسلم للسلطان جبلة واللاذقية بخراجهما من يوم خروجهما عن الملك الناصر صلاح الدين إلى يوم تاريخة.

٤- يدفع للسلطان نفقات العساكر الإسلامية من يوم خروجه. صعد بوهمند لهذه المطالب، فأبأها وأثر القتال، وأخذ يحصن طرابلس، فرد عليه السلطان بنصب المجانيق حول أسوارها تمهيداً لاقتحامها<sup>(٢)</sup>، إلا أنه تراجع عن عزمه بسبب قدوم الأمير ادوارد على رأس حملة بحرية إلى عكا في ذلك الوقت، فضلاً عن قدوم الملك هيو الثالث ملك قبرص على رأس قوة بحرية ونزوله في عكا أيضاً، وقبل بعقد صلح مع بوهمند بشروط أقل حدة من الشروط السابقة، وقد نص الاتفاق الجديد على ما يلي:

- ١- تكون عرقة وجبلة وأعمالها للأمير بوهمند، مع التأكيد بأن عرقة وأعمالها وهي ٥٦ قرية صدقة من السلطان.

(١) ابن أبيك الدواداري، المصدر نفسه، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) ابن المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٦، ١٩٨٥.

- ٢- يكون ساحل انطرطوس والمرقب وبانياس وبلاد هذه النواحي مناصفات بين  
السلطان وبين فرقتي الداوية والإستارية.
- ٣- تؤول بعرين وحمص القديمة خالصة للسلطان.
- ٤- مدة الصلح بينهما عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.
- على أن بوهمند الذي قبل بهذا الصلح مرغماً بسبب الزحف المستمر للقوات  
الإسلامية على إمارته، استغل هذه الهدنة فتوجه إلى أبغا بن هولاكوزعيم المغول  
يستصرخه على المسلمين ويذكر له ما فتحه السلطان الظاهر من القلاع والحصون، إلا أن  
أبغا لم يستجب له وصاح به قائلاً: «أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنفري عنده، وقللاً  
قلوب عسكري رعباً»<sup>(١)</sup>.
- أما السلطان الظاهر فقد توجه بعد عقد تلك الهدنة إلى قلعة العليقة، فتسلمها  
من الإسماعيلية مع البلاد التابعة لها في شهر شوال/أيار من السنة ذاتها<sup>(٢)</sup>.

### محاولة فزو جزيرة قبرص:

على أثر قدوم هيو الثالث ملك قبرص إلى عكا اغتنم السلطان الظاهر هذه  
الفرصة فوجه إلى قبرص أسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة، تولى قيادتها جمال الدين  
مكي بن حسون ومعه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس دار الصناعة  
بالفسطاط، وشهاب الدين ابراهيم بن عبدالسلام رئيس دار الصناعة بالاسكندرية،  
وشرف الدين علوس ابن أبي المحبة بن علوي العسقلاني رئيس دار الصناعة بدمياط،  
ولجأ ابن حسون إلى الخديعة، إذ طلى السفن باللون الأسود ورفع فوقها أعلاماً عليها  
صلبان، كالسفن الصليبية، حتى إذا دخلت هذه السفن موانئ الصليبيين يعتقدونها  
لهم، فيتم الانقضاض عليهم على حين غرة، وقد انطلقت السفن على هذه الصورة،  
وعندما اقتربت من مناء ليماسول القبرصي هبت عليها ريح عاتية أدت إلى تحطيم  
أحدى عشرة سفينه منها، مما أوقع بحارتها في أيدي القبارصة، وكانوا زهاء ألف

(١) ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد، ص ١٩٢ - ١٩٥، ابن ايبك الدواداري، الدرة الزكية،  
ص ١٦٠.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٤، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٩٣.



وثمانمائة نفس، أما بقية قطع الاسطول، فقد عادت دون تحقيق هدفها<sup>(١)</sup>.  
وقد شمت هيو الثالث ملك قبرص بما حدث للسفن الإسلامية، وأرسل إلى  
السلطان بيبرس يخبره بانكسارها وأمر رجالها، غير أن السلطان لم يجزع لذلك، بل  
قال: «الحمد لله مذ ملكني الله الملك ما خُذلت لي راية، وكنت اخاف من أصابة عين،  
بهذا ولا بغيره»<sup>(٢)</sup>.

### فتح حصن القرين:

توجه السلطان الظاهر بعد أن تسلم قلعة العليقة صوب حصن القرين، وكان من  
الحصون المنيعة التي احتفظ بها الفرسان الإسبتارية حتى ذلك الحين، وقد نازله  
السلطان ضارباً الحصار حوله، وفي أثناء نصب المجانيق تمهيداً لقصفه ورد عليه  
رسولان للصليبيين أحدهما من قبل أمير طرابلس وكان طلبه أن يرحل السلطان عن  
حصن القرين، إلا أن السلطان رفض ذلك، أما الرسول الآخر فكان من قبل ملك قبرص  
الذي كان في عكا في ذلك الوقت، وكان طلبه أن يتنازل له السلطان عن بعلبك  
ونابلس، فسخر السلطان منه قائلاً له «صاحبك في عقله أم لا، أنا باخذ منكم  
حصونكم أول بأول، تطلب مني بلادي»، ثم صرفه من بين يديه<sup>(٣)</sup>.  
وشرع السلطان في هجومه على الحصن، واستولى على روضه، وتحت وطأة  
ضربات الشديدة، طلب الصليبيون الأمان، فأمنهم وأنزلهم من الحصن وأركبهم الجمال  
إلى عكا، ثم دخلته القوات الإسلامية وذلك في ١٣ ذي القعدة ٦٦٩هـ/ ١٣ أيار  
١٢٧١م، وقد أمر السلطان بهدمه، فهدم<sup>(٤)</sup>.

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦ - ٣٨٧. ابن ايبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٦٢، المقرئزي،

السلوك، ج ١، ص ٥٩٣، الموعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٩٤، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٧٨، المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٧٩٤.

(٣) ابن ايبيك الدواداري، الزكية، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦، ابن ايبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ١٦٢، المقرئزي،

السلوك، ج ١، ص ٥٩٣، الكتبي، عيون التواريخ، ج ٢٠، ص ٤٠٣، فضل بن ابي الفضائل، النهج

السديد، ص ١٩٨ - ١٩٩، Khowaiter, op. Cit, p112.

وقد استغل السلطان الظاهر هذا الفتح فرد على ملك قبرص مبشراً إياه بتهكم قائلاً له: «... وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا وصار بذلك يتبجح وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتمليك القرين من البشارة بما كفى الله به ملكنا من العين، وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب، الإستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب... وأين من اتكل على الله وسيفه، كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح ..»<sup>(١)</sup>.  
وقبل أن يغادر السلطان إلى القاهرة قدم عليه رسل أمير صور يطلبون عقد الصلح، فوافق السلطان على أن يكون له خمس بلاد يختارها من البلاد التابعة لها، ويكون لأمير صور عشر بلاد، بينما تكون بقية البلاد مناصفة بينهما، وتم الصلح على هذه الأسس<sup>(٢)</sup>.

#### **حملة الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا إلى عكا سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م.**

كان الملك الإنجليزي هنري الثالث قد عزم على المشاركة في حملة صليبية تتجه نحو الشرق، ولما كان رجلاً كهلاً فقد شجع ابنه ولي عهده الأمير إدوارد على القيام بهذه المهمة عوضاً عنه، فأبحر هذا الأمير من إنجلترا في صيف عام ١٢٧١م على رأس حملة مؤلفة من ألف رجل، ثم تبعه بإمداد بعد بضعة أشهر أخوه آدموند دوق لانكستر وكان إدوارد ينوي اللحاق بالملك الفرنسي لويس التاسع في تونس، والإقلاع معاً إلى الأرض المقدسة، غير أنه لما وصل إلى أفريقية تبين له أن الملك لويس قد مات وأن الفرنسيين يوشكون على العودة إلى فرنسا، فأمضى فصل الشتاء في صقلية ثم أبحر في الربيع إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا ووصل في أواخر سنة ٦٦٩هـ / ١٩ أيار ١٢٧١م<sup>(٣)</sup> ثم تبعه الملك القبرصي هيو الثالث وأمير طرابلس بوهمند السادس، ولم يكذ إدوارد يبلغ عكا حتى أنفذ سفارة إلى أبغا بن هولاكو زعيم المغول للتحالف معاً

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٧ - ٣٨٨، مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٣٨٩، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٥٩٥.

(٣) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٧٣ - ٥٧٤، King, op, cit, P268.



ضد المماليك، وتنفيذاً لذلك فقد هاجم المغول الحدود الشمالية لبلاد الشام بينما هاجم الصليبيون بقيادة إدوارد منطقة الشاغور والبعنة في شمال فلسطين، فنهبوا الغلال وأحرقوا بعضها كما هاجموا منطقة قاقون في السنة التالية ٦٧٠هـ/١٢٧٢م وأسروا طائفة من التركمان ممن كانوا يقطنونها، وهاجموا كذلك منطقة القرين بالقرب من عكا<sup>(١)</sup>.

إزاء تلك الإعتداءات السافرة تحرك السلطان الظاهر على رأس جيشه من دمشق بعد أن كان قد وصلها في وقت سابق لمهاجمة عكا، ولكنه عندما وصل إلى مرج برغوت بالقرب منها عدل عن مهاجمتها بسبب شدة هطول الأمطار، فرد العسكر الشامي وعاد إلى القاهرة، ولكنه ما لبث أن عاد إليها في السنة ذاتها ٦٧٠هـ/١٢٧٢م وشرع في الهجوم عليها.

أما الأمير إدوارد فبعد أن تأكد له استحالة تحقيق نصر عسكر على القوات الإسلامية، فقد أثر اللجوء إلى مفاوضة السلطان الظاهر، وقد توسط في ذلك شارل انجو ملك صقلية الذي كان على علاقة طيبة مع السلطان، غير أن إدوارد لم يصل إلى ما يرضيه في مفاوضاته معه، ولذلك لم يشارك في التوقيع على عقد الهدنة التي تمت بين السلطان وحكومة عكا، وكانت مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها ٢١ رمضان ٦٧٠هـ/٢٢ أيار ١١٧٢م<sup>(٢)</sup>.

وقد بلغ من صلف الأمير إدوارد أن وضع نصب عينية القدوم مرة أخرى إلى الشرق على رأس حملة صليبية جديدة، تكون أكثر عدة وقدرة لمواجهة القوات الإسلامية، ولقد أدرك السلطان الظاهر ما كان ينوي، ولذلك قرر التخلص منه، وتولى هذا، الأمير غرس الدين بن شاور والي الرملة، فسير أحد الحشيشية إلى عكا وطعنه بخنجر مسموم، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة، بيد أنها كانت كافية لثنيه عن عزمه في محاولة الكرة مرة أخرى، إذ بعد أن غادر عكا على أثر شفائه في السنة ذاتها، لم يعد إلى المنطقة وبخاصة بعد أن أصبح ملكاً على انجلترا<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٣٩٠، ٣٩٦، ٢٩٧، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٢) ابن شداد الحلبي، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٠٨.

أما الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر مع حكومة عكا، فقد أعطته الفرصة لمواجهة هجمات المغول ومملكة أرمينية الصغرى، التي اشتدت على الحدود الشمالية لبلاد الشام، وعلى الرغم من أن عملياته الحربية ضد الصليبيين في الساحل الشامي قد توقفت عند ذلك التاريخ (٦٧٠هـ/١٢٧٢م)، فقد استمر في مناوشتهم سياسياً ليشعرهم بتأهبه للانقضاض عليهم في أية لحظة، كما أن الصليبيين أنفسهم ظلوا يتوددون إليه بعد أن خبروا عزمته القتالية التي لا تفتر، ومثال ذلك أن الأمير بوهمند السابع الذي تولى إمارة طرابلس بعد وفاة والده بوهمند السادس، تقدم إلى السلطان بتجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع والده بحكم وفاته، فوافق السلطان على أن يدفع الأمير بوهمند السابع مبلغاً قدره عشرون ألف دينار صورية كل سنة، ويرد إليه عشرين أسيراً، فقبل بوهمند ذلك، وعقدت الهدنة بينهما في المحرم سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م<sup>(١)</sup>.

### تطور أوضاع الصليبيين في عكا بعد عقد الهدنة الأخيرة

ظل الملك هيو الثالث ملك قبرص ومملكة بيت المقدس (عكا)، يعمل جاهداً لإزالة الخلافات التي وقعت بين الجماعات والهيئات الصليبية في عكا، في أعقاب مغادرة الأمير إدوارد، غير أن بذور الانحلال كانت أقوى من مجرد أسباب سطحية يمكن إزالتها بسهولة، وأخذ هيو نفسه يفقد السيطرة على الأمور في عكا وبخاصة بعد وقوف رئيس فرقة الداوية «غليوم دي بوجيه» ضده، كما فقد سيطرته على بيروت أكبر إقطاع له بالساحل الشامي، وذلك عندما تزوجت أميرتها «إيزابيلا» من المدعو هامو أحد رفاق الأمير إدوارد، ولما كان هامو هذا لا يثق بالملك هيو الثالث فقد جعل زوجته إيزابيلا واقطاعها (بيروت) في حماية السلطان الظاهر بيبرس، وعندما توفي هامو سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م، حاول الملك هيو نقل الأميرة إيزابيلا إلى قبرص ليزوجها من رجل يختاره لها<sup>(٢)</sup> غير أن السلطان الظاهر اعترض على ذلك بحكم أنها في حمايته، وكتب

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٤٠، المقرئى، السلوك، ج١، ص٦١٩.

(٢) رنسيومان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٨٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢،

ص١١٥٩، سعيد براجوى، الحروب الصليبية في المشرق، ص٦٢٥.



إلى الملك هيو قائلاً: «هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها، وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ولا بد من حضورها، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها، وإلا أنا أحق ببلادها»<sup>(١)</sup>.

إزاء هذا التهديد وفضلاً عن عدم تأييد المحكمة العليا في عكا لما قام به الملك هيو، أضحي لزاماً عليه أن يعيد الأميرة ايزابيلا إلى بيروت حيث استقر حرس الممالك لحمايتها<sup>(٢)</sup>.

وبفقدان سيطرة الملك هيو على الوضع في عكا، غادرها عائداً إلى قبرص سنة ١٢٧٦هـ/١٢٧٦م دون أن يعين نائباً عنه لحكمها، وقد انتهز شارل النجو أمير صقلية هذه الفرصة واتخذ لنفسه لقلب ملك بيت المقدس، وأرسل نائباً عنه إلى عكا على رأس أسطول صغير في العام التالي ١٢٧٦هـ/١٢٧٧م، وكانت الصدمة قوية على الملك هيو، فقصده صور على رأس قوة بحرية كبيرة سنة ١٢٧٨هـ/١٢٧٩م، في محاولة منه لاسترداد مملكته، إلا أن وقوف فرقة الداوية في طريقه جعله يرتد خاسراً إلى قبرص، وحاول الكرة مرة أخرى عام ١٢٨٢هـ/١٢٨٣، ولكنه توفي في صور في العام التالي دون تحقيق ما كان يصبو إليه<sup>(٣)</sup>.

### مهاجمة مملكة أرمينية الصغرى للمرة الثانية:

لم تلتزم مملكة أرمينية الصغرى بنصوص الهدنة التي عقدت بين ملكها هيثوم الأول والسلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦هـ/١٢٦٨م، فقد هاجم أهل قلعة كينوك - وهي قلعة الحدث الحمراء إحدى قلاع مملكة أرمينية الحدودية مع بلاد الشام - التجار المسافرين المسلمين، وكتب إلى ملكها ليو الثالث - تولى الحكم بعد اعتزال أبيه هيثوم - بذلك: «فلم يقد فيه الكتابة» بل استمرت اعتداءاتهم على المسلمين، إذ كانت جماعات منهم تخرج متنكرة بزي المغول وتهاجم القوافل الإسلامية، إزاء ذلك جرد

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٤٧.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٥٨٧.

(٣) م.ن، ج ٣، ص ٥٩١ - ٥٩٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٦، سعيد درجاي،

الحروب الصليبية في المشرق، ٦٢٦، king. op. Cit, p268.

الأمير حسام الدين العين تايي مقدم عسكر حلب قوة عسكرية إلى قلعة كينوك في أوائل المحرم ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م، وقد نجحت هذه القوة في فتح القلعة وقتل رجالها وسبي نسائها، ثم واصلت إغارتها حتى أطراف طرطوس، فنهبت وسبت ثم عادت إلى حلب، وقد شجع ذلك الأمير حسام الدين فخرج بنفسه في العام ذاته على رأس قواته وأغار على بلاد سيس عاصمة أرمنية فحاز على غنائم كثيرة ثم عاد إلى حلب<sup>(١)</sup>.

غير أن هذه العمليات لم تردع ملك أرمنية، فاستمر مخالفاً لنصوص الهدنة المعقودة بين أبيه والسلطان، فتحرك السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيشة سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م صوب مملكة أرمنية للإغارة عليها وتأديب ملكها الذي استمر على غيه، فهاجم المصيصة والعاصمة سيس وأذنه وطرسوس وإياس. وبعث في البحر عسكراً فأخذ وقتل من كان فيها، وانبثت الغارات في الجبال فقتلوا وأسروا وغنموا»، وقضى السلطان عيد الفطر بمدينة سيس العاصمة وقبل أن يغادرها بالغنائم والأسرى أمر بالمدينة فاحرقت، كل ذلك دون أن يجرؤ الملك ليو الثالث الذي كان قابلاً في قلعته على الوقوف في وجهه<sup>(٢)</sup>.

وعندما عاد السلطان الظاهر جرد الأمير سيف الدين الدوادار إلى حصن القصير لمهاجمته، فأسر نائبه «جيوم كليام»، غير أنه لم يفلح في اقتحامه، فأمر السلطان بالاستمرار في حصاره حتى يفتح، وقد تم ذلك في أواخر شهر جمادى الأولى ٧٦٤هـ / ١٢٧٦م، حين طلب من فيه من النصارى الأمان والتسليم، فتسلمته القوات الإسلامية منهم<sup>(٣)</sup>.

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤١٧.

(٢) م.ن، ص ٤٣١ - ٤٣٨، المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٦١٧ - ٦١٨.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.



#### الفصل الرابع

### مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان المنصور قلاوون

بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م. نودي بابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة سلطانا بإجماع كبار أمراء المماليك واستمر في الحكم حتى تم عزله عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وأقيم مكانه أخوه الملك العادل بدر الدين سلامش، وكان له من العمر سبع سنين، كما أقيم الأمير سيف الدين قلاوون، أتابكا على العساكر ووصيا عليه، بيد أن الأمير قلاوون سرعان ما خلعه قبل أن يمضي في السلطنة ثلاثة أشهر وتولى سدة الحكم وتلقب بالسلطان الملك المنصور.<sup>(١)</sup>

وقد تعرض قلاوون في أوائل حكمه لثورة قادها الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق، استهدف من خلالها الانفصال ببلاد الشام عن مصر، وقد نجح قلاوون في القضاء عليها وهزيمة الأشقر، الذي فرّ إلى قلعة صهيون في شمال الشام، ومن هناك أخذ يستنجد بالمغول ضد السلطان قلاوون، فقد كتب إلى أبغا بن هولاكو يحثه على قصد البلاد الشامية بجيوشه لأخذها، ووعدته بمساعدته في تحقيق ذلك.<sup>(٢)</sup>

ولمّا كان أبغا بن هولاكو تواقا لذلك، فقد دفع بقوة عسكرية إلى شمال الشام سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م احتلت عينتاب وبغراس ودريساك وحلب لبعض الوقت، ثم انسحب منها بعدما أحدثته فيها من تدمير وتخريب، وكان ممّا عجّل بانسحابها تراجع الأمير سنقر الأشقر عن موقفه ووقوفه إلى جانب السلطان قلاوون.<sup>(٣)</sup>

كما استغل الصليبيون فرصة تردّي الأوضاع في بلاد الشام بسبب ثورة الأشقر فقاموا بمحاولة لإعادة احتلال حصن الأكراد، غير أنهم فشلوا، وفي طريق عودة قوتهم

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٥٦-١٥٨، المقرئ، السلوك، ج١، ص٦٤٢، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦٧-٦٨.

(٣) م.ن، ص٧٦-٧٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٩.

انقضت عليها قوة إسلامية عند صافيتا وأنزلت بها خسائر كبيرة في أواسط سنة ٦٧٩هـ / أواخر ١٢٨٠م.<sup>(١)</sup>

وكان السلطان المنصور قلاوون قد خرج على رأس جيشه من مصر لمواجهة المغول وعندما وصل إلى غزة بلغه انسحابهم من شمال الشام فعاد إلى مصر.<sup>(٢)</sup> أما الصليبيون فقد جرد السلطان أولاً قوة عسكرية على رأسها الأمير علاء الدين البندقداري إلى الساحل الشامي لحفظ البلاد منهم، ثم أعطى أوامره في أواخر عام ٦٧٩هـ / مطلع ١٢٨١م إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب السلطنة بحصن الأكراد لمهاجمة فرقة الاسبتارية في حصن المرقب، فجمع الطباخي جيوش الحصون الإسلامية وأمراء التركمان والرجالة واستصحب معه المجانيق وآلات الحصار وتوجه إلى حصن المرقب، وباكتمال حصاره ونصب المجانيق حوله شرع بمهاجمته، ولما لم يحرك الاسبتارية ساكناً قوي طمع القوات الإسلامية فيهم وتقدمت إلى جانت الحصن، عندئذ رشقتهم الاسبتارية بالسهام، في حين كانت سهام المسلمين لاتصل إليهم بسبب علو الحصن ومنعة تحصيناته، وقد أحدث ذلك اضطراباً كبيراً في صفوف القوات الإسلامية، وحاول الطباخي السيطرة على الموقف عندما أمر الجند بالابتعاد عن الحصن، فظنوها هزيمة وولوا الأدبار، فما أمكنه إلا أن تبعهم، وخرج الاسبتارية في أعقابهم ونهبوهم وقتلوا وجرحوا وأسروا عدداً كبيراً منهم.<sup>(٣)</sup> «وبلغ مجموع من قتل من المسلمين في هذه الواقعة مائتي فارس وراجل».<sup>(٤)</sup>

ونتيجة لهذه الهزيمة فقد سعى السلطان إلى تفرقة أعدائه من صليبيين ومغول ليتمكن من منازلة كل منهم على حدة، في الوقت الذي يمنعه فيه من الاستعانة بالغرب الأوروبي، ولتحقيق ذلك اتبع نهج السلطان الظاهر بيبرس في عقد معاهدات مع الغرب الأوروبي، والميل إلى عقد مهادنات مع الصليبيين على جبهة ومهاجمتهم على جبهة أخرى، فجدد الاتفاقيات والمعاهدات السابقة مع مغول القفجاق والإمبراطورية البيزنطية وقشتالة وصقلية وجمهورية جنوا، فضلاً عن الإمبراطور الغربي رودلف

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٦٥-١١٦٦. King, op. cit, p 282.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٧٨.

(٣) م.ن، ص ٨٠.

(٤) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص ٣٢١.



هابسبورج.<sup>(١)</sup>

كما أن الفرصة قد جاءت من الصليبيين لعقد مهادنات معهم، فحين وصل بجيشه إلى منزلة الروحاء بالقرب من حيفا، أسرع استتارية عكا بانفاذ رسلهم إليه يسألونه تجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م والزيادة عليها، ويعد مفاوضات سياسية عقد السلطان المنصور قلاوون هدنة معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها ١٠ محرم ٦٨٠هـ/٣ أيار ١٢٨١).<sup>(٢)</sup>

وعقد هدنة أخرى في وقت لاحق مع بوهمند السابع أمير طرابلس مدتها عشر سنين أولها ٢٧ ربيع الأول ٦٨٠هـ/١٦ تموز ١٢٨١م.<sup>(٣)</sup>

ولم يكن الصليبيون يؤثرون مسالة السلطان فقط، بل أظهروا الود له أيضا وذلك عندما كتبوا له عن مؤامرة دبرها الأمير كوندك (أحد أمراء السلطان) الذي اتصل بهم في عكا وطلب منهم ألا يصلحوا السلطان، مما ساعده على القضاء على هذه المؤامرة قبل استفحالها.<sup>(٤)</sup>

وبعقد هاتين الهدنتين أمن السلطان المنصور جانب الصليبيين، فتمكن من مواجهة المغول وهزمتهم في موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م.<sup>(٥)</sup> وقد أدهش انتصاره هذا الصليبيين في عكا، فلم يسع سان سفيرينو نائب شارل أنجو في عكا إلا أن خرج لاستقباله وتهنئته بهذا الانتصار.<sup>(٦)</sup> وقد عزز هذا مهابة السلطان في قلوب الصليبيين،

(١) سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ٦٦-٦٧.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام العصور، ص ٨٢، بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، مخطوط، ورقة ١٢٤

(٣) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ١٢٤-١٢٦

ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٧٧، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٥-٢٠٦، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٦٨٥، (انظر نص الهدنة في الملحق).

Holt, Qalawun's, Treaty with Acre in 1283, P802.

(٤) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٤٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٦٨٥-٦٨٦.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ١٤.

(٦) ونسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٦٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٦٧-١١٦٨.

فتقدم الداوية في عكا والساحل وانظرطوس بطلب عقد هدنة معه، فوافق على ذلك-  
لخشيتهم من المغول الذين ظلوا يعملون على اجتياح بلاد الشام بالرغم من هزيمتهم في  
حمص- وعقد هدنة معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر أولها ٥ محرم  
٦٨١هـ/ ١٥ نيسان ١٢٨٢م، وأعقبها في العام التالي عقد هدنة أخرى عامة مع حكام  
عكا وصيدا وعثليث مدتها عشر سنين وعشرة أشهر أولها ٥ ربيع الأول ٦٨٣هـ/ ٣  
حزيران ١٢٨٣م. <sup>(١)</sup> وقد استبعدت فيها صور وبيروت <sup>(٢)</sup>.

وواصل السلطان المنصور سياسة سلفه السلطان الظاهر في استمرار الهجوم على  
مملكة أرمينية بسبب موقفها العدائي من المسلمين وتحالفها مع المغول، فجرد سنة  
٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م قوات عسكرية أغارت على بلادها ووصلت إلى مدينة إياس فقتلت  
ونهبت وأحرقت، ثم دخلت في معركة مع الأرمن عند باب اسكندرونة فهزمتهم  
ولاحقتهم حتى تل حمدون ثم عادت محملة بالغنائم. <sup>(٣)</sup>

#### فتح حصن المرقب:

أخذ السلطان المنصور يتحين الفرصة للانتفاض على معاقل الصليبيين وبخاصة  
بعد ضعف خطر المغول، ولذلك ما أن عاد الاستتار في حصن المرقب إلى الاعتداء  
على المسلمين ومضايقتهم حتى شرع بالتحرك على رأس جيشه إلى بلاد الشام سنة  
٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م لتحرير هذا الحصن، فوصل أولا إلى دمشق، وبعد أن استكمل  
تجهيزاته تحرك بسرية تامة دون أن يعلم أحد بوجهته، وقد نازله في ١٠ صفر/ ١٧  
نيسان من العام المذكور، وباكتمال نصب المجانيق حوله، بدأ بقصفه من جميع الجهات،  
وبالرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها الصليبيون، إلا أن السلطان أصر على اقتحام  
الحصن، فشدد المجاهدون من ضرباتهم حتى أجبروا الصليبيين على طلب الأمان، فأمنهم  
السلطان وسمح لهم بمغادرة الحصن دون حمل مال أو سلاح يتعلق بالحصن خاصة،

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ج ٢٠، ٣٤ (انظر نص الهدنة في الملحق).

- كان قد تولى نائباً عن الملك شارل المجو في عكا في ذلك الحين اودو بولشيان الذي حل محل سان  
سفرينو (رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٦٤-٦٦٥).

(٢) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٦٥. Holt, op. cit, p 802.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٧١٦.



فغادروا الحصن بأموالهم الخاصة إلى انطربوس في حماية عسكرية من السلطان، ثم اتجهوا إلى طرابلس، ودخل السلطان القلعة في ١٩ ربيع الأول / ٢٥ أيار من السنة ذاتها<sup>(١)</sup>، ثم استولى على جميع الأعمال التابعة للحصن مثل بلنياس ومرقية.<sup>(٢)</sup>

ونظرا لمناعة حصن المرقب وأهميته العسكرية فقد أمر السلطان بالإبقاء عليه، ورتب فيه ألف راجل من فرق الجيش وعددا من الأمراء أصحاب الطبلخانات وخمسين من المماليك البحرية، فضلا عن أربعمائة من أرباب الصنائع، كما زوده بأصناف عديدة من الأسلحة.<sup>(٣)</sup>

وكان قد ورد على السلطان في أثناء حصاره لهذا الحصن رسول من جهة ملك أرمينية ليو الثالث يطلب عقد هدنة معه مقابل جزية يحملها إليه كل سنة، وكان هذا الملك يكاسر في تسليم بهسنا إلى السلطان ويعتذر بأعذار كثيرة، وكانت بهسنا إحدى المدن المتفق على تسليمها للدولة الإسلامية في الهدنة التي عقدها السلطان الظاهر بيبرس مع الملك هيثوم الأول والد ليو عام (٦٦٦هـ/١٢٦٨م).

وبعد مداولات مع رسول الملك ليو عقد السلطان المنصور هدنة معه مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات أولها يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر ٦٨٤هـ/ ٧ حزيران ١٢٨٥م وأهم ما جاء فيها:

١. يحمل الملك ليو إلى السلطان المنصور قلاوون في كل سنة ألف ألف درهم قطيعة من دراهم وأصناف طيلة مدة الهدنة.
٢. يطلق الملك ليو جميع التجار المسلمين المعتقلين لديه مع إعادة أموالهم وبضائعهم، وإعادة أموال من مات منهم أيضا.
٣. يطلق الملك ليو جميع من عنده من أسرى المسلمين.
٤. لا يجدد الملك ليو بناء قلعة أو ما يختص به في مملكته.<sup>(٤)</sup>

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٧٨-٨٠، أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢١. ابن أيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٦٨.

(٢) ابن أيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٢٧١، King, op, cit, P285.

(٣) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٨٠.

(٤) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٩٢-١٠١.

### تدمير حصن مرقية بأيدي الصليبيين:

بعد أن فتح السلطان المنصور قلاوون حصن المرقب وأعماله، أخذ في أعمال الحيلة لفتح حصن مرقية - الواقع بين طرطوس والمرقب وسط البحر، وبمواجهة مدينة مرقية - وكان السلطان الظاهر بيبرس قد فتح مرقية إلا أن الصليبيين أعادوا احتلالها عقب وفاته، وقد عمر هذا الحصن قبالتها «بارتلميو» أحد أكابر الصليبيين، وأعاناه على ذلك أمير طرابلس واسبتارية حصن المرقب، فلحق المسلمون منه أذى كبير بسبب موقعه العسكري، وكان نواب حصن الأكراد لما عاينوا بناءه وعجزوا عن منع الصليبيين من تشييده، قد أقاموا بالقرب منه برجاً بقرية ميعار، غير أنه لم يظاهيه في المنعة.<sup>(١)</sup>

وعندما تيقن السلطان من عدم إمكانية حصاره لافتقاره إلى مراكب حربية في ذلك الحين ليحاصره ويقطع الميرة عنه، فقد أرسل إلى أمير طرابلس طالبا منه هدم الحصن لأنه قد ساعد في بنائه، وهدده باجتياح إمارته إن لم ينفذ الهدم، فلم يسع أمير طرابلس إلا الإذعان، فتوسط لدى صاحب هذا الحصن مقابل جملة من المال، كما عرضه بعدة ضياع من إمارته بدلاً منه. فهدمه مرغماً - بالرغم من أنه كان قد قتل ابنه عندما علم بمحاولته تسليم الحصن للسلطان سرا - وقد أرسل السلطان مائة حجار للمشاركة في الهدم نكاية بالصليبيين.<sup>(٢)</sup>

وقد روع ذلك جموعهم في بلاد الشام فتقدمت الأميرة ايشيفا أميرة بيروت - تولت الحكم بعد وفاة اختها ايزابيلا - بطلب عقد الهدنة مع السلطان، فطالبها بدفع مبلغ تسعين ألف درهم مقابل ذلك، فتم الاتفاق على أن تدفع مبلغ ثلاثين ألف درهم أولاً على أن يتم دفع ما تبقى في غضون ثلاثة أشهر، وفي السنة التالية تقدمت الأميرة مرجريت أميرة صور بطلب عقد هدنة، فوافقها السلطان المنصور مقابل تنازلها عن نصف دخل إمارتها السنوي وتعهدا بعدم تجديد تحصيناتها، وعلى هذه الأسس تم عقد الهدنة معها لمدة عشر سنين أولها ١٤ جمادى الأولى ٦٨٤هـ / ١٨ تموز ١٢٨٥م.<sup>(٣)</sup>

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٨٨، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٨٥.

(٢) م.ن، ص ٨٧-٨٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٠٣، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٣٣٨، «انظر نص الهدنة في الملحق».



### تطور أوضاع الصليبيين في عكا:

توفي شارل أنجو سنة ١٢٨٤هـ / ١٢٨٥م، ولما لم يكن ابنه شارل الثاني ملك نابولي يحفل بما يجري في الشرق، فقد أرسل اسبتارية عكا إلى الملك هنري الثاني ملك قبرص ينصحونه باسترداد ملك أبيه في مملكة بيت المقدس «عكا» ولما كان هنري الثاني تواقا إلى ذلك فقد أرسل مبعوثا إلى عكا ليجري مفاوضات مع مختلف الهيئات الصليبية حول الاعتراف بهد ملكا على بيت المقدس، غير أن اودو هوليشتيان رفض أن يتخلى عن نيابته عن ملك صقلية.

وجاء وصول هنري الثاني إلى عكا عام ١٢٨٥هـ / ١٢٨٦م، ليضع حدا لرفض اودو هوليشتيان، الذي اضطر في النهاية إلى الازعان والموافقة، وبتتويج هنري الثاني ملكا على مملكة بيت المقدس في كاتدرائية صور - كما جرى التقليد - في ١٥ آب من السنة ذاتها عادت عكا مرة أخرى تحت حكم ملوك قبرص، وقبل أن يغادر هنري الثاني عكا عائدا إلى قبرص عين فيها خاله بلدوين ابلين نائبا عنه.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك الوقت نشبت حرب في ايطاليا بين بيزا وجنوا، ولم تلبث أن امتدت بينهما إلى سواحل بلاد الشام التي تخضع للصليبيين، فقد جاء أسطول جنوى لمهاجمة البيازنة ومستعمراتهم عام ١٢٨٦هـ / ١٢٨٧م بقيادة أميري البحر توماس سبينولا وأورلانندو أشيري، وقد توجه سبينولا لزيارة الاسكندرية للحصول على تأييد السلطان المنصور، في حين انطلق أشيري يذرع ساحل الشام على رأس أسطوله ويهاجم سفن البيازنة ويغرق أو يأسر كل من يصادفه منها، وقد حاول بيع الملاحين البيازنة الذين وقعوا في أسره، لكن تدخل الداوية منعه من ذلك، ثم أن أشيري لجأ إلى صور ليعد هجوما على ميناء عكا، مما دفع البنادقة إلى اشراك أسطولهم المحلي مع البيازنة لحماية الميناء، غير أن أشيري انتصر تجاه حاجز الأمواج، إلا أنه لم يستطع أن ينفذ إلى داخل الميناء، ولما أبحر سبينولا من الاسكندرية، استطاع الجنوية فرض الحصار على كل الساحل، بيد أنهم ما لبثوا أن تراجعوا إلى صور على أثر توسط مقدمي الداوية والاسبتارية ومن معهم من ممثلي النبلاء المحليين فعاد الطريق البحري آمنا إلى ميناء عكا.<sup>(٢)</sup>

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٦٩-٦٧١.

(٢) رنسيان، م.ن، ج٣، ص ٨٦٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧١.

## فتح اللاذقية:

انتهاز السلطان المنصور فرصة انشغال الصليبيين بمنازعاتهم الداخلية، فأرسل قوات عسكرية على رأسها الأمير حسام الدين طرنطاي للاستيلاء على اللاذقية وذلك سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م، وكانت اللاذقية آخر ما تبقى للصليبيين من إمارة انطاكية، وعندما وصلت القوات الإسلامية قريبا من المدينة، انسحب منها الصليبيون إلى حصن قريب منها ويتصل بالبر بواسطة جسر، فسقطت المدينة بيد الأمير حسام الدين دون مقاومة.

أما الحصن فكان قد تهدم أكثره نتيجة زلزلة كانت قد حدثت قبيل مهاجمة المسلمين له، وقد ساعد ذلك على سقوطه، إذ استطاع الأمير حسام الدين نصب المجانيق على أمكنة ضيقة جداً قبالته ووسع الجسر الواصل إليه، وشرع في مهاجمته إلى أن تمكن من إحداث النقوب من جهة الأمكنة التي هدمتها الزلزلة وكشفتها من جهة البحر، عندئذ لم يقو الصليبيون على المقاومة وطلبوا الأمان، فأمنهم الأمير حسام الدين على أنفسهم وأموالهم على أن يخرجوا منه تاركين ما به من عدد وسلاح، فتركوه وتوجهوا إلى جهات عدة، وتسلمه الأمير حسام الدين في ٥ ربيع الأول / ٢٠ نيسان من السنة المذكورة.<sup>(١)</sup>

## فتح طرابلس:

ظلت طرابلس بمنأى عن هجمات الدولة المملوكية بحكم المهادنات التي عقدت مع أمرائها، وكان آخرها تلك الهدنة التي عقدها السلطان المنصور قلاوون مع الأمير بوهمند السابع سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وكانت طرابلس في ضوء هذه المهادنات قد ازدهمت بالصليبيين الذين التجأوا إليها من المعازل الصليبية في الساحل الشامي بعد أن حررتها القوات الإسلامية.

ولم يكن عقد تلك المهادنات ليجعل الدولة المملوكية تتخلى عن محاولة الانقضاض على طرابلس وطرد الصليبيين منها وإعادةتها للحظيرة الإسلامية، فقد أخذ

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٥١-١٥٢، ابن الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢٢٢.

رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٨١.



السلطان المنصور قلاوون يتحين الفرصة المناسبة لتحقيق هذا الهدف. وكان أن ساعدت الظروف الداخلية التي حدثت في طرابلس السلطان على تحقيق ما كان يصبو إليه، فقد حدث أن توفي الأمير بوهمند السابع أمير طرابلس سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ولم يخلف وريثا مباشرا للعرش، فأعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام قومون -مجلس بلدي- بزعامة بارثولوميو إمبرياكو لحكم الإمارة، في الوقت الذي قدمت فيه لويسا أخت بوهمند السابع ووريثته مع زوجها إلى الشرق ونزلت في عكا، وعلى الفور استنجدت بالاستبشارية للوقوف إلى جانبها لاستعادة حقها، فرد قومون طرابلس بعقد اتفاقية مع جنوا، أصبحت طرابلس بمقتضاها تحت حمايتها، وقد حصلت جنوا بموجب ذلك على شوارع وأسواق عديدة في طرابلس، والواقع أن جنوا كانت تتوق إلى عقد مثل هذه الاتفاقية نظرا للمكاسب التجارية الكبيرة التي كانت تتطلع إليها في طرابلس، فضلا عما في ذلك من أهمية في النزاع والتنافس بينها وبين البندقية في الشرق وفي حوض المتوسط.

غير أن أهل طرابلس كانوا متعاطفين مع لويسا، فكتبوا لها بما تم مع جنوا، ولكن ذلك التعاطف لم يكن ذا فائدة دون موافقة الجنوية على إعادة الحق لها، فسارعت إلى عقد لقاء مع رئيس الجنوية في صور، تم الاتفاق فيه على موافقة الجنوية على إعلانها أميرة على طرابلس مقابل موافقتها على جميع ما حصلت عليه جنوا، وكذلك موافقتها على الحقوق التي حصل عليها قومون طرابلس.<sup>(١)</sup>

غير أن ذلك لم يرض «بارثولوميو إمبرياكو» زعيم القومون الذي كان يطمح في الحصول على إمارة طرابلس لنفسه، وتعبيرا عن موقفه قام بإرسال مبعوث إلى السلطان المنصور قلاوون يطلب منه التأييد والمساعدة لتحقيق أطماعه في طرابلس، على أن تكون المدينة مناصفة بينهما، وفي ذلك قال المؤرخ أبو المحاسن: «وسأل سير تلمه (بارثولوميو) من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان الطباخي السلاحدار وأن يساعده على تملك طرابلس، على أن تكون مناصفة وبذل بذولا كثيرة».<sup>(٢)</sup> وقد وجد السلطان المنصور قلاوون في ذلك فرصة للانقضاض على طرابلس دون

---

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٨١-٦٨٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٢.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٠-٣٢١.

أن يتعهد لبارثولوميو بشيء، وفي غمرة ذلك ازدادت النزاعات والانقسامات بين صفوف الصليبيين في طرابلس، واضطرب حبل الأمن فيها، ثم ما لبثوا أن نقضوا الهدنة المعقودة مع السلطان عندما اعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين وذلك في أواخر سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، فشرع في تجهيز قواته وإعدادها، ثم تحرك على رأس الجيش في منتصف المحرم ٦٨٨هـ/شباط ١٢٨٩م، وكتب عند رحيله إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك الوقت علم مقدم الداوية عن طريق رشوة أحد أمراء المماليك وهو الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، بنية السلطان قلاوون، فحذر أهل طرابلس من الخطر المحدق بهم، ولكن الأحقاد والمنازعات والانقسامات ظلت تعمل عملها بين مختلف طوائفهم، فلم يلتفتوا إلى ذلك التحذير.<sup>(٢)</sup>

وكان السلطان قد وصل إلى دمشق أولاً، وبعد استكمال التجهيزات قاد جيشاً عدته أربعون ألف فارس ومئة ألف راجل ما بين قوات نظامية وأخرى متطوعة.<sup>(٣)</sup> وفور وصوله إليها في مستهل ربيع الأول ١٧ آذار من السنة المذكورة، شرع في حصارها ونصب المجانيق على طول جبهاتها البرية، وقد بلغت عدتها تسعة عشر منجنيقا عمل فيها ألف وخمسمائة رجل من الحجارين والزرايين.

وقد أصاب الهلع قلوب أهلها، فأسرعوا يطلبون النجدة من كل صوب، فأرسل لهم ملك قبرص أربع سفن بقيادة أخيه عموري.<sup>(٤)</sup> وأسرع الاسبتارية إلى مساندتهم -رغم عدائهم الشديد لأهل طرابلس- وقدم صليبيو عكا كل ما أمكنهم من مساعدة، أما الجنوية والبيازنة والبنادقة، فقد تناسوا خلافاتهم مؤقتاً وتضامنت سفنهم في حماية طرابلس من جهة البحر.

ورغم كل هذه المساعدات إلا أن المدينة لم تستطع الصمود في وجه الحصار الشديد الذي ضربه السلطان المنصور، وعندما شددت المجانيق في رمايتها على المدينة وأخذ النقاؤون ينقبون أسوارها، تمكن الخوف واليأس في صفوف المنجدين، فسارع الجنوية

(١) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٤٦، عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٣.

(٣) سعيد برجاي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٦٣١.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٤٧، King. op. cit, P288.



والبنادقة بالانسحاب حفاظا على أنفسهم وأموالهم.<sup>(١)</sup> مما أصاب أهلها بالذهول، ووسط ذهولهم هذا، تمكن المجاهدون المسلمون من اعتلاء أسوار المدينة وفتحها عنوة بالسيف في ١٤ ربيع الآخر / ٢٦ نيسان من السنة ذاتها (٦٨٨هـ / ١٢٨٩م)، فلم يسع أهلها إلا الهرب باتجاه الميناء، فتبعهم المجاهدون فقتلوا وجرحوا وأسروا عددا كبيرا منهم.<sup>(٢)</sup> وقد التجأت أعداد كبيرة منهم إلى جزيرة بالقرب من المدينة، ودخلوا في كنيسة سنطماس، فتبعتهم قوة من المجاهدين خاضت مياه البحر فرسانا ورجالة حتى أدركتهم، فقتلت الرجال وسببت النساء والأطفال، وذكر أبو الفداء الذي شارك في هذا الفتح بقوله: «وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب والسلب عبرت إليها في مركب، فوجدتها ملأى من القتلى وقد جافت بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من كثرة القتلى».<sup>(٣)</sup>

وبلغ مجموع من قتل من الصليبيين في هذا الفتح عدد كبير يقدر بنحو سبعة آلاف.<sup>(٤)</sup> أما الأسرى فكانوا في نحو ألف ومائتي أسير.<sup>(٥)</sup> ثم أمر السلطان المنصور بهدم المدينة، فهدمت «وأحرقت وخرب سورها» وكان عرض سورها يمر عليه ثلاثة فرسان بالخيول، ثم أمر السلطان بعد ذلك ببناء مدينة جديدة بجوار النهر حول حصن صنجيل في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية.<sup>(٦)</sup> أما الموضع الذي كانت تقوم عليه أطلال المدينة التي هدمها فقد أقام عليها عددا من الأبراج على طول الساحل الشرقي والشمالي من شبه جزيرة الميناء تمكينا للدفاع البحري عنها.<sup>(٧)</sup> وبالسيطرة على طرابلس أخلى الصليبيون «أنفة» الواقعة إلى الشرق من جبل

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٧٤، King. op. cit, P288

(٢) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٤٧، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ٢٣.

(٤) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٩٢.

(٥) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص ٨٠.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٤٧-٧٤٨، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٧٥.

(٧) عبدالعزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٢٩٤.

صهيون على الساحل، فأمر السلطان بتخريبها، كما أخلى الصليبيون «البترون» جنوبي طرابلس وجميع ما هناك من حصون، فاستلمتها القوات الإسلامية<sup>(١)</sup>، أما مدينة جبيل فقد ظلت بأيدي الصليبيين بإقرار السلطان المنصور لصاحبها بطرس امبرياكو مقابل جزية يدفعها<sup>(٢)</sup>. كما أعطى السلطان أمانا لصاحب بيروت<sup>(٣)</sup>.

وقد نظم الشاعر شهاب الدين محمود - كاتب الإنشاء - قصيدة مدح فيها السلطان المنصور قلاوون عند فتحه طرابلس - وهي على البحر الطويل - نكتطف منها قوله:-

<p>علينا لمن أولاك نعمته الشكر ومنا لك الإخلاص في صالح الدعا فإن تك قد فاتتك بدر فهذه نهضت إلى عليا طرابلس التي وقد ضمها كالطوق إلا بقية ومن دون سوريها عقاب منيعة وكانت بدار العلم تعرف قبلها ولما غدت لأفخر مثل افتتاحها ولا أجر عند الله مثل فكاكها وكم مؤمن دهرها وما مسها أذى وكم ليث غاب رامها في جيوشه فناجيتها بالجيش كالمرج فانشئت فظلت لدى بحرین أنكا حمالها وأقسم ما فاجأتها بل تقدمت كأن المجانيق التي أوترت ضحى تخلق في وجه السماء وترقي فهاجمتها في أول الجيش فاحتوى</p>	<p>لأنك للإسلام يا سيفه ذخ إلى من له في أمر نصرتك الأمر بما أنزل الرحمن من نصرة بدر أقل عناها أن خندقها البحر كنحر وأنت السيف لاح له نحر تزل إذا مارام أوطاءها الذر فمن أجل ذا للسيف في نظمه انثر أبى الله إلا أن يكون له الفخر فبشارك يا من خصه ذلك الاجر وكم راح من عصر وما راعها حصر وراح ولم يبرد له بالنا صدر قيد وقد أرى على بحرها البر وأقتله العذاب الذي جره النصر إليها سرايا جيشك الرعب والذعر عليها لها في شم أبراجها وتر إليهم كما ينقض من حلق نسر عليها وباقي الجيش خلفك لم يدروا</p>
--	--

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج١، ص ٨١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١-٣٢٢.

(٢) المقرئ، المصدر نفسه، ج١، ص ٧٤٨، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٨٣.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢.



وأطلقت فيها طائر السيف فاغتذى  
 كأن شعاع الشمس فوق احمراره  
 ولم ينج إلا من يخبر قومه  
 وفي هلكم يوم الثلاثاء إشارة  
 أمدهم جيرانهم بحماتهم  
 فلم يغن عنهم ذاك شيئاً  
 قسمتهم شطرين غير غريقهم  
 محوت شعار الكفر عنها فما عسى  
 وليس له إلا رؤوسهم وكر  
 على زرقة فيه لناظره قمر  
 ليدروا وإلا من تغمده الأسر  
 إلى أن في الدارين تثليثهم خسر  
 ويعجب ذاك المد من دابه الجزر  
 ولو أتوا إليهم كموج البحر أفناهم البحر  
 فللسيف شطر والقيود لها شطر<sup>(١)</sup>  
 يقوم به في وصف أفعالك الشعر؟

#### الاستعداد لفتح عكا:

على أثر تحرير طرابلس أسرع البابا نيقولا الرابع بالدعوة إلى قيام حملة صليبية جديدة لحماية ما تبقى من معاقل للصليبيين في الشرق، ولما كانت البندقيّة صاحبة السيادة التجارية في عكا، وتهديدها من قبل المسلمين يعني تهديد مصالحها التجارية الكبرى في كل بلاد الشام، لذا فقد عجلت بأعداد حملة في ألف وستمائة مرتزق- فضلاً عن المتطوعين من بقية المدن الإيطالية لإنقاذ عكا فيما لو حاول السلطان المنصور استعادتها. وأبحرت هذه الحملة باتجاه الشرق ووصلت إلى عكا في صيف سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م.<sup>(٢)</sup>

وعلى الرغم من وجود هدنة معقودة بين السلطان وحكام عكا، إلا أن أفراد هذه الحملة لم يحترموا تلك الهدنة، فما أن وصلوا عكا حتى هاجموا التجار المسلمين الذين كانوا قد قصدوها في ظل الأمان المعطى لهم بموجب عقد الهدنة المذكورة، كما هاجموا الفلاحين المسلمين في إقليم المدينة.<sup>(٣)</sup>

وقد أجمع مؤرخو العصر المملوكي على وقوع هذا الاعتداء السافر، بيد أن الشرارة الأولى التي كانت بداية لهذه المذبحة الشنيعة، فقد تعددت الروايات حولها، على أن أقواها تلك التي ذكرها المؤرخ ابن أبيك الدواداري ونقلها عن والده مباشرة،

(١) ابن أبيك الدواداري، الدرّة الزكية، ص ٢٩٥-٢٩٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٧٨.

(٣) م.ن، ج ٢، ص ١١٧٨.

فقال: «وأصل ذلك ما حكاه والدي، رحمه الله قال:» ورد فقير من المسافرين عكا، ونزل المسجد المجاور لعين البقرة، وهو مكان مبارك، فوجد فيه جماعة فقراء، فلما كان وقت الأذان أذنا خفية ولم يفتحوا للمسجد طاقات، فانكر عليهم ذلك الفقير، فقالوا انها بلد كفر ونخشى الفرنج، فقال الفقير: الآن كما طاب الجهاد في سبيل الله، يا فقراء أما قرأتم قوله تعالى ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾<sup>(١)</sup> ثم أن الفقير صبر إلى آذان الظهر وفتح طاقات المسجد وعلى علوه وأعلن بالأذان، وكان قد ورد عكا افرنج من داخل البحر غنم ليس من اهلها، فلما سمعوا الاذان اجهارا، لعب فيهم الشيطان ووثبوا من فورهم، فقتلوا ذلك الفقير وطرطشوا دمه في حيطان المسجد مع ثلاثة فقراء آخر ثم خرجوا، وعادوا لا يلتقوا مسلماً في البلد إلا أوقعوا به القتل، فلما بلغ السلطان ذلك تجهز واهتم لأخذها بمعونة الله تعالى». <sup>(٢)</sup>

وقد بلغ من حقدهم على المسلمين أن هاجموا النصارى السريان في عكا واقليمها ظنا منهم أنهم مسلمون بسبب إطالة لحاهم. <sup>(٣)</sup>

وعندما أحضرت ملابس الضحايا المسلمين إلى السلطان المنصور مزرجة بالدماء أقسم على الانتقام وأرسل إلى الصليبيين في عكا يطلب تسليمه المجرمين، وقد راع ذلك أهل عكا، وخشوا عاقبة الأمر، فعقد مقدموهم مجلسا لبحث الموقف، واقترح مقدم الداوية تسليم المجرمين، إلا أن اقتراحه قوبل بالرفض. <sup>(٤)</sup>

وللخروج من هذا المأزق اتفق رأيهم على أخذ جماعة من المسلمين وشنقهم على أنهم الفاعلون من الصليبيين، والكتابة إلى السلطان بذلك في محاولة لخداعه وفي ذلك قال المؤرخ شافع بن علي: « فأخذوا جماعة من المسلمين والبسوهم زي الفرنج وشنقوهم وكتبوا للسلطان الملك المنصور بغير هذه الصورة وقالوا إن جماعة من الغرب الفرنج فعلوا ذلك وإنا شنقناهم للوقت حفظاً للهدنة. <sup>(٥)</sup>

لم يقنع السلطان المنصور الذي خبر مكرهم وخبثهم بموقفهم هذا، كما رفض بشدة

(١) الأحزاب، ٣٧.

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) سعيد عاشور، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٧٨.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٧٨.

(٥) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٥٨.



قبول أسفهم واعتذارهم، وشرع من فوره بتعبئة الجيش لاستعادة عكا وتطهيرها من الصليبيين، وعهد إلى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب في بلاد الشام<sup>(١)</sup>. ولم تلبث اخبار استعدادات السلطان أن تسربت إلى الصليبيين، فأسرع مقدم الداوية في عكا إلى تحذير كافة قوى الصليبيين فيها، ولكنهم لم يأبهوا بالتحذير وظلوا غارقين في خلافاتهم<sup>(٢)</sup>.

وكانت عكا قد اكتظت بمزيج غريب غير متجانس من الصليبيين فيها بعد أن فرت إليها بقايا العناصر المختلفة من انطاكية وطرابلس وغيرها من المدن والحصون التي استولى عليها المسلمون، فصار في عكا سبع عشرة جالية كل منها تؤلف قومونا مستقلا بشؤونه الخاصة، هذا فضلا عن ممثلي منظمات الفرسان وملوك إنجلترا وفرنسا وقبرص والمدن الإيطالية التجارية والبابوية، وكل واحد من هؤلاء كان يسير في طريقه الخاص ويفكر بطريقته الخاصة، وينظر إلى الأمور من وجهة نظر المصدر الذي يمثله دون أن يحاول التعاون مع غيره<sup>(٣)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون لم يكد يفرغ من كافة استعداداته الحربية، ويغادر القاهرة على رأس جيشه حتى وافاه الأجل المحتوم بظاهر القاهرة في مخيمه الذي أقامه بمسجد تبر (أول منزلة في الطريق إلى الشام، وموضعه قريب من المطرية) في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ / ١٠ تشرين ثاني ١٢٩٠م، فتولى عرش السلطنة في اليوم التالي لوفاته ابنه السلطان الأشرف خليل<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٥٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٨٠.

(٣) م.ن، ج١، ص ١١٨٠.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٦٢-٧٦٣.

## الفصل الخامس

### مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين

#### في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

##### فتح عكا:

تعرض الأشرف خليل في بداية حكمه لمؤامرة دبرتها لإقصائه عن العرش قادها الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، بيد أنه سرعان ما أثبت كفاءته بالتخلص منها بقتل مدبرها، ثم تفرغ بعد ذلك لإتمام عزم أبيه على فتح عكا، وإن جاء ذلك الأمر متأخراً بضعة أشهر احتجاجاً على تثبيت دعائم حكمه وإعادة تجهيز الجيش.<sup>(١)</sup>

حاول الصليبيون ثني السلطان الأشرف عن عزمه بمهاجمة عكا، أو إعاقته على الأقل كي يتسنى لهم الاستعداد لمواجهة، فأرسلوا إليه وفداً لتهنئته بتوليته عرش السلطنة، وطلب العفو، معترزين له عما جرى، كما التمسوا منه وضع ما يراه من شروط جديدة لاستمرار الهدنة التي كانوا قد عقدوها مع والده السلطان المنصور قلاوون، ولكن رده كان صارماً إذ أمر بالقاء القبض على أعضاء هذا الوفد وإيداعهم السجن.<sup>(٢)</sup>

ثم شرع في تجهيز قواته للزحف صوب عكا، وأرسل بتجهيز القوات الشامية من كافة نياباتها (دمشق، حلب، حماه، الكرك، صفد، طرابلس) وإعداد المجانيق وآلات الحصار، كما دعا إلى استنفار الأهالي للمشاركة في هذه الحملة العسكرية، وموافاته على أبواب عكا.<sup>(٣)</sup>

وقد تشكلت القوات الإسلامية بعد تكاملها من قوات نظامية وأخرى متطوعة ضمت الغزاة والصناع والحجارين والنجارين وغيرهم، وقد فاقت نسبة المتطوعين القوات النظامية بكثير<sup>(٤)</sup>، وكان مجموع هذه القوات مجتمعة ستين ألفاً من الفرسان ومائة وستين ألفاً من المشاة (الرجالة).

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٢٤، المقرئزي، السلوك، ج١، ص٧٦٢-٧٦٣.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٢٤.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٢٤، المقرئزي، السلوك، ج١، ص٧٦٣.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥.



وعندما تأكد للصليبيين عزم السلطان الأشرف على مهاجمة عكا، أسرعوا في جمع كل قواتهم في الشام وعكا، فضلاً عن القوات التي أرسلها الملك «هنري الثاني» ملك قبرص الذي عهد إلى أخيه «املريك» بأن يتولى القيادة في عكا ريثما يأتي بمزيد من الإمدادات، وقد تجمع فيها عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً، استحكموا بداخل المدينة وعلى أسوارها في أبراج منيعة.<sup>(١)</sup>

أما استحكامات المدينة فكانت سليمة وقوية إذ كان يمتد على طول جهاتها البرية سوران مزدوجان بينهما خندق، مع وجود خندق آخر خلف السور الخارجي لزيادة الحماية، وكان قد أقيم أكثر من اثني عشر برجاً على امتداد السورين الداخلي والخارجي.<sup>(٢)</sup>

وزحف السلطان الأشرف على رأس قواته صوب عكا ونازلها في أربع الأخر. ٦٩٠هـ / ٥ نيسان ١٢٩١م، وكانت القوات الشامية قد تحركت تباعاً لموافاته على أبوابها حاملة معها المجانيق التي تم إعدادها في حصون الشام.

وما أن نازلها الأشرف حتى اتخذ موقفاً عسكرياً موفقاً ضد الصليبيين، فقد وجه الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير على رأس قوة عسكرية إلى صور، -المعقل الثاني بعد عكا في الأهمية- هادفاً من وراء ذلك إلى تحقيق غايتين، الأولى: مضايقة صور بحيث لا تستطيع إرسال نجدة إلى عكا أثناء حصارها، والثانية: منع صليبي عكا من التوجه إلى صور عندما تحل بهم الهزيمة، فتنحل عزيمة الصليبيين في صور مما يسهل السيطرة عليها بعد السيطرة على عكا.<sup>(٣)</sup>

بدأ الأشرف حصار عكا من جهاتها البرية، فنشر قواته على امتداد الأسوار ابتداءً من استحكامات الداوية على الساحل شمالاً إلى برج البطريق عند خليج عكا جنوباً،<sup>(٤)</sup> ونصب عليها ٩٢ منجنيقاً، ولما كانت الأرض التي كان يقف عليها أيضاً سهلية مكشوفة فقد أقام الستائر الترابية والصناعية (المصنوعة من اللباد) لحماية

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٦٧، King, op. cit, PP291-292

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٩٦٧.

(٣) أبو المعاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٨٠٥.

(٤) رنسيان، المصدر نفسه، ج٣، ص ٩٦٨.

الجند والمعدات الحربية<sup>(١)</sup>، واتخذ مركز قيادته في الجزء الجنوبي من الأسوار قبالة برج المندوب البابوي، في حين كانت قيادة الصليبيين قد تركزت بالقرب من باب القديس أنطوان<sup>(٢)</sup>.

وشرع المجاهدون بقصف المدينة وأسوارها قصفا متواصلاً بحجارة المجانيق التي كان منها ما يرمي بقنطار دمشقي وأكبر (١٠٠ رطل)، فأحدث ذلك عدة نقوب في تلك الأسوار<sup>(٣)</sup>.

وتحت غطاء كثيف من رماة السهام الكامنين وراء الستائر الترابية والصناعية على الصليبيين المتحصنين فوق الأبراج، كانت وحدات المجاهدين المكلفة بردم الخنادق تتقدم بين الفينة والأخرى وطوال مدة الحصار لردم مواضع يمكن من خلالها الوصول إلى الأسوار مستخدمين مخالي الخيل معبأة بالتراب لإلقائها مع ما تيسر من الأخشاب ومواد أخرى في تلك المواضع المنتخبة، وبذلك تمكنت الوحدات الهندسية الإسلامية من الوصول -عبر تلك المواضع- إلى الأسوار لنقبها وإحداث ثغرات يمكن من خلالها اقتحام المدينة عندما تحين ساعة ذلك<sup>(٤)</sup>.

ورد الصليبيون باستخدام ما لديهم من مجانيق داخل المدينة، كما شنوا عدة هجمات بحرية خاطفة على رأس ميمنة القوات الإسلامية التي ترابط في القطاع الشمالي للمدينة (وهي قوات حماه، وكان فيها أبو الفداء ملك حماه فيما بعد) بواسطة عدة مراكب مستخدمين النشاب والجروح (الآلات حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة)، كما ضربوا هذه القوات بمنجنيق كانوا قد ركبوه فوق بطسة (نوع من أنواع المراكب الحربية)، غير أنه ما لبث أن تحطم بسبب الأمواج القوية<sup>(٥)</sup>.

ولمّا لم تجد هذه المحاولات اليائسة نفعا، قام مقدم الداوية «غليوم دي هوجيه» بإرسال وفد إلى السلطان الأشرف للمفاوضة في محاولة منه لإنهاء الحصار، غير أن الأشرف أصر على تسليم المدينه، فعاد مقدم الداوية إلى الخيار العسكري، إذ شن

(١) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٧٦٤

(٢) رنسيان، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٩٨

(٣) المقرئزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٧٦٤، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٦

(٤) بيبس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ٧١.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ٢٤-٢٥.



هجوماً مباشراً بثلاثمائة فارس على قوات حماة تحت جنح الظلام هادفاً إلى إحراق الآت الحصار (المجانيق) في القطاع الشمالي للمدينة، وقد استطاع هزيمة مقدمة هذه القوات، معتمداً على عنصر المفاجأة، غير أن تعثر عدد من فرسانه بأطناب الخيام أثناء الهجوم، جعل قوات حماة تتصدى لهم، فارتد مقدم الداوية خائباً بعد أن ترك عدداً من فرسانه صرعى في أرض المعركة.<sup>(١)</sup>

وفشلت محاولة أخرى للهجوم قام بها الإسبتارية، إذ تنبهت لهم هذه المرة وحدات الرصد من المجاهدين وأسهرت بإيقاد المشاعل وإشعال النيران، لتتوقف كل محاولات الصليبيين بعد ذلك، وليكتفوا بالدفاع والتحصن داخل الأسوار.<sup>(٢)</sup>

وقد تجددت آمالهم بوصول هنري الثاني ملك قبرص إلى عكا على رأس مائة فارس وألفي راجل، بيد أن هنري هذا الذي تولى القيادة في عكا قد أدرك استحالة المقاومة، بعد أن شاهد ولمس بنفسه مدى القوة التي يتمتع بها المجاهدون المسلمون، ففضل التفاوض مع السلطان الأشرف على أساس استمرار الهدنة، غير أن الأشرف أصر على تسلم مفاتيح المدينة مقابل الإبقاء على حياة الصليبيين إذا استسلموا له، ولما لم يكن هنري الثالث قادراً على اتخاذ قرار بهذا الشأن، فقد أثر الانسحاب إلى قبرص -ومعه أخوه امريك- تاركاً المدينة لمصيرها المحتوم بعد أن شاهد انحلال الصليبيين وعظم ما دهمهم<sup>(٣)</sup>

وامام شدة ضربات المجانيق الإسلامية، أخذت بعض أبراج المدينة تنهار كبرج الملك هيو والبرج الإنجليزي وبرج كونتيه بلوا، كما انهارت الأسوار القائمة عند باب القديس أنطون، وبرج القديس نقولا، كما انهار أيضاً شطر كبير من السور الخارجي لبرج هيو الثالث<sup>(٤)</sup>.

ومع التخطط في قيادة الصليبيين بعد انسحاب هنري الثاني وانهيار معنوياتهم لم يبق أمام الأشراف إلا الهجوم الشامل على المدينة واقتحامها، فحدد توقيت ذلك

---

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ٤٥.

(٢) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٠٢.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٦، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٠٥.

(٤) رنسيان، المصدر نفسه، ج٣، ص ٧٠٣-٧٠٤.

قبيل شروق شمس يوم الجمعة ١٧ جمادى الاولى ٦٩٠هـ / ١٨ أيار ١٢٩١م.<sup>(١)</sup>

ويعطينا المؤرخ بيبرس الدواداري الذي شارك في هذه المعركة، وكان أميراً على نيابة الكرك صورة من صور الاستعداد للاقتحام فقال: «لمحت برجاً من أبراجها قد أثرت فيه المجانيق وأمكن أن يتخذ منه طريق، وبينه وبين السور فسحة مكشوفة ظاهرة لا يمكن السلوك فيها، لأن الجروح مسلطة عليها، إلا باتخاذ ستارة تطولها وتشملها وتقي من يدخلها، فعمدت إلى اللبود فجمعتها ولفقت بعضها مع بعض لفقاً فتصور منها سحابة كبيرة طولاً وعرضاً، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صاريين من كلا الجانبين، وجعلت على رؤوسها بكرات كبكرات المراكب وحبالاً، ثم جذبت تلك السحابة المتخذة من اللباد فقامت كأنها سد من الأسداد وأتقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنشاب فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي البلد تحتها فيبطل زخمها، والجروح إذا رمتها لا تنفذ سهمها»<sup>(٢)</sup>

وباقتراب ساعة التنفيذ رتب الأشرف الكوسات (وهي صنوجات من النحاس تشبه الترس الصغير، يدق بأحدهما على الآخر بايقاع مخصوص) على ثلاثمائة جمل كي تضرب دفعة واحدة أثناء الاقتحام ليحدث ذلك فزعاً في قلوب أهلها<sup>(٣)</sup>.

وبدأ الهجوم الشامل في الموعد المحدد له، وجرى على طول امتداد الأسوار من باب القديس أنطوان إلى برج البطريك، مع تركيز الهجوم الرئيس على البرج الملعون الواقع في زاوية الحصن.

ويلاحظ أن السلطان الأشرف لم يركز في هجومه على الأسوار الممتدة بين استحكامات الداوية شمالاً وحتى باب القديس أنطوان، وهي الأسوار التي كانت تتحصن في أبراجها قوات الداوية والإسبتارية أقوى فرق الصليبيين، ويفهم من هذا أن الأشرف أراد شل حركة هذه القوات بتثبيتها في مكانها مقابل القوات الإسلامية التي استمرت في حصارها ومناوشتها القتال، وبذلك تمكن من تركيز هجومه على قطاع محدود يستطيع من خلاله اقتحام المدينة، دون أن يؤدي ذلك إلى توحيد قوى

(١) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٢١، المقرئزي،

السلوك، ج ١، ص ٧٦٥، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦.

(٢) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ورقة ١٧٠

(٣) ابن ابيك الدواداري، المصدر نفسه، ص ٣٠٩، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦



الصليبيين في الدفاع، وفيما لو حاولت قوات الداوية والإسبتارية القيام بهجوم معاكس لاسترداد ما تسيطر عليه القوات الإسلامية، يستطيع الأشرف عند ذلك الإطباق عليها من داخل المدينة-بعد اقتحامها-وخارجها فيحصرها عندئذ في زاوية ضيقة.

وقد نجح الأشرف في اقتحام المدينة من القطاع الذي حدده، إذ اقتحم أولاً البرج الملعون، ثم باب القديس انطون وباب القديس نقولا<sup>(١)</sup>، وكان كلما سيطر على برج أو باب رفع فوقه السناجق (الأعلام والروايات) تأكيداً لانتصاره ورفعاً لمعنويات القوات الإسلامية وتحطيماً لمعنويات العدو.

وعندما حاولت قوات الداوية والإسبتارية القيام بهجوم معاكس لاسترداد البرج الملعون، أطبقت عليها القوات الإسلامية-كما خطط لها الأشرف- فقتل مقدم الداوية «دي بوجيه» وأصيب مقدم الإسبتارية «يوحنا فيلييه»، فتراجعت هذه القوات مسرعة إلى الحصون الداخلية للاحتماء بها<sup>(٢)</sup>.

واندفعت القوات الإسلامية إلى داخل المدينة وأعملت السيوف في رقاب الصليبيين، فما كان ممن تبقى منهم إلا الفرار على المراكب بحراً طلباً للنجاة، فقتل عدد كبير ما بين غريق وقتيل بسبب شدة ازدحامهم<sup>(٣)</sup>.

أما الداوية والإسبتارية الذين تحصنوا في الأبراج الداخلية فقد حاصرهم الأشرف لمدة عشرة أيام، أجبروا بعدها على طلب الأمان والاستسلام، وبعد أن أمنهم الأشرف فرقهم على الأمراء، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف، أما ما تبقى من رجالهم ونسائهم وأطفالهم فقد أرسلوا أسرى إلى مختلف الحصون الإسلامية<sup>(٤)</sup>.

ولم يقتل الأشرف هذه الأعداد منهم إلا رداً على أسلوبهم ذاته الذي مارسوه ضد المسلمين عندما سيطروا على عكا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م.<sup>(٥)</sup>

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٧٠٥.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٨.

(٣) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣١٠.

(٤) بيبيرس الدواداري، زبدة الفكر، ورقة ١٧٠ب، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٨.

(٥) انظر ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢١٤-٢١٥.

وكانت مدة حصار المدينة أربعة وأربعين يوما يضاف إليها عشرة أيام أخرى، وهي مدة حصار الحصون الداخلية، وقبل أن يغادرها الأشراف إلى دمشق أمر بها فهدمت إلى الأرض<sup>(١)</sup>.

### السيطرة على بقية معاقل الصليبيين والتطهير الشامل:

نجحت الخطة العسكرية التي وضعها السلطان الأشرف ضد الصليبيين في صور، فنتيجة لمضايقتها من قبل قوات الأمير علم الدين سنجر الصوابي أدرك صاحبها «آدم دي كفران» صعوبة موقفه، فأسرع منسحبا منها في اليوم الذي دخل فيه المجاهدون عكا، وعندما تقدمت مراكب المنهزمين من عكا إلى ميناء صور - كما توقع السلطان - سارع الأمير علم الدين بمنعها من دخول الميناء، وكان لهول هذا الموقف أثر كبير على أهل صور، فآثروا عدم المقاومة وطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم مقابل تسليم المدينة، فأجابهم الأمير علم الدين إلى طلبهم وسمح لهم بالرحيل، ودخل بقواته المدينة في اليوم التالي من السيطرة على عكا<sup>(٢)</sup>.

وبتطهير صور قوي عزم السلطان على الإجهاز على بقية معاقل الصليبيين في بلاد الشام، فوجه الأمير علم الدين سنجر الشجاعى على رأس قوات عسكرية إلى صيدا، وما أن ظهر الشجاعى أمام المدينة حتى هرع أهلها إلى قلعة لهم في البحر وتحصنوا بها، ولما رأى «ثيبالدجودين» مقدم الداوية بها (هرب إليها من عكا وتولى قيادة الداوية في صيدا) استحالة المقاومة انسحب منها إلى قبرص على أمل أن يعود بنجدة من هناك، وطال انتظار الصليبيين له دون جدوى، في الوقت الذي أخذ فيه الشجاعى يقيم رصيفا بين البحر والقلعة للوصول اليهم . وعندئذئذئش الصليبيون من قدوم أي مدد، فركبوا سفنهم إلى قبرص تاركين المدينة يستولي عليها الشجاعى في ١٥ رجب / ١٤ تموز من السنة ذاتها<sup>(٣)</sup>.

ثم توجه الشجاعى بأمر من السلطان إلى بيروت، وكانت داخلة في طاعة السلطان لأن صاحبها كان قد أرسل إلى السلطان الأشرف لَمَّا كان محاصرا لعكا يطلب منه

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٨، ص ٧٦٥.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٨.

(٣) عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، ص ١٥٦-١٥٧.



الأمان فأعطاه أماناً<sup>(١)</sup> وعن السيطرة على هذه المدينة يحدثنا صالح بن يحيى بقوله: «فلما وصل سنجر الشجاعى إلى بيروت تلقاه صاحبها وخيالته أحسن ملتقى ونزل في القلعة وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى القلعة ففعلوا وظنوه شفقة عليهم فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم والقاهم في الخندق وذلك في نهار الأحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وستمائة، ثم جهز سنجر الشجاعى، علم الدين الداودارى والجاكى إلى جبيل فاخربا سورها وقلعتها وأبقيا على أهلها، وكانوا جنوية، ثم شرع سنجر الشجاعى في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء، ثم جهز سنجر الشجاعى أهل بيروت إلى دمشق ومنها أنفذهم إلى مصر بأجمعهم فهلك منهم المشايخ والعجائز والنساء، ولما حملوا إلى مصر أطلقهم السلطان وقال أمانى باقى عليكم، وخيرهم بين العود إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم، فكان مدة استيلاء الفرنج على بيروت فى هذه النوبة خمساً وتسعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً<sup>(٢)</sup>».

وأخذت بقية المعادل تتساقط تباعاً بيد المجاهدين، فسقطت حيفا<sup>(٣)</sup> وجبيل-كما ذكر صالح بن يحيى عند دخول الشجاعى بيروت-<sup>(٤)</sup> «فلما رأى أهل حصن عثليث خلوا الساحل من عباد الصليب أحرقوا حواصلهم فهربوا في البحر وكذلك فعل أهل طرطوس<sup>(٥)</sup>»، وقد تم ذلك في فترة لم تتجاوز منتصف شعبان/منتصف آب من السنة المذكورة<sup>(٦)</sup>.

وبالسيطرة على هذه المعادل أمر السلطان الأشرف خليل بهدمها جميعاً كي لا يعود الصليبيون إليها مرة أخرى فيتحصنون بها<sup>(٧)</sup>. وقد علق أبو الفداء على نتائج هذا التطهير فقال: «واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب،

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٣.

(٢) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٣-٢٤.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٧٦٥.

(٤) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٣.

(٥) اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢١.

(٧) المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٧٦٦.

وأمر بها فخربت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام، وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام»<sup>(١)</sup>.

ولقد عبر الشعراء المسلمون عن فرحهم الغامر بهذا النصر العظيم الذي أحرزه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، بقصائد كثيرة، ومن ذلك ما نظمه الشاعر محمد بن سباع، في قصيدة طويلة-على البحر الكامل-ومن جملة ما نظمه قوله:-

يا أشرف الدنيا تهن فإنه	فتح سواك بمثله لم يحلم
أشبهت معتصم الخلايف همة	بالروم فيك ديارها لم تعصم
فأريت عكا ما بعمورية	رأت الفوارس بالزمان الأقدم
قابلت بلق جيوشه بسوابق	غر عليها الرمح لم يتقدم
ولاقت من صبح دليل لم تزل	تردى الكماة بأشهب وبأدهم
كم رعتها بسواد ليل أليل	فصدمتها ببياض يوم أيوم
وأعدتها للمسلمين ولم يكن	منهم يرى القطمير إلا بالدم
ولئن صلاح الدين بكرا نالها	فالبكر في التجريب دون الأيم
فالجمعة الغراء كان صباحها	وجه الزمان بمثله لم يرقم
لم تمل خندقها وقد داروا به	طعنا بغير شظا القنا المتحكم
فغدت ومن فيها بما أوليتها	خبراً يقص لمنجد أو متهم <sup>(٢)</sup>

ومما نظمه الشاعر شهاب الدين محمود قوله-على البحر الوسيط:

الحمد لله زالت دولة الصلب	وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت	رؤياه في النوم لاستحييت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها	في البحر للترك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت	في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتنا	شاب الوليد بها هولاً ولم تشب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت	به الفتوح وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما	عسى يقوم به ذو الشعر والأدب

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٢٥.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣١٥.



أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم  
وأشرف الهادي المصطفى البشير على  
فقر عيناً لهذا الفتح وابتهجت  
وسار في الأرض مسرى الريح سمعته  
لقيتها يا صلاح الدين معتقداً  
وقمت النعمة العظمى وقد ملكت  
فأله أعطاك فلك البر وابتدأت

لله أي رضى في ذلك الغضب  
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب  
ببشره الكعبة الغراء في الحجب<sup>(١)</sup>  
فالبر في طلب والبحر في هرب  
بأن ظن صلاح الدين لم يخب  
بفتح صور بلا حصر «ولا نصبي»  
لك السعادة ملك البحر «فارتقبي»<sup>(٢)</sup>

### تطور هيمنة المماليك على مملكة أرمينية الصفري حتى إسقاطها:

لقد بينا في وقت سابق أن السلطان الظاهر بيبرس كان قد عقد هدنة مع «هيشوم الأول» ملك أرمينية سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، وكان من أهم شروطها مقابل إطلاق سراح الأمير «ليو» من الأسر تنازل هيشوم عن مناطق: بهسنا والدريساك ومرزيان ورعيان والزرب وشيخ الحديد، وقد سلمت هذه المناطق للدولة الإسلامية المملوكية باستثناء بهسنا التي ظل الملك يماطل في تسليمها، وعندما عقدت الهدنة الثانية بين السلطان المنصور قلاوون والملك ليو-الذي كان مأسوراً في السابق، وتولى الحكم بعد تنازل أبيه- تعهد الملك ليو هذا بدفع جزية للسلطان المنصور، بيد أنه ماطل في تسليم بهسنا، ثم ما لبث أن تنصل من دفع الجزية المقررة عليه، وظل الأمر معلقاً إلى أن تولى سدة الحكم في مصر السلطان الأشرف بن قلاوون، فعمل على وضع حد لصلف الملك ليو، فأرسل له كتاباً في أعقاب فتح عكا المؤزر يبشره فيه وينذره في الوقت نفسه، إذ دعاه إلى إرسال ما عليه من جزية مقررة (قطيعة) والحضور بنفسه إلى الأبواب السلطانية لتقديم فروض الطاعة والولاء.<sup>(٣)</sup>

غير أن الملك ليو لم يستجب في بداية الأمر لتلك المطالب، وأزاء ذلك قاد السلطان الأشرف قواته من مصر إلى دمشق سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م تمهيداً لمهاجمة مملكة أرمينية وفتح بهسنا - طالما أن ليو يماطل في تسليمها - وعندما وصل إلى دمشق

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٢٣

(٢) ابن أبيك النوادري، الدرة الزكية، ص ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) ابن أبيك النوادري، الدرة الزكية، ص ٢٢٠ (انظر نص الكتاب في الملحق).

استكمل تجهيزاته العسكرية وتهيأ للتحرك، وما أن علم ليو بذلك حتى أنفذ رسله إلى السلطان طالبا العفو<sup>(١)</sup>، لعلمه بمقدرة السلطان على تدمير بلاده، وبخاصة بعد أن سيطر السلطان على قلعة الروم القريبة من بلاده في السنة السابقة فلم يمكنه إلا المصانعة على نفسه وبلاده.

على أن السلطان هذه المرة لم يكتف بالمطالبة بحصن بهسنا بل طالب أيضا بحصني مرعش وتل حمدون، فضلاً عن مطالبته بمضاعفة الجزية المقررة على الملك ليو، فانصاع صاغراً لمطالب السلطان «ثم إن صاحب سيس ضاعف أيضا الجزية والحمل، وكثير من الهدايا والتحف من كل شيء»<sup>(٢)</sup>.

أما بهسنا هذه فهي قلعة حصينة، لها ضياع كثيرة وهي فم الدريند وباب حلب، وكانت في زمان الملك الناصر يوسف صاحب الشام داخله في ديوانه، فلما ملك المغول حلب كان في بهسنا نائباً عنه يقال له سيف الدين العقرب، فباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم، فاعطاه ستين ألفاً وتسلم القلعة، ومنعه الباقي، واستمرت في أيدي الأرمن إلى أن استعادها السلطان الأشرف خليل<sup>(٣)</sup>.

أما ملوك أرمينية الصغرى -بعد الملك ليو- فلم يلتزموا بما عاهدوا به، بل أخذوا يخلون بعهودهم بعد ذلك، فقد حاول الملك «سمباد بن ليو» استعادة بعض المدن التي سبق التنازل عنها للدولة الإسلامية، وقد رد السلطان حسام الدين لاجين بارسال حملة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين بكتاش الفخري وعدد من الأمراء سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م هاجمت مدينة سيس العاصمة، «فضاقت على الأرمن البلاد بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل وغنم منهم المسلمون، فنسبوا ذلك إلى سوء تدبير سنياط (سمباد) وعدم مصانعته للمسلمين، فكرهوه واتفقوا على إقامة أخيه»<sup>(٤)</sup> «قسطنطين»<sup>(٥)</sup>، والقوات الإسلامية كانت ولا تزال حتى ذلك الحين تقيم في بلاد سيس وتحاصر بعض مدن المملكة، فلم يسع الملك قسطنطين إلا أن بذل الطاعة للأمير

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٣٢، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٧٨٤.

(٢) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٤٠.

(٣) ابن ابيك الدواداري، الدرة الزكية، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٣٥-٣٦، ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٧.



القوات الإسلامية، كما أعلن «أنه نائب السلطان بهذه البلاد»، فتم الاتفاق معه على أن يتنازل عن البلاد والحصون الواقعة إلى الجنوب من نهر جيحان إلى دولة المماليك الإسلامية<sup>(١)</sup>، غير أن الأرمن ما لبثوا أن تنكروا لتلك الاتفاقية، وقد شجعهم على تغيير موقفهم هذا غزو غازان محمود زعيم المغول بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، وعندئذ اضطر المماليك إلى الانسحاب من المدن الأرمنية التي كانت في حوزتهم.

كما لجأ ملوك أرمينية إلى فتح موانئهم أمام السفن الغربية في محاولة منهم لإحكام الحصار الاقتصادي على دولة المماليك وإضعاف مركزها التجاري<sup>(٢)</sup>. وإزاء ذلك أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م حملة عسكرية على رأسها الأمير بكتاش الفخري لمهاجمة سبب العاصمة، وقد شارك فيها أبو الفداء في عسكر حماه وتحدث عنها بقوله «وانتشرت العساكر في بلاد سبب فحرقت الزروع ونهبت ما وجدت، ونزلنا على سبب وزحفنا عليها، وأخذنا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً من جفال الأرمن»<sup>(٣)</sup>.

وقد انتقم الأرمن من المماليك بالانضمام إلى المغول في حملتهم على بلاد الشام سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، غير أن المماليك كانوا حريصين على ضرب مملكة أرمينية كلما حاولت أن تقوم لها قائمة، حتى لا تشكل خطراً على حدود دولتهم في شمال الشام، ولذلك وجه السلطان الناصر محمد حملة كبرى ضدها في أعقاب فراغه من أمر المغول سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م<sup>(٤)</sup>. وقد دخل المسلمون «بلاد سبب وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارتجعوها من الأرمن وهدموها إلى الأرض»<sup>(٥)</sup> ثم عادوا يسوقون عدداً كبيراً من الأسرى وقدراً ضخماً من الغنائم<sup>(٦)</sup>. وفي سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٤م، ونتيجة لتأخر الملك الأرميني عن إرسال ما عليه من قطيعة، حرك نائب حلب بأمر من السلطان الناصر محمد حملة عسكرية إلى سبب، عدتها ثلاثون ألف مجاهد على رأسها الأمير سيف

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٣٦-٣٧، ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٤٧.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٧-١٢١٨.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٤٦-٤٧، ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٤) ابن أبيك الدواداري، الدر الفاخر، ص ١١٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٨.

(٥) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٥١، ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٦٢.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٩٤٩.

الدين قشتمر الشمسي المنصوري « فشنوا الغارات على بلاد سيس ونهبوا وحرقوا كثيرا من الضياع وشتتوا النساء والاطفال »، وكان أن صادف في ذلك الحين وصول طائفة من المغول إلى سيس، فشاركوا الأرمن في الهجوم على القوات الإسلامية حتى هزموها وقتلوا وأسروا غالب أفرادها، وكانت ردة الفعل سريعة عند السلطان الناصر محمد فقد وجه الأمير بكتاش الفخري على رأس أربعة آلاف فارس من القاهرة لمهاجمة سيس، لكن الأرمني خشي عاقبة الأمر، فارسل ما كان عليه من قطيعة « واعتذر بأن القتال لم يكن منه وإنما كان من التتر، ووعد -نائب حلب- بالتحويل في إحضار الأمراء المأسورين، فرجع الأمير بكتاش بمن معه من غزة »<sup>(١)</sup>.

وإذا كان السلطان الناصر محمد قد عدل مؤقتاً عن إرسال حملة عسكرية ضد مملكة أرمينية إلا أنه طلب من ملكها ضرورة تسليم البلاد والقلاع التي تم الاتفاق على تسليمها في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين، وعندما امتنع الملك الأرميني (أوشين) عن ذلك<sup>(٢)</sup>، حرك السلطان حملة عسكرية على رأسها عدد من الأمراء منهم شهاب الدين قرطاي والأمير العلائي الطنبغا سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م لمهاجمة أرمينية « فدخلوا إلى بلاد سيس في منتصف ربيع الآخر من هذه السنة الموافق للرابع والعشرين من أيار وساروا حتى وصلوا إلى نهر جيحان وكان زائدا فاقترحوه ودخلوا فيه ففرق من العساكر جماعة كثيرة، وكان غالب من غرق من التركمين (التركمان) الذين من عساكر الساحل، وبعد أن قطعوا جيحان المذكور وساروا ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي وكانت شيئا كثيرا واقاموا ينهبون ويخربون ثم عادوا.... »<sup>(٣)</sup>.

وعندما تولى الحكم في أرمينية الملك « ليو الخامس » بعد وفاة والده أوشين بعيد تلك الحملة، أرسل إلى البابا حنا الثاني والعشرين يطلب المعونة ضد المسلمين فاستجاب البابا لاستغاثته وأصدر مرسوما يحظر التعامل التجاري مع الدولة المملوكية سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م، ثم اتبعه بمرسوم آخر في العام التالي للغرض نفسه، وقد الحق ذلك

(١) ابن اييك الدواداري، الدر الفاخر، ص ١٣١، المقريري، السلوك، ج ٢، ص ١٧

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٩

(٣) ابو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ٨٨، ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٨٤



ضررا بالغاً بتجارة الدولة المملوكية، ولم يستطع السلطان الناصر محمد السكوت على ما قام به الأرمن، فحرك حملة عسكرية للإغارة على مدنهم سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م على رأسها الأمير علاء الدين الطنبغا نائب حلب، فاحتلت مدينة إياس ثم عادت، ولم يستطع البابا عمل شيء سوى إرسال بعض الأموال لمساعدة الأرمن، إلى جانب اتصاله بمغول فارس طالبا منهم الإسراع بنجدة أرمينية<sup>(١)</sup>.

ولمّا لم يحصل الملك «ليو الخامس» على المساعدة التي كان يرجوها من البابا أو من مغول فارس، فقد أسرع بارسال بطرق الأرمن محملاً بالهدايا الثمينة إلى السلطان الناصر محمد طالبا الصلح والصلح «واعتذر الرسول مما كان من ممتلك سيس واستأذن في عمارة إياس، على أن يحمل في كل سنة مائة ألف درهم، فأجيب إلى ذلك» وعقد الصلح معه سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م لمدة خمسة عشر عاماً<sup>(٢)</sup>.

وزادت هيمنة الدولة المملوكية على مملكة أرمينية وذلك عندما تخلص الملك ليو الخامس من الوصي عليه صاحب الكرك (وهي قلعة قريب البحر في أطراف بلد سيس من جهة الغرب، وكان صاحب الكرك هذا قد استولى على مملكة صاحب سيس بحكم صغر سن صاحبها ليو الخامس)، وأرسل رأسه بعد أن قتله إلى السلطان الناصر محمد «فارسل السلطان تشريفاً وسيفاً وفرساً بسرجه ولجامه مع الأمير شهاب الدين أحمد المهندار بالأبواب الشريفة، فتوجه شهاب الدين المهندار بذلك إلى الصبي صاحب سيس، فلبس صاحب سيس الخلعة وشدّ السيف وقبل الأرض ركب الفرس المتصدق به عليه وقويت نفسه بذلك»<sup>(٣)</sup>.

على أن الملك ليو الخامس عاد وانقلب على الدولة المملوكية، وذلك عندما علم باستعداد الملك فيليب ملك فرنسا للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق، فخرق الاتفاقية وأغار على بعض البلدان الإسلامية في بلاد الشام<sup>(٤)</sup>، فرد السلطان الناصر رداً سريعاً، إذا أرسل حملة عسكرية سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م على رأسها الأمير علاء الدين الطنبغا نائب حلب لمهاجمة أرمينية، ولم تعد هذه الحملة إلا بعد أن تم الاتفاق على

(١) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٩١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٠.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدر الفاخر، ص٣٠٨، المقرئزي، السلوك، ج٢، ص٢٤٦.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٩٩.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٠.

تنازل الملك الأرميني «ليو السادس» عن البلاد والقلاع التي تقع إلى الشرق من نهر جيحان إلى الدولة المملوكية منها: المصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكارد وإياس ودباناس وبخيمة والنكير<sup>(١)</sup>.

وقد استمر سلاطين الدولة المملوكية في مهاجمة مملكة أرمينية الصغرى إلى أن يسر الله القضاء عليها نهائيا سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م على يد السلطان الأشرف شعبان الذي وجه في تلك السنة حملة عسكرية كبرى إلى سويس على رأسها الأمير اشقتمر المارديني نائب حلب، فحاصرتها الحملة لمدة شهرين، إلى أن طلب صاحبها الأمان وسلم القلعة للمسلمين "فعلت كلمة أهل التوحيد بتلك البقعة بعد دهر طويل، وجهاز اشقتمر صاحب سويس وجنده إلى القاهرة، ودقت البشائر بسبب ذلك" وفوض السلطان الأشرف شعبان نيابة سويس ليعقوب شاه وهو أول من حكم من ملوك الترك (المماليك)<sup>(٢)</sup>. أما ملك أرمينية فظل في الأسر لبضع سنين إلى أن جمع البابا كلمنت السادس -بالاشتراك مع ملوك أوروبا- المال اللازم لفدائه، وعندئذ أطلق سراحه، فقضى بقية حياته في إيطاليا<sup>(٣)</sup>.

---

(١) ابن الوردي، تنمة المختصر، ج ٢، ص ٤٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر بابناء العمر، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢١.





## الباب الثاني

### تجدد الحروب الصليبية ورد الممالك

الفصل الأول: اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط على سواحل مصر وبلاد الشام.

الفصل الثاني: غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة الممالك.

الفصل الثالث: غزو جزيرة رودس ومحاولات السيطرة عليها.

الفصل الرابع: اعتداءات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية ورد الممالك.





## الفصل الأول

### اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط

#### على سواحل مصر وبلاد الشام

لقد جاء تحرير بلاد الشام من براثن الاحتلال الصليبي على يد المماليك نهاية للمطامع الأوروبية في الشرق الإسلامي بعد قرنين من تأسيس دولتهم اللاتينية في بيت المقدس، ولذلك فقد صعدت أوروبا وعلى رأسها البابوية لفقدان مكتسباتها في هذه المنطقة الحيوية، فحاولت تجديد هذه الحروب بصورة أو بأخرى، وكان من الطبيعي أن تتزعم البابوية في أعقاب ذلك الانهيار الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها إلى الشرق لإعادة احتلال الأراضي المقدسة وإحياء وجودها فيها، ولا يخفى علينا أن دعوة البابوية هذه لم تكن لأسباب دينية-كما كانت تدعي على الدوام- بل كانت فرصة منها كي تتمكن من استعادة هيمنتها على ملوك وأمراء الغرب الأوروبي، تلك الهيمنة التي فقدتها منذ زمن طويل، فلعل حملة صليبية جديدة ترسل نحو الشرق تعمل على توحيد ملوك وأمراء المغرب الأوروبي في ظل رداؤها البابوي.

وقد ساعدت البابوية في دعوتها، تلك التقارير التي كانت تتلقاها من دعاة تجديد الحروب الصليبية، فمنها على سبيل المثال لا الحصر، تقرير تقدم به «فد نزيو» أحد الرهبان الفرنسيين سنة ١٢٩١م إلى البابا نيقولا الرابع شرح فيه تاريخ الأراضي المقدسة، ونوع الجيش الذي يلزم لإعادة احتلالها من أيدي المسلمين، والطريق المفضل الذي يسلكه ذلك الجيش للوصول إلى الشرق. وفي العام التالي تقدم داعي آخر ويدعى «ثاديوس» بتقرير شرح فيه كيفية سقوط عكا بيد المسلمين، وامتناز التقرير بالشدة والعنف، إذ أراد ثاديوس من خلاله استثارة الغرب الأوروبي من أجل إرسال حملة صليبية جديدة، واختتمه بنداء إلى البابا والملوك ليقوموا بعمل فعال لاستخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين.<sup>(١)</sup>

أما موقف البابوية العملي، فقد دعا البابا نيقولا الرابع إلى عقد المجالس

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٩٣.



الكنسية للمداولة في أنجع الوسائل وأفضل الطرق لتحقيق الهدف الذي كان يصبو إليه، كما طلب من فرقتي الداوية والإسبتارية توحيد نظاميهما والعمل بيد واحدة. ولكي يضفي على دعوته دعماً دينياً فقد أصدر مرسوماً حرم بموجبه الاتجار مع دولة المماليك، وهدد بتوقيع قرار الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامره من تجار الغرب، وكانت حجته في ذلك إلى أن مجرد الامتناع عن المتاجرة مع دولة المماليك سيؤدي حتماً إلى حرمانها من المورد الرئيسي لثرائها وقوتها، مما يسهل القضاء عليها عسكرياً وعندئذ يمكن للغرب الأوروبي أن يعيد احتلال الأراضي المقدسة مرة أخرى.<sup>(١)</sup>

كما حاول البابا اتخاذ إجراءات عسكرية سريعة لنجدة مملكة أرمينية بناءً على استغاثة ملكها ضد دولة المماليك، فقد أرسل إليها الجيش الذي كان قد أعده لإعادة احتلال عكا، كما أرسل أسطولاً بحرياً إلى مملكة قبرص لمشاركتها في تهديد مدينة الإسكندرية، واستمرت اتصالاته التي كان قد بدأها سابقاً مع المغول للاشتراك معاً في الهجوم على بلاد الشام.<sup>(٢)</sup>

غير أن دعوة البابا في استشارة الغرب الأوروبي لإرسال حملة صليبية إلى الشرق قد باءت بالفشل، إذ أن الملوك والأمراء الذين دعاهم لم يلبوا الدعوة وأداروا ظهورهم له.<sup>(٣)</sup> كما أن دعوته إلى فرض حصار اقتصادي على دولة المماليك وحرمان الاتجار معها لم يلاق النجاح الكافي -نجح نسبياً في مملكة أرمينية لفترة وجيزة- فقد عاد التجار الأوروبيون وبخاصة تجار المدن الإيطالية للمتاجرة مع المماليك<sup>(٤)</sup> فمات البابا نيقولا كاسف البال سنة ١٢٩٢م.<sup>(٥)</sup>

على أن الدولة التي شكلت خطراً على دولة المماليك هي مملكة قبرص التي أصبحت بعد تحرير عكا الملجأ الذي لجأ إليه بقية الصليبيين المنهزمين من بلاد الشام،

---

(١) سعيد برجوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٦٤٢، أحمد دراج، المماليك والفرنج، ص ٧.

(٢) سعيد برجوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٦٤٢-٦٤٣.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١١٩٢.

(٤) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٢٥.

(٥) سعيد عاشور، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٩٢.

وقد وجد فيهم الملك هنري الثاني أداة صالحة لتنفيذ سياسته العدوانية ضد دولة المماليك.<sup>(١)</sup>

وقد بدأ هنري الثاني أولى اعتداءاته على سواحل بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م بالاتفاق مع غازان محمود زعيم المغول الذي هاجم بدوره بلاد الشام واحتل دمشق لبضعة أشهر، وقد أرسل هنري الثاني قطعا بحرية وصلت مقدمتها إلى البترون ونزلت في مياهاها بانتظار الجيش الملكي الذي كان في طريقه إليها، ولكن قبل وصول هذا الجيش انضمت إليها وحدات نصرانية مارونية انحدرت من جبل لبنان، واتجهوا جميعا لمهاجمة مدينة طرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها تصدت لهم ودحرتهم وقتلت قادتهم، كما أوقعت الوحدات النصرانية المارونية في الأسر. وكان أسطول جنوي في الوقت ذاته يقتحم جبل ويستولي عليها ثم يتركها دون أن يبقى له أثرا فيها.

وفي السنة التالية ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م شن هجوما على سواحل مصر، فقد أرسل أسطولا بحريا بقيادة «بودوان دي بيكني»، الذي أبحر من مرفأ فماجوستا القبرصي إلى مدينة الرشيد، حيث رسا هناك، ثم أقدم مائة فارس من قواته على اقتحام المدينة وتخليص الأسرى المغول والصليبيين الذين كانوا فيها منذ تحرير عكا، ثم دخل الأسطول مياه الإسكندرية بقصد إرهاب أهاليها، وغادرها مبحرا صوب الساحل الشامي وقد نزلت قواته في عكا وطرطوس حيث اشتبكت هذه القوات مع الوحدات الإسلامية المرابطة فيهما، ثم عادت الحملة إلى قبرص دون الحصول على نتيجة تذكر.<sup>(٢)</sup>

وفي السنة ذاتها وتنفيذا للتحالف بين الصليبيين والمغول أرسل ملك قبرص حملة أخرى تألفت من عدة سفن حملت على متنها ثلاثمائة فارس قبرصي ومثلهم أيضا من فرقتي الداوية والاسبتارية، وقد كمنت هذه الحملة بالقرب من ساحل طرابلس واتخذت من جزيرة أرواد نقطة تجمع وانطلاق، وفي أثناء انتظارهم لقوات المغول التي كانت تهاجم ضواحي حلب في ذلك الحين، احتل الصليبيون مدينة طرطوس، غير أن

(١) سعيد عاشور، المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٢٣، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ٧١.

(٢) سعيد برجايوي، الحروب الصليبية، ص ٦٤٤-٦٤٥.



اقترب القواٲ الإسلامية من المدينة جعلهم ينسحبون منها.<sup>(١)</sup> أما جزيرة أرواد فقد تجمع فيها عدد كبير من الصليبيين وشيدوا فيها سورا وجعلوها مركزا لتحصنهم، ومن هناك أخذوا يشنون عمليات القرصنة البحرية على المسلمين المترددين على الساحل. أزاء ذلك أمر السلطان الناصر محمد بإنشاء أربع سفن حربية بدار الصناعة في مصر سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م لفتح هذه الجزيرة، ويتكامل إنشائها شحنها بالمقاتلين والآت الحرب، ثم أبحرت بقيادة الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري باتجاه طرابلس حيث أرففها الأمير أسنذر الكرجي بقواٲ أخرى من جيش طرابلس، ثم أبحرت الحملة صوب الجزيرة، فهاجمتها وقتلت وأسرت جميع الصليبيين فيها وخرت أسوارها، وكان عدد من قتل من الصليبيين فيها يقارب الألفين، أما الأسرى فكانوا في نحو خمسائة أسير، ثم عادت الحملة بالأسرى والغنائم.<sup>(٢)</sup>

على أن الدعوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها نحو المشرق الإسلامي ظلت فكرتها تتسع في الغرب الأوروبي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، فقد وضع «ريموند لول» مشروعا سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م دعا فيه إلى كسب المسلمين وطوائف النصارى الشرقيين إلى جانب معسكر الكنيسة الغربية (البابوية) عن طريق التبشير، وفي ذات الوقت إرسال حملة صليبية إلى الشرق يرأسها أحد ملوك الغرب الأوروبي وتشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية وإسبتارية وتيوتون وغيرهم، كما وضع ريموند لول في مشروعه ذاك تصوره في كيفية سير هذه الحملة وخططها مستفيدا من درايته بطبيعة البلاد الإسلامية ومعرفته باللغة العربية من خلال رحلاته المتعددة فيها، وكان تصوره أن تبدأ الحملة من اسبانيا حيث يقوم الصليبيون بطرد المسلمين منها، ثم ينتقلون إلى شمال أفريقية ويزحفون بحذاء الساحل إلى تونس ثم مصر، في الوقت الذي يتخذ الأسطول الصليبي من جزيرتي مالطة ورودس قاعدتين لمساعدة الحملة البرية في محاربة المسلمين، كما دعا في سبيل إنجاح مشروعه إلى استيلاء الصليبيين الغربيين على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت على علاقات

(١) سعيد برجوي، الحروب الصليبية، ٦٤٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٤٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢١، ابن أبيك الدوادري، الدر الفاخر، ص٣٣٨.

ودية مع دولة المماليك.

كما خرج الملك هنري الثاني ملك قبرص بمشروع آخر رفعه إلى البابا « كلمنت الخامس » دعا فيه إلى ضرب حصار بحري على سواحل مصر وبلاد الشام لمدة عامين أو ثلاثة بشرط أن يكون الأسطول الصليبي المكلف بالحصار مستقلاً تمام الاستقلال عن الجمهوريات الإيطالية التجارية التي تشكك هنري الثاني في اخلاصها للفرض الصليبي، وكان تصور هنري الثاني أن ذلك الحصار سيضعف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بارض مصر نفسها، حتى إذا ما تم ذلك أصبح احتلال بلاد الشام والاستيلاء على الأراضي المقدسة أمراً يسيراً ما دامت قبرص تتولى امداد القوات الصليبية بالرجال والمؤن إلى أن تحقق الهدف.<sup>(١)</sup>

وبلغ من تحمس هنري الثاني أن شرع في تجهيز حملة صليبية، واتفق مع بعض ملوك أوروبا على بناء ستين قطعة حربية لغزو دمياط، ولما كانت الدولة المملوكية تراقب الموقف عن كثب فقد أمر السلطان بيبرس الجاشنكير ببناء جسر يمتد من القاهرة إلى دمياط خشية نزول الصليبيين وقت فيضان نهر النيل، وأمر ببناء جسر آخر بطريق الإسكندرية، على أن حملة الصليبيين لم تتم آنذاك.

وفي زخم تلك المحاولات لتشكيل حملة صليبية استغلّ الملك الفرنسي « فيليب الرابع » الموقف وأعلن عن عزمه على قيادة حملة جديدة، وتحت ستار الاستعداد لها، أخذ يحصل أموال الكنيسة ويصادر أموال فرقة فرسان الداوية وذلك سنة ١٣١٢هـ / ١٣١٢م. وعندما اكتشفت البابوية عدم جديته فقد سعت إلى استشارة اصحاب الخبرة في قتال المسلمين من ملوك النصارى وغيرهم، ومن أولئك الملك هيثوم الأول ملك أرمينية السابق -الذي كان قد اعتزل في أحد أديرة فرنسا- فأوصى بإعداد حملتين. الأولى بحرية بحيث تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدة لها، والثانية برية بحيث تتحالف مع الأرمن والمغول، واستشارت البابوية أيضاً أحد رجالاتها ويدعى « وليم آدم »، والذي أشار بضرورة احتفاظ الصليبيين بأسطول في المحيط الهندي لقطع تجارة المماليك مع الشرق الأقصى، كما أشار إلى ضرورة الاستيلاء على القسطنطينية.<sup>(٢)</sup>

وعندما تولى فيليب السادس عرش فرنسا أراد أن يجرب أقصر الطرق وأسهلها

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٣-١١٩٤، ١٢٠٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٤-١١٩٥.



-كما توهم- لعله يحقق ما يصبوا إليه من مجد في السيطرة على الأراضي المقدسة، ولكن دون أن يخرج على رأس حملة صليبية لقتال المسلمين، فبلغت به السذاجة أن أرسل سفارة إلى السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. طالبا منه تسليم بيت المقدس والساحل اليه، غير أن سفارته عادت إليه مهانة ومطرودة.<sup>(١)</sup> وإذا فطن فيليب إلى ما كان عليه من سذاجة أخذ يعمل على تجهيز حملة عسكرية، وفي سبيل ذلك أباح له البابا «حنا الثاني والعشرون» سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م. جمع ضريبة العشور لمدة سنتين فقط. كما أباح له في السنة التالية بيع صكوك الغفران للغرض نفسه.

ولقد لجأ الملك فيليب إلى استشارة الخبراء الذين لهم دراية بشؤون الشرق، فقدم له «بركارد» أحد دعاة الحروب الصليبية مشروعا سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، يقضي بالاستيلاء على بيت المقدس عن طريق البر عبر القسطنطينية، بيد أن مستشاري الملك استبعدوا مشروع بركارد وفضلوا الطريق البحري، ولما مال فيليب إلى رأي مستشاريه، فقد عقد اجتماعا مع ملك قبرص وممثلي الاسبتارية والبندقية في حضرة البابا حنا الثاني والعشرين وتم الاتفاق بينهم على تسيير الحملة، ولما لم يبق إلا التنفيذ، حدث في أوروبا ما لم يكن في الحسبان، فقد تجددت في ذلك الوقت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا فتحطم المشروع وفشلت الحملة.<sup>(٢)</sup>

غير أن فشلها لم يكن يعني توقف الاعتداءات الصليبية على الموانئ الإسلامية، فقد استمرت مملكة قبرص وحلفاؤها في حوض البحر المتوسط في شن الغارات على الموانئ الإسلامية في مصر وبلاد الشام بين الفينة والأخرى، ومن أشهرها تلك التي حدثت سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. فقد قدمت لهم حملة بحرية في أواخر جمادى الأولى/ نيسان من تلك السنة مؤلفة من سبعة مراكب جازت أولا على بيروت ثم توجهت إلى صيدا، وقد فاجأ الصليبيون الناس في صيدا فجر يوم الجمعة، حيث دخلوا المدينة وقتلوا طائفة من أهلها، وأسروا طائفة أخرى، ونهبوا شيئا كثيرا، غير أن تلك المفاجأة لم تترك المسلمين بالقدر الذي أراده الصليبيون، فقد تصدوا لهم وقتلوا منهم بضعا وثلاثين رجلا، أرسلت رؤوسهم بعد انتهاء الحملة إلى دمشق لتعلق على القلعة هناك، وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد، وسبق العسكر

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ص ٣١٩.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٩٥-١١٩٨.

الشامي، ولحق بالمراكب الصليبية على جزيرة تلقاء صيدا ولكن بعد فوات الأوان، فقد تحصن الصليبيون في الجزيرة، وعندئذ راسلهم المسلمون في انفكاك الأسرى من أيديهم فتم الاتفاق على دفع مبلغ للصليبيين قدره خمسمائة درهم عن كل أسير، فدفع ثلاثون ألف درهم، ثم رحل الصليبيون بما حصلوه من الغنائم.<sup>(١)</sup>

#### **الحملة الصليبية على الإسكندرية سنة ٥٧٦٧هـ / ١٢٦٥م :**

منذ أن اعتلى «بطرس لوزجنان» عرش قبرص سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م. صمم على أن يجعل من نفسه البطل الذي سيجدد الحروب الصليبية ضد الإسلام وأهله ويعيد احتلال الأراضي المقدسة من جديد، ولذلك لم يقنع بالغارات المحلية الصغيرة التي كانت تشنها مملكة قبرص، وحلفاؤها على بعض الموانئ الإسلامية، وإنما تطلع إلى قيادة حملة صليبية ضخمة يستطيع من خلالها ضرب الدولة المملوكية ضربة قاسمة لعله ينفذ بعدها عبر البوابة المصرية إلى الأراضي المقدسة، وفي سبيل ذلك قام برحلة طويلة في غرب أوروبا بين سنتي (١٣٦٢-١٣٦٥). للدعاية لحملة والحصول على المساعدات التي تمكنه من تنفيذ مآربه. وبتأييد من البابوية ودعمها حصل على كثير من المساعدات من ملوك وأمراء الغرب الأوروبي.<sup>(٢)</sup>

واستطاع بطرس لوزجنان إعداد حملة صليبية كبيرة جعل نقطة تجمعها في جزيرة رودس، وكانت عدتها بعد اكتمال تجهيزها ما بين سبعين إلى ثمانين سفينة، كان للبندقية منها أربع وعشرون سفينة، ولجنوا سفينتان، ولرودس عشر سفن، وفرنسا خمس سفن، أما بقيتها فكانت لقبرص.<sup>(٣)</sup>

وكانت أخبار استعداداته تصل تباعا إلى الإسكندرية، مما جعل نائبها الأمير زين الدين خالد يهتم بتحسينها، ويرسل إلى الأمير يلبغا الخاصكي مقدم الجيوش في القاهرة والوصي على السلطان الأشرف شعبان -بسبب صغر سنه- طالبا منه الإعانة لمواجهة الموقف، غير أن الأمير يلبغا لم يكثرث للأمر ورد على الأمير زين الدين بقوله:

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٩.

(٢) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، ج ٢، ص ١١٠، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٥٦.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ١٠٧.



«إنَّ القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية.»<sup>(١)</sup>

أما الملك القبرصي بطرس لوزنجان، فقد اختار الإسكندرية كنقطة مهاجمة بعد أن أشار عليه خواصه بذلك.<sup>(٢)</sup> إلا أنه حرص على كتمان جهته هذه لعدم اطمئنانه إلى إخلاص الجمهوريات الإيطالية له، وخشية من أن تضيع سر حملته وتحذر السلطان المملوكي منها، فاتجه أولاً إلى جزيرة كرامبوسا (إحدى جزر آسيا الصغرى) وهناك أعلن عن وجهته، فوصل إلى الإسكندرية يوم الأربعاء ٢٠ محرم ٦٦٧هـ/ ٨ تشرين أول ١٣٦٥م.<sup>(٣)</sup> وعندما رأى أهل الإسكندرية طلائع تلك السفن ظنوها سفناً تجارية للتجار البنادقة إذ كانوا ينتظرونها على جاري عاداتهم في كل سنة، ثم ما لبثوا أن اكتشفوا حقيقة الأمر عندما لم تدخل تلك السفن الميناء في يوم وصولها، بل ظلت تستعرض قوتها إلى أن رست في صبيحة اليوم التالي، ببحر السلسلة وهو الميناء المحذور على السفن النصرانية دخوله.<sup>(٤)</sup>

وعندئذ حشد الأمير جنغرا -الذي كان ينوب عن الأمير صلاح الدين خليل بن عرام في نيابة الإسكندرية بسبب ذهابه لأداء مناسك الحج آنذاك- كل ما لديه من قوات على حافة الشاطئ، في الربط وأمام الأسوار في شبه جزيرة الميناء لصد الصليبيين في حين خرج الباعة للتكسب في منطقة الشاطيء «وهم يعلنون بلعن كل راهب و قسيس.. ثم انهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم (الأسطول) يوم الخميس، بل صاروا يلعنون القبرصي كلعنهم لإبليس».<sup>(٥)</sup>

أما بطرس لوزجنان فقد اهتم بالكيفية التي تمكنه من الاستيلاء على المدينة، ولذلك أنفذ جواسيسه إليها ليحيطوه علماً بأحوالها وحصونها ونقاط القوة والضعف

(١) النويري السكندري، الامام بالإعلام، ج٢، ص ١١١.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٢٥.

(٣) النويري السكندري، الامام بالإعلام، ج٢، ص ١٣٦، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في

مصر، ص ٢٤٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٢٥

(٤) النويري السكندري، الامام بالإعلام، ج٢، ص ١٣٦-١٣٧، المقرئ، السلوك، ج٣، ص ١٠٥.

(٥) النويري السكندري، الامام بالإعلام، ج٢، ص ١٣٩-١٤٠.

فيها، وعلى ما روى النويري السكندري، فان بطرس لوزجنان قد دخل بنفسه إلى الإسكندرية في زي أحد التجار ونزل عند كاتب الديوان بها شمس الدين ابن غراب الذي توطأ معه مما اتاح له فرصة التعرف على احوال المدينة ويبدو أن واليها بن عرام قد عرف عن خيانة ابن غراب بعد ان عاد من الحجاز في أعقاب الحملة، فأمر بقتله.<sup>(١)</sup>

وبعد أن تعرف بطرس لوزجنان على احوال المدينة، حدد يوم الجمعة ٢٢ محرم/ ١٠ تشرين أول واثناء وجود المسلمين في المساجد موعدا لشن الهجوم، وأرسل في ليلتها مجموعة من فرسانه إلى البر، لإحداث الفزع بين صفوف المسلمين ومهاجمتهم من الخلف اثناء انشغالهم بالتصدي للصليبيين قبالة الشاطيء، فكمن الفرسان في المقابر بظاهر المدينة، ريثما يحين موعد الهجوم.<sup>(٢)</sup>

وكانت جموع من العريان قد وصلت إلى الإسكندرية قبل شمس يوم الجمعة، وقد شد ذلك من أزر أهلها، غير أن تلك الجموع على الرغم من كثرتها لم يكن لها أي تأثير عسكري بحيث تستطيع تغيير مجرى المعركة المنتظرة نظرا لافتقارها إلى التنظيم والسلاح، فضلاً عن غياب الوازع الديني لديها - لما أحدثته من سلب فيما بعد- وإن كانت قد نجحت في استعراضها أمام أهل الإسكندرية وبخاصة النساء «فزرغتن النسوان لتلك العريان، وقلن: قد أتت الشجعان، يقتلون عباد الصلبان، فصاروا يتطاردون على خيولهم تحت الكيمان، وقد أرخو لها الأعنة عند سماعهم الزرغته، وتلك العريان من كثرتهم كالطر، خارجين من الباب الأخضر (أحد أبواب الإسكندرية) فصاروا في الجزيرة كالجراد المنتشر وكل من سراويل الحرب منقشر، ليس مع كل واحد منهم غير سيفه الأجرب ورمحه قاصدا إما لقتله أو لجرحه».<sup>(٣)</sup>

---

(١) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، ج ٢، ص ١٤١-١٤٢، ١٥٨، ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٥٦، العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٣١٢.

(٢) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، ج ٢، ص ١٤٦، المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ١٠٥، سعيد عاشور، قهرس والحروب الصليبية، ج ٦٢-٦٣، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٥، سعاد ماهر، البحرية في مصر الاسلامية، ص ١٢٠.

(٣) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، ج ٢، ص ١٤٢-١٤٣.



ولمّا استشعر بعض المغاربة -الذين كانوا يرابطون في المدينة مع المماليك- الخطر يحدق بالمدينة عرضوا على الأمير جنغرا رأيهم القاضي بوجوب دخول المدينة والتحصن بأسوارها، غير أن الأمير جنغرا لم يقبل برأيهم نزولاً عند رغبة الكثير من المرابطين الذين رفضوا ذلك الرأي.<sup>(١)</sup>

وفي الموعد المحدد ضحى نهار يوم الجمعة ٢٢ محرم / ١٠ تشرين أول بدأ الملك بطرس لوزجنان بشن هجومه البحري على المدينة واستطاع اقتحامها بعد صلاة الجمعة، على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها المجاهدون في الدفاع عنها،<sup>(٢)</sup> وكان الصليبيون أكثر عدة وعدداً من المسلمين، وقد نقل لنا السكندري صورة الموقف بقوله: «فنزلت الفرنج سريعاً من مراكبها بخيلها ورجلها وقت ضحى نهار يوم الجمعة إلى البر، فرمت الخيالة المسلمون بالسهام، تقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام... وكانت الفرنج مسريلة بالزرد النضيد، متجلببة بصفائح الحديد على رؤوسهم الخوذ اللامعة، وبايديهم السيوف القاطعة، قد تنكبوا القسي المتورة ورفعوا أعلام الصليبان المنشورة، وصاروا يرمون على المسلمين. فارتشقت سهامهم في أهل الإيمان وفي خيول العربان، فهجّت بهم تلك الخيول في كل جهة و مكان، فانهزموا إلى ناحية السور، فصار جيش المسلمين بهزيمة العرب مكسوراً، ولا عادوا قابلوا الفرنج الكلاب، بل دخلوا البلد غائرين من الأبواب، وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم. والمسلمون كلحم على وضم، فكيف يقاتل اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسى الزرد النضيد، فانهزم المسلمون وولوا، ومن الكفار فروا».<sup>(٣)</sup>

ودخل بطرس لوزجنان المدينة راكباً، بينما «استلم الفرنج الناس بالسيف ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق وأسروا وسبوا خلائق كثيرة وأحرقوا عدة أماكن، وهلك في الزحام بباب رشيد (أحد أبواب الإسكندرية) ما لا يقع عليه الحصر، فأعلن الفرنج بدينهم، وانضم اليهم ما كان بالشفر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء فأخذوا ما فيها واستمروا كذلك يقتلون ويأسرون ويسبون وينهبون ويحرقون من ضحوة نهار الجمعة إلى بكرة نهار الأحد، فرفعوا السيف وخرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم،

(١) النويري السكندري، الإلمام بالإعلام، ج٢، ص ١٤٣-١٤٥.

(٢) م.ن، ج٢، ص ١١٣، ع ١٤٦-١٤٧.

(٣) م.ن، ج٢، ص ١٤٧-١٤٨.

وأقاموا بها إلى يوم الخميس... ثم اقلعوا ومعهم خمسة آلاف أسير فكانت اقامتهم ثمانية أيام.»<sup>(١)</sup>

وبما زاد الأمر سوءا على أهل الإسكندرية أن العربان الذين قدموا لنجدتها قد اقتنصوا الفرصة وأخذوا في النهب والسلب، فوقع السكندريون بين نارين وتشتتوا في الحقول والقرى المجاورة للإسكندرية حيث ساءت حالتهم بسبب نقص الطعام وعدوان العربان.<sup>(٢)</sup>

أما الأمير جنفرا فكان قد خرج من الإسكندرية بعد أن أخذ معه ما كان في بيت المال من أموال، كما اقتاد خمسين تاجرا من التجار الأوروبيين كانوا في المدينة واتجه إلى دمنهور.<sup>(٣)</sup>

ولما سقطت الإسكندرية في يد بطرس لوزجنان عقد اجتماعا حربيا مع قاداته للتشاور في المرقف الجديد، وكان من رأيه أن يبقى الصليبيون في المدينة ويقومون بالدفاع عنها فيما إذا حاول المماليك استعادتها، غير أن أغلبية قاداته فضلوا الاكتفاء بما حققته الحملة والانسحاب من الإسكندرية، عندئذ غادرها بطرس لوزجنان على رأس حملته عائدا إلى قبرص، في الوقت الذي قدم فيه الأمير يلبغا الخاصكي على رأس جيشه، ولكن بعد فوات الأوان.<sup>(٤)</sup>

وقد علق المقرئزي على ما حل بالإسكندرية جراء حملة بطرس لوزجنان بقوله: «فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مرَّ بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت احوالها واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمهم.»<sup>(٥)</sup>

وقبل بيان ما تمخضت عنه الحملة من نتائج، يجدر بنا الوقوف عند مجمل الأسباب التي أدت إلى تلك الفاجعة الكبيرة، فقد كانت الظروف التي تعيشها الدولة

---

(١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) النويري السكندري، الامام بالإعلام، ج٢، ص ١٦٢، سعيد عاشور الحركة الصليبية ج٢، ص ١٢٢٥، سعد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٢٠.

(٣) النويري السكندري، الامام بالإعلام، ج٢، ص ١٥٦، المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١٠٨.

(٤) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٤٩.

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. P364.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١٠٨.



المملوكية آنذاك غير مستقرة، فالسلطان الأشرف شعبان كان صغير السن لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ولم يكن له من السلطة إلا الاسم، أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلبغا الخاصكي الذي استأثر بالنفوذ وتحكم في أمر البلاد والعباد، كما لم تكن حامية الإسكندرية من القدرة عدة وعدداً بحيث تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين، ولم تتمكن القاهرة من إرسال نجدة سريعة إلى الإسكندرية بسبب فيضان نهر النيل وما نتج عنه من غمر الدلتا بالمياه في ذلك الوقت.<sup>(١)</sup> أما السبب المباشر كما يراه النويري السكندري فهو عدم تمتع جنغرا بالكفاءة العسكرية، فقد ارتكب خطأ عسكرية فادحاً عندما أبقى الحامية العسكرية متمركزة في الربط المقامة على حافة الشاطيء، في شبه جزيرة الميناء، ولم يتم بنقلها إلى داخل المدينة لكي تقاتل خلف الأسوار بناء على ما أشار به المغاربة.

وقال في ذلك: «ولو كان المسلمون تركوا للقبرصي الجزيرة وتحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور، لكان المسلمون بتحسينهم بالشفر سلموا من القتل والنهب والأسر».<sup>(٢)</sup>

أما الملك القبرصي فقد اقيمت له الاحتفالات العظيمة بعد أن عاد إلى مقر ملكه، هذا في الوقت الذي أخذ يرسل فيه الرسائل إلى البابا وملوك الغرب الأوروبي يخبرهم بما أحرزه من انتصار، ويوضح لهم الأسباب التي دفعت به إلى الجلاء عن الإسكندرية مع التأكيد لهم بعزمه على معاودة الكرة مرة أخرى إذا وجد عوناً منهم.<sup>(٣)</sup> كما قام بتقسيم الأسرى المسلمين والغنائم التي حازها بين أولئك الملوك.

وقد أحدثت هذه الحملة دويماً شديداً في الغرب الأوروبي، فأرسل البابا إلى بطرس لوزجنان مهنئاً، كما أرسل إلى ملوك الغرب وأمرائه يناشدهم أن يسرعوا في تقديم المساعدة إلى ملك قبرص، ولم تلبث أن ذبت الحماسة في شارل الخامس ملك فرنسا فأرسل إلى الملك بطرس يخبره بأنه سوف يبعث إليه بجيش عظيم يحطم به المسلمين. كذلك سمع كثير من المغامرين من فرسان أوروبا بوفرة الغنائم التي غنمها الصليبيون من الإسكندرية فنزحوا إلى قبرص للدخول في خدمة بطرس لوزجنان، وطلبوا غداة

(١) Atiya, op. cit, PP 351-352.

(٢) النويري السكندري، الايام بالاعلام، ج٢، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٢٦.

وصولهم القيام بهجوم صليبي فوري على المسلمين، غير أن الأمر لم يتعد ذلك، فلم يلب أحد من ملوك أوروبا وأمرائها نداء البابا بل إنهم لاموا بطرس لوزجنان لتخليه عن الإسكندرية.

على أن حملته تلك تعتبر فاشلة من الناحية العسكرية بالنظر إلى الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه وهو الاستيلاء على الإسكندرية والاحتفاظ بها لكي تكون قاعدة للانطلاق منها نحو بيت المقدس، وكل ما فعله بطرس لوزجنان هو السلب والنهب والقتل، ثم أسرع فارا من المدينة قبل أن يدهمه المسلمون.<sup>(١)</sup>

وقد أحدثت هذه الحملة وما تلاها من حملات انفعالا شديداً لدى الممالك التي يتفاعل إلى أن ترجم عسكريا بالسيطرة على جزيرة قبرص واخضاعها لنفوذهم. أما ردور فعل الممالك الفورية فقد تمثلت في ثلاثة مواقف.

الموقف الأول: وهو الاستعداد لغزو الصليبيين في عقر دارهم. فقد اهتم الأمير يلبغا الخاصكي بصناعة السفن البحرية في موانيء مصر وبلاد الشام، غير أن وفاة الخاصكي في أواخر سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م، وما أصاب الدولة من ظروف داخلية حال دون تسيير حملة بحرية صوب جزيرة قبرص في ذلك الحين.<sup>(٢)</sup>

أما الموقف الثاني: فكان أن أصدر الأمير يلبغا الخاصكي، في أثناء استعداداته لغزو قبرص-مرسوما يقضي بالزام النصارى في كافة أرجاء مصر وبلاد الشام بحمل أموالهم إلى الدولة لفكك أسرى المسلمين من أيدي الصليبيين -.<sup>(٣)</sup>

وأما الموقف الثالث: فكان أن اتخذت الدولة المملوكية خطوة ذات مغزى سياسي وديني وهي إغلاق كنيسة القيامة في بيت المقدس، في محاولة للضغط على النصارى الأوروبيين لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من ناحية، ولكي يكفوا عن المشاركة في حملات جديدة.

وقد أحدث ذلك رداً سريعاً لدى البنادقة بشكل خاص، فقد أرسلوا وفداً إلى السلطان الأشرف شعبان مطالبين بالصلح، وفتح كنيسة القيامة وتمكين تجارهم من

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٢٦-١٢٢٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١١٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٣١٤-٣١٥، المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١٠٧.

انظر نص المرسوم في الملحق.



القدوم إلى مصر مقابل أن يعملوا على إطلاق سراح الأسرى المسلمين، غير أن السلطان الأشرف والأمير يلبغا - قبل وفاته - أرادا إحداث مزيد من الضغط على الأوروبيين فرفضوا مطلبهم واجابا: «بأنه لا بد من غزو قبرص وتخريبها». <sup>(١)</sup> ويلاحظ أن هذا الرد قد جاء في أوج استعداد المماليك لغزو قبرص .

أما ملك جنوا فاراد التنصل من مشاركته في الهجوم على الإسكندرية. فقد انفذ الى السلطان الأشرف شعبان نصيبه من الأسرى المسلمين الذين أرسلهم إليه الملك بطرس لوزجنان، وكان عددهم ستين أسيرا، كما أرسل هدية للسلطان وللأمير يلبغا «وذكر أن هذه الأسرى كانت نصيبه، واعتذر بأنه لم يعلم بواقعة الإسكندرية إلا بعد وقوعها وأنه مستمر على الصلح ومتى قدر على أخذ ممتلك قبرص قبضه وقتله، فقبلت هديته وأثنى الأسرى عليه خيراً» <sup>(٢)</sup>.

وكان لهذا الاعتداء السافر صدى كبير في العالم الإسلامي شرقا وغربا، ففي الأندلس غربا، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالإغارة على النصارى الإسبان في مدينة جيان التابعة لملك قشتالة، ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين الخطيب على لسان سلطانه ابي عبدالله محمد الخامس الغني بالله إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له فيها حملته على جيان ودوافعها بقوله:

«سلام كريم بفتح الفتوح المؤيد بالملائكة والروح... فنوينا أن ترفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد ونقصنا اطراف البلاد عن أولي الجلادة والجلاد في المحرم سنة ٧٦٨هـ / (١٣٦٦م)، بعد سنة كاملة من حادث الإسكندرية، ونادى منادي الحمية: يا لثارات أهل الإسكندرية».

أما المشرق الإسلامي، فإن الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن برزج (العظيم) سلطان الدولة الجلائرية المغولية بالعراق وفارس حينما بلغه خبر تلك المذبحة تألم الما كبيرا وتصادف أن جماعة من تجار الفرنج دخلوا بلاده لبيع اقمشة ومنسوجات في مدينة تبريز، فقبض عليهم وأحضرهم وقال لهم:

«هذا قماش الإسكندرية نهبتموه منها وجئتم تبيعونه ببلدي» فقالوا: لا

(١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١١٩. محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٥١.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١٢٢-١٢٣، وقد اشار المقرئزي الى ان جنوا قد شاركت في الحملة على

الاسكندرية بسفينتين، ولعل ذلك لم يكن من قبل ملك جنوا- اذا صدق- بل من قبل متطوعين .

والمسيح ما نهبناه ولكن اشتريناه ممن نهبه، فقال كذبتكم بل افسدتم بلد المسلمين يا كلاب  
واتيتم تبيعون اقمشتهم ببلدي، فعند ذلك أمر بالحوطة على اموالهم وقتلهم عن آخرهم  
قيل كان عدتهم ثمانمائة عالج، هكذا اخبرت عنهم تجار البغاددة الواردين إلى  
الإسكندرية ببضائعهم».

وعندما ورد على السلطان أويس، رسل ملوك الفرنج يطلبون منه السماح  
لتجارهم بدخول بلاده. فقال لهم السلطان أويس:

«انا اسمي أويس بن حسن بن حسين، مسلم ابن مسلم، وانتم تعتدون على بلاد  
المسلمين وتأتون بلادني بمتاجركم تبتغون الفضل؟ لا والله لن أرضى بذلك ولو سبقني  
ملك إلى قتل الرسل لقتلكم، ولكن ارجعوا من حيث أتيتم واجتهدوا في صلحكم مع  
سلطان مصر، واستدركوا ما افسدتم من الحال الذي فعلتم بالإسكندرية فان اتيتموني  
بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته، مكنتكم حينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه ما  
تختارون، وان لم تفعلوا ذلك وعدتم إلى بلدي فليس لكم عندي إلا السيف»، فرجعوا  
بالخيبة من حيث أتوا مردود عليهم هداياهم<sup>(١)</sup>.

ولقد أنشد الشعراء في رثاء الإسكندرية قصائد كثيرة، ومما نظمه الشيخ شهاب  
الدين أحمد بن أبي حجلة التلمساني قوله-على البحر الطويل-:

إلا في سبيل الله ما حل بالشجر	على فرقة الإسلام من عصبة الكفر
أتاها من الفرنج سبعون مركبا	فصاحت بها الغريان في البر والبحر
فما فاز منها غيرهم بدخولها	ولا فتحت من بعد فاتحها عمرو
ولا نبتت منها القنا من دمائهم	إلى أن أسالوا الدم في البحر كالنهر
وصير منها ازرق البحر أسودا	بنوا الأصفر الباغون بالببيض والسمر
أقاموا على التثليث فيها ثلاثة	كمعبودهم في النهب والقتل والأسر
لئن نهب الإفرنج جانب بحرها	فقد نهب العريان جانبها البر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى	وكم من غني مات فيها من الفقر

(١) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣١٦-٣١٩.



وكم قتلوا فيها كبيراً ونصروا  
 فيالك من هول عظيم وفتنة  
 وقد اخذوا في أخذها الطالع الذي  
 فلو كان فيها مثل ما كان عسكر  
 لما ظفر الغربان فيها بنقرة  
 وقد أسرت قلبي الأسارى بأسرهم  
 وصارت ذوات الحلى بالأسر عندهم  
 خلا ربهم من أنسبهم وتفرقوا  
 صغيراً من الأسرى ولا سيما البكر  
 اضر على الإنسان من فتنة القبر  
 به أخبر الكهان في سالف الدهر  
 يصول بذات الحرب فيها مع الصقر  
 ولا نابها خطب بناب ولا ظفر  
 فواعجبا من أسر من هو في الأسر  
 وليس لها حلى سوى المدمع الدر  
 أيادي سبايا السبي في آخر الشهر<sup>(١)</sup>

#### استمرار الاعتداءات الصليبية:

عندما تلقى البنادقة رداً حازماً من السلطان والأمير يلبغا، عملوا على إقناع بطرس لوزجنان ملك قبرص لكي يدخل في مفاوضات مع السلطات المملوكية، ولما كان بطرس لوزجنان يشعر بانفضاض الصليبيين من حوله ويتنكرهم مما قام به من اعتداء، على الإسكندرية، فقد استجاب لطلب البنادقة وأرسل وفداً إلى السلطان محملاً بالهدايا في محاولة للوصول معه إلى اتفاق ودي، فاشتراط السلطان مقابل ذلك إطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد وقعوا في قبضته، فوافق لوزجنان وأطلق من بقي لديه من الأسرى وأرسلهم إلى مصر على مركب خاص أعده لهم<sup>(٢)</sup>  
 واستمرت المفاوضات بين مصر وقبرص بعد ذلك الاتفاق الأولي مدة أربع سنوات لتحقيق صلح نهائي، وعلى ما يبدو فإن الماليك لم يكونوا جادين في عقد صلح مع القبارصة- إذ كان هدفهم الإستيلاء على قبرص لاجتثاث بؤرة الصليبيين الذين اتخذوها قاعدة للهجوم على الموانئ الإسلامية، ولا شك في أن بطرس لوزجنان قد أدرك ما كان يصبوا إليه الماليك، فاخذ بشن هجمات جديدة على سواحل مصر وبلاد

(١) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، صفحات متفرقة من المجلد ٢.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٥٢.

Atiya. op, cit, PP 371-372

الشام في أثناء مفاوضاته مع المماليك في محاولة منه لإجبارهم على قبول الصلح، ففي أوائل المحرم سنة ٧٦٨هـ / تشرين ثاني ١٣٦٦م جهز أسطولاً حريباً عدته مائة وست عشرة سفينة للإغارة على طرابلس الشام، غير أن عاصفة شديدة فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض، فلم يصل منه إلى طرابلس سوى خمس عشرة سفينة، أطلق رجالها يد النهب في المدينة، ثم عادوا إلى قبرص<sup>(١)</sup> وعلى الرغم من هذه الغارة فقد تجددت محاولات بطرس لطلب الصلح في أواخر سنة ٧٦٨هـ / أواسط سنة ١٣٦٧م ولكن سفارته عادت دون نتيجة فعاد إلى سيرته الأولى إذ جهز أسطولاً ضخماً في مطلع سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م تألف من مائة وثلاثين سفينة وضم الأسطول ستة عشر ألف مقاتل من القبارصة والبنادقة والجنوية والكريتيين والروادسة والفرنسيين والهنغاريين، وكان للبنادقة ثلاثون سفينة، وللجنوية عشرون وللروادسة عشر سفن، وللأغراب خمس عشرة سفينة والبقية من قبرص<sup>(٢)</sup>.

وقاد بطرس لوزجنان الأسطول بنفسه وشاركه صاحب جزيرة رودس، ورئيس الفرسان الاسبتارية. واتجه به إلى ميناء طرابلس، وكان نائبها ومعظم عسكرها غائبين عنها في ذلك اليوم الذي وصل فيه بطرس لوزجنان، فاغتتم هذا الفرصة وانزل قواته إلى ساحل البلدة، ويبدو أن أهل طرابلس لم يفاجأوا بنزول الصليبيين لكثرة طرق القبارصة لمدينتهم وعيشتهم على سواحل الشام «فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً حتى اقتحم العدو المدينة، ونهبوا من أسواقها، فتحامل المسلمون عليهم، واشتدوا في قتالهم حتى أخرجوهم بعدما قتلوا منهم الألف، واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلاً، فركبوا سفنهم وانقلبوا خائبين»<sup>(٣)</sup>.

وكان بطرس لوزجنان قبل انسحابه منهزماً من طرابلس قد انفذ قارباً من قواربه يحمل رسالة إلى الأمير جرجي الإدريسي نائب طرابلس -بعد أن كان قد عاد إليها في وقت سابق أثناء الهجوم الصليبي- وجاء فيها: «أما بعد، فإن مراسيمنا الشريفة برزت بعدم اطراق طرابلس ولو اقتضت

(١) Atiya, op, cit, P 373.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٥٢ المقرئزي، السلوك، ج ٣، ص ١٥٠.

عبدالعزیز سالم، طرابلس الشام ص ٣٤٨، Atiya, op, cit, P 373.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ص ١٤٩-١٥٠.



مراسيمنا الشريفة ذلك لفعلناه، ولكن البلاد بلادنا والقدس قدسنا فان مكنتمونا من بلادنا فنحن واياكم على العهد والصلح، وان لم تمكثونا بيننا وبينكم السيف ومع ذلك يعطي الله النصر لمن يشاء من عباده»، فبعث الأمير جرجي إلى لوزجنان رسالة جاء فيها:

«أما قولكم برزت مراسيمنا الشريفة، فهذا الكلام لا يصدر إلا عن سلطان ذي رأي، وأما انت فلص من لصوص النصارى ولست بسلطان، فلو كنت سلطانا لأقمت بالإسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها، بل هربت بسرية والهروب من شأن اللصوص، وأما قولك البلاد بلادنا، فالأمر غير ذلك لأن البلاد بلاد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وأما قولك القدس قدسنا، فما شاء الله أن يكون القدس لك لأنك رجس نجس، والقدس طاهر مطهر، وما ينبغي للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاورا للطاهر المطهر، وأما قولك السيف بيننا وبينكم، فتفقد عسكريكم خرج منه من قتييل وجريح ورهين، ولم يكن بطرابلس مقاتل لك غيري، وأنا أقل بماليك السلطان، فانزل وقاتلني بما معك ومعى»<sup>(١)</sup>.

وفي أثناء انسحاب لوزجنان حاول الإغارة على جبلة إلا أن ريحا عاصفة فرقت سفنه ومنعته من النزول على أرضها، فاتجه إلى اللاذقية للإغارة عليها، لكن المدينة استعصت عليه بسبب مناعة تحصيناتها، ووجود سلسلة في الميناء كسرت عددا من سفنه، فضلا عن الريح الشديدة التي أغرقت ثلاثا من سفنه، وسأقت رابعة إلى طرابلس، كان بها كثير من المعدات الحربية والمؤن التي غنموها من المدينة فعادت لأصحابها المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وعندما فشل لوزجنان في الإستيلاء على اللاذقية اتجه إلى بانياس، فاحرقها وأحرق ما كان بها من السفن الراسية<sup>(٣)</sup>.

ثم اتجه للإغارة على ميناء ايباس<sup>(٤)</sup>، فلما بلغ المسلمين نبأ قدومه اجتمعوا مع

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٥٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٥٥، عبد العزيز سالم، طرابلس

الشام، ص ٣٤٩-٣٥٠، Atiya, op. cit, P 373

(٣) النويري السكندري، الالمام بالإعلام، ج ٢، ورقة ٥٩-٦٠ عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٥٠

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ص ١٥٠.

نصارى الأرمن المقيمين معهم بالمدينة وشاوروهم فيما يعملون لتلافي خطره، فأشاروا عليهم بأن يتحالفوا معهم على محاربتهم، وأن يرسلوا إلى المعادل الإسلامية القريبة منهم لترسل اليهم النجيدات، فطلب المسلمون من الأرمن أن يتقدموهم في مقابلة القبرصي وتحايلوا عليه بالمكائد والحيل حتى تصل اليهم النجيدات، فلما رسا الأسطول الصليبي بميناء ايباس، تقدم نائب ملك أرمينية بمن معه من النصارى الأرمن، وركبوا القوارب حتى وصلوا إلى الملك لوزجنان، فقالوا له: «أيها الملك المظفر، نسألك حقن دمائنا لتستريح من غضب السيد المسيح، واسمع كلامنا ففيه لنا ولك النجاح والرشد والصلاح، فقال لهم: وما تريدون وبأي شيء تقولون؟ قالوا اهبط أيها الملك من المراكب فأنت وحق المسيح الظافر الغالب، وتسلم البلاد، واطرد عنا هؤلاء المسلمين الذين تركونا ببلدنا ذليلين بما نسمع لهم من التسبيح على منابر مساجدهم، فقال الملك: إني أعذرکم بما يفعله المسلمون بكم، لكن أريد أن أسمع كلام المسلمين الذين عندكم لئلا يكون كلامكم حيلة ومكيدة منكم، فقالوا: وكيف نواجهك بالحيل! اعلم بيقين أن المسلمين منك الآن خائفون فقال: احضرو لي أميرهم لأسمع كلامه واعلم خطابه ونظامه»، فبعث الأرمن في طلب أمير المسلمين، فركب قاربا وأتى إليه في زي الفقراء ثم قبل الأرض بين يدي الملك وأظهر المودة والمحبة. وقال: «إن والدك السلطان ريوك (هنري الثاني) -نيح الله روحه- كان في أيام دولته يهادي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، وهو الآخر يهاديه لما كان بينهما من المودة والصحبة، وكان من هدية الملك الناصر مراكب القمح»، فلما سمع ملك قبرص بمراكب القمح ابتسم وقال: «ما مراكب القمح، قال الأمير «هي التي أرسلها (السلطان) لما وقع الغلاء بجزيرة قبرص إعانة للملك ولأهل جزيرته»<sup>(١)</sup> فقال الملك: صدقت، أخبرني بذلك والدي، انها أتت له موسوقة بالقمح

---

(١) كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أصدر أوامره عندما وقع الغلاء بالشام أن يرسل إليها بعض المراكب محملة بالقمح لتباع بها، غير أن ريحا عاصفة هبت عليها فدفعتها إلى قبرص، فخشي ريانها ومن معه من البحارة أن يقعوا أسرى في يد صاحبها، فلما استدعى الريان لمقابلة الملك، قال: «أتيت من مصر من عند الناصر إلى مولانا الملك وانه يسلم عليك، وقد بلغه ان ببلدك الغلاء، فأرسل لك القمح ترتفق به إلى أن يمن الله تعالى على عباده بالرخاء»، فسر ملك قبرص بتلك الهدية التي كان



من عنده قبل أن اخلق»، ثم شاور ملك قبرص أمير المسلمين فيما يفعله بإياس، فقال الأمير: «إن هذا البلد كان فيما مضى لأبيك وجدك، وصار نصفه الآن لصاحب مصر، والنصف الآخر لملك أرمينية، وأنت أولى به منهما لأنك وارث آبائك، وأجدادك» فطمع ملك قبرص في إياس وأنزل جنده ومعداته بها، غير أن قواته ما لبثت أن أطلقت يدها في نهبها، وبينما هم في ذلك إذ قدم الأمير منكلي بغا نائب حلب على رأس القوات الإسلامية التي اندفعت على ملك قبرص وجنوده كالسيل ووضعت فيهم السيف، فلم ينج منهم إلا من ولى هاربا إلى المراكب، وكان ملك قبرص من الناجين، فعاد إلى بلاده وهو يجر أذيال الهزيمة.<sup>(١)</sup>

ثم لم يلبث أن قتل على أيدي جماعة من النبلاء سنة (١٣٦٩/٧٧١هـ)، غير أن ذلك لم يؤثر في تغيير السياسة العدائية التي انتهجها الصليبيون القبارصة وحلفاؤهم في حوض البحر المتوسط ضد المسلمين ودولة المماليك. فقد واصل الملك بطرس الثاني الذي تولى عرش قبرص شن الغارات على سواحل مصر وبلاد الشام، إذ أرسل حملة بحرية في السنة الأولى من حكمه (١٣٦٩/٧٧١هـ) تألفت من أربع سفن وأغارت على سواحل صيدا والبترون وانطرطوس واللاذقية، وبعد أن أوقعت الدمار بهذه الموانئ، أبحرت باتجاه الإسكندرية، وعندما وصلتها ورسّت في مياهاها أرسل قائدها إلى نائب الإسكندرية يسأله فيما إذا كان السلطان يرغب في الاتفاق أم لا، فأجابه بالنفي في الوقت الذي وجه فيه القوات الإسلامية لمحاربتهم، فقتلت منهم نحو المائة وغنمت منهم مركبا، فانسحب الصليبيون باتجاه ميناء رشيد، وعبثا حاولوا النزول إلى بر المدينة، بسبب الرياح العاتية، فارتدوا إلى الساحل الشامي حيث أغاروا على صيدا، إلا أن

---

في أشد الاحتياج إليها في ذلك الحين، وجهز للسلطان هدية عوضا عن القمح، ولما علم الناصر أن مراكب القمح عادت إلى ساحل دمياط وفيها هدية صاحب قبرص، دهش لذلك وبعث في طلب الريان، فلما مثل بين يديه حدث السلطان بما وقع له، فأعجب السلطان بحيلته التي احتال بها حتى انقذ نفسه، وبحارته من الأسر ونجّى مراكبه من المصادرة»، سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٥٦.

(١) سرور، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٥٧، المقرئزي، السلوك، ج ٣، ص ١٥٠، Atiya, op. cit, P

القوات الإسلامية المرابطة فيها كانت لهم بالمرصاد، مما جعلهم يعودون أدراجهم خائبين في مسعاهم<sup>(١)</sup>.

وإزاء استمرار تلك الهجمات من قبل مملكة قبرص وحلفائها في حوض البحر المتوسط، فضلاً عما أصاب الدولة المملوكية من فقر في إيراداتها بسبب تعطيل تجارتها مع الأوروبيين ولما حل بها من وباء ومجاعة، رأى السلطان أن من المصلحة عقد صلح مع ملك قبرص هنري الثاني، فتم عقد هذا الصلح سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م، وبموجبه تم إطلاق سراح من بقي من أسرى المسلمين لدى الصليبيين، كما تم فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس<sup>(٢)</sup>.

على أن الصليبيين في حوض المتوسط عادوا بعد فترة وجيزة إلى شن الهجمات على سواحل مصر وبلاد الشام مرة أخرى. وقد ساعد على ذلك احتكار البنادقة لمعظم النشاط التجاري في حوض المتوسط على حساب الجنوية الذين رفضوا بدورهم ذلك الواقع، وتعبيراً عن رفضهم أخذوا يغيرون على سواحل مصر والشام، واشترك معهم في هذه الغارات بعض القراصنة من الكتلان والروادسة والقبارصة، ففي سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م أغار الجنوية على ساحل طرابلس إلا أن نائبها الأمير يلبغا الناصري تصدى لهم على رأس قواته وقتل عدداً منهم، ففروا منهزمين<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م أغار الجنوية على صيدا ونجحوا في احتلالها وعاثوا فيها فساداً، ثم توجهوا إلى بيروت، غير أن الأمير بيدمر نائب دمشق كان قد نزلها بقواته قبل وصولهم إليها، فتراجع الجنوية ثم ارتدوا إلى قبرص، وفي طريق عودتهم قصدوا الإسكندرية وهناك استولوا على سفينة إسلامية موسوقة بالبضائع، كانت مستعدة للسفر إلى طرابلس الغرب.

وبعد عدة أيام عاد الجنوية وأغاروا على بيروت، وكان في مينائها سفينتان للبنادقة، فاستولوا عليهما وشحنوهما بالرجال وجعلوهما في مقدمة سفنهم وأخذوا

---

(١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ١٧٣-١٧٦، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٥٠-٣٥٢، سرور،

دولة بني قلاوون، ص ٢٥٥-٢٥٧. Atiya, op. cit, P 375.

(٢) المقرئزي السلوك، ج٣، ص ١٩١. Atiya, op. cit, P 375.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٣، ص ٣٣٥، محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون، ص ٢٥٩، عبدالعزيز

سالم، طرابلس الشام، ص ٣٤٩؛ حكيم امين، قيام دولة الماليك الثانية، ص ١٤٩.



يطلقون الجروح (السهام الكبيرة) والحجارة من منجنيقاتهم المنصوبة على السفن على أحد أبراج بيروت مما اضطر المسلمين إلى التراجع والتحصن بالأسوار، فاعطى ذلك فرصة التقدم للجنويين والنزول إلى البر، وما لبثوا أن سيطروا على المنطقة ورفعوا عليها (علما) غير أن القوات الإسلامية بقيادة الأمير سيف الدين يحيى من آل حتر (والد المؤرخ صالح بن يحيى) تمكنت من قهرهم واسقاط علمهم، فانهزم الجنوية وقتل منهم عدد كبير<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م توجهت حملة جنوية للإغارة على السواحل المصرية، فتصدت لها السفن المملوكية واشتبكت مع سفينة انفردت باتجاه ساحل دمياط، فقتل من الجنوية عشرة اشخاص وأسر ما يزيد على الثلاثين منهم، عرضوا على السلطان، فبذل ثلاثة منهم ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسره<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من الهجمات الجنوية هذه إلا أن بعض تجارهم حصل على ارتباطات تجارية وقنصلية مع الدولة المملوكية، ومن خلال هذه الارتباطات وحرصا عليها عمل بعضهم على مصالحه السلطان برقوق، والتقرب إليه بالهدايا، ولما كان السلطان حريصا على مصالحه التجارية في حوض المتوسط، فلم يتأخر في قبول هداياهم<sup>(٣)</sup>.

على أن هذا التقرب من بعضهم لم يكن ليغير في السياسة العدائية التي انتهجتها جنوا ضد الدولة المملوكية، فما لبثت أن عادت إلى أعمال القرصنة من جديد، ففي سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م شن الجنوية هجوما على طرابلس، غير أن القوات الإسلامية المرابطة فيها والتي خبرت خططهم واساليبهم القتالية تمكنت من هزيمتهم وقتلت منهم الكثير، كما غنمت منهم ثلاثة مراكب<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م اعتدت طائفة من الجنوية على جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة في المياه الشامية في مراكب مشحونة بالجراكسة جلبوا من بلادهم. وكان من بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان وبعض أقاربه، وقد أسروا جميعهم

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٠-٣١.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر بابناء العمر، ج ١، ١٨٧، حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥٠.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٤٦٣، حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥٠.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٥٦٢.

من قبل الجنوية فأمر السلطان بالقبض على من بالإسكندرية من الجنوية وختم حواصلهم، الأمر الذي أجبر الجنوية على إطلاق من أسروهم، فأفرج السلطان عن الجنوية وفك الختم عن حواصلهم.<sup>(١)</sup>

وفي سنة ٧٩٥هـ/١٣٦٧م شن الجنوية هجوما على ناحية نشراوة (غربي بحيرة البرلس على الساحل الرملي الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس في مصر) في أربع سفن فسبوا ونهبوا، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ثم انسحبوا.<sup>(٢)</sup>

وفي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م شنوا هجوما على ساحل طرابلس واستولوا على سفينتين موسوقتين بالبضائع، كانتا تنهيان للإقلاع إلى مصر. ثم حاولوا التوغل في إحدى القرى الداخلية، إلا أن الأهالي في تلك المنطقة تمكنوا من التصدي لهم وأسر عدد منهم.<sup>(٣)</sup>

وفي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م تحالف الجنوية والروادسة والقبارصة في الهجوم على سواحل مصر والشام، فقد تحرك أسطول جنوي مؤلف من ثماني عشرة سفينة إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها، وفي محاولة للتضليل على السلطان فرج، أعلن قائد الأسطول الجنوي أن غرضه شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا، غير أن غرضه كان ضرب الإسكندرية، فعقد صلحا مع حنا لوزجنان ملك قبرص ثم أخذ يستعد لشن هجومه، إلا أن محاولته هذه لم تنطل على السلطان، فقد عرف بمهمة الأسطول الجنوي منذ أن وصل إلى رودس، وأخذ أهبطه لصد الهجوم. فيما استمر قائد الأسطول الجنوي في سياسته، إذ اعتقد بأن الأمر لم يكن مكشوفاً للسلطان، فأرسل سفيرين إلى الإسكندرية، أعلنوا أنهما جاءا لعقد الصلح، وعندما طالت المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة، ولما لم يتمكن الأسطول الجنوي من تحقيق غرضه نظرا للاستعدادات التي أبداه السلطان، فقد أبحر الجنوية إلى سواحل آسيا الصغرى وهاجموا مدينة العلايا، ثم عادوا إلى قبرص، ليوهمو السلطان بأنهم ابتعدوا عن السواحل المصرية، فيقوم بإنهاء استعداداته، وبهذه الفرضية أرسلوا عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية من جديد، غير أن هذه السفن فوجئت باستمرار استعدادات السلطان في

(١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ص ١، ص ٢٣، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ص ٧٨٧.

(٣) سعيد عاشور، العصر المالكي، ص ٢٦٩، حكيم امين، قيام دولة الماليك الثانية، ص ١٥١.



المدينة ومياهاها، فعادت ادراجها إلى قبرص دون أن تتمكن من احتلال المدينة، ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى ما نشب من قتال في شوارع المدينة مع تجار الفرنج، وكذلك فشلها في إعادة تجارتها بصفة رسمية مع دولة المماليك<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد استمرت جنوا في شن هجماتها على السواحل المملوكية، فقد هاجمت طرابلس بأسطول مؤلف من أربعين مركبا، وقد نزل أفرادها إلى بر المدينة «فأقاموا عليها ثلاثة أيام، فبلغ ذلك نائب الشام، فنهض اليهم مسرعا، فانهزموا وأوقع بهم»<sup>(٢)</sup> وتوجه الأسطول بعد ذلك إلى بيروت، ولما لم يكن فيها ما يكفي من قوات عسكرية للدفاع عنها، فقد غادرها أهلها عند اقتراب الجنوية، مما سهل على قوات الأسطول اقتحام المدينة، فقد نزلت هذه القوات أولاً في مكان يسمى الصنيطية، ثم ملكوا البلد ونهبوها، وقال صالح بن يحيى: «واحرقوا الدار التي لنا على البحر والسوق القريب من الميناء»<sup>(٣)</sup>.

واستمر الجنوية مقيمين في المدينة ذلك اليوم إلى أن قدم أمير المدينة دمرداش بن معه من الجند والمطوعة، فواقعهم «وقُتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير»، وعندما وصل نائب الشام بعساكره، كان الجنوية قد غادروا المدينة وتوجهوا إلى صيدا «فأمر النائب بإحراق قتلى الفرنج ثم توجه إلى صيدا ومعه العساكر فوصل إليها»، وكان الجنوية قد نزلوا إلى برها، «فوجدهم في القتال مع أهل صيدا، ولم يتقدمه أحد بل كان معه عشرة أنفس لا غير، فحمل على الفرنج فكسرهم وفروا إلى مراكزهم»<sup>(٤)</sup>. وبيدوا أن فشل جنوا الأخير جعلها تفكر جددا في السعي لعقد صلح مع السلطان فرج، وبعد سلسلة من المفاوضات تم عقد الصلح سنة ٨١٠هـ / ١٤٠٧م، وتعهدت فيه جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضا عما أحدثته من خسائر في السواحل الإسلامية، كما نص الصلح على أنه إذا تكررت اعتداءاتهم، فإن الجنوية المقيمين في مصر سيقبض عليهم جميعا<sup>(٥)</sup>.

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٣، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥١-١٥٢ أحمد

دراج، المماليك والفرنج، ص ٢٢، عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص ٣٥٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٥، ص ١٣٣. (٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٣

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٥، ص ١٣٣.

(٥) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥٣.

وحذت البندقية حذو جنوا فأسرعت بعقد صلح مع السلطان فرج سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م وقد شرط عليها السلطان شروطا قاسية، وأخذ منها الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثها<sup>(١)</sup>.

أما مملكة قبرص التي ظلت على عدائها للمماليك واستمرت تشن هجماتها على سواحل مصر وبلاد الشام، فقد قررت الدولة المملوكية اتخاذ موقف حازم تجاهها، ولن يكون ذلك بأقل من غزوها في عقر دارها، وهكذا كان.

---

(١) حكيم امين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٥٣ .



## الفصل الثاني

### غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المماليك

استمرت اعتداءات الصليبيين المنطلقة من جزيرة قبرص على سواحل الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام، ففي سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م هاجمت أربع سفن صليبية وعلى متنها سبعمائة من الفرنج ميناء يافا، «فأسروا جماعة من المسلمين، واخذوا مركبا فيه خام للسلطان قدم من مصر»<sup>(١)</sup> وفي سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م هاجمت سفينتان صليبيتان ميناء الإسكندرية واحرقتا مركبا إسلاميا كان موسوقا بالبضائع<sup>(٢)</sup> وأزاء هذه الاعتداءات وما سبقها، أمر السلطان الأشرف برسباي بإغلاق كنيسة القيامة في مدينة بيت المقدس لعل ذلك يجعلهم يكفون عن اعتداءاتهم. كما حدث في أعقاب هجومهم على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م<sup>(٣)</sup> غير أن الصليبيين استمروا في انتهاج سياستهم العدائية ضد الدولة المملوكية، فهاجموا في سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م ميناء دمياط واستولوا على مركبين من مراكب المسلمين بما فيهما من بضائع، وأسروا ما يزيد على مائة رجل،<sup>(٤)</sup> وزاد من صلف «جانوس» ملك قبرص أنه قد استولى على سفينة محملة بالهدايا كان السلطان برسباي قد أرسلها إلى السلطان العثماني «مراد»،<sup>(٥)</sup> فشارت ثائرة السلطان برسباي وأمر «بايقاع الحوطة على أموال التجار (الأوروبيين) التي ببلاد الشام والإسكندرية ودمياط والختم عليها، وتعويقهم عن السفر إلى بلادهم»<sup>(٦)</sup>.

وأتبع السلطان تلك الخطوة بخطوة على درجة عظيمة من الأهمية وبعد النظر

---

(١) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ١٤٣.

(٢) م.ن، ج٤، ص ٦١٧.

(٣) م.ن، ج٤، ص ٦١٩.

(٤) م.ن، ج٤، ص ٦٦٥.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ٦٦٥-٦٦٦.

وهي غزو جزيرة قبرص لجعلها دار سلام بدلاً من أن تستمر للهمجية والاعتداء على سواحل بلاد المسلمين، والواقع أن التفكير في غزو قبرص بدأ جدياً في أعقاب هجوم بطرس لوزجنان على الإسكندرية -الوقعة الأولى- إذ أمر يلبغا الخاصكي الذي كان وصياً على السلطان الأشرف شعبان، ببناء المراكب والسفن، كما أرسل إلى بلاد الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف أن يمسك منشارا في قطع الأخشاب وبناء السفن «برسم غزو قبرص»<sup>(١)</sup>.

غير أن الظروف في ذلك الحين لم تكن مواتية لتحقيق هذا الهدف، إلى أن تهيأت الفرصة في عهد السلطان برسباي، فوجه إليها ثلاث حملات متتالية، وهذه الحملات في حقيقة أمرها تمثل مرحلة جديدة في تطور البحرية المملوكية، كما أنها توضح لنا مراحل التخطيط الحربي البحري في عصر السلاطين المماليك<sup>(٢)</sup>، إذ انتقلت الدولة في سياستها الحربية والبحرية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وليس الهجوم الخاطف المبني على الردع فقط، بل الهجوم الذي يؤدي إلى هيمنة الدولة على حوض البحر المتوسط بأكمله من الناحيتين الحربية والاقتصادية.

#### الحملة الأولى: سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م:

وجه السلطان الأشرف برسباي حملته الأولى لغزو جزيرة قبرص، كي تكون حملة استطلاعية يقف من خلالها على «من يتجرم في البحر من الفرنج»<sup>(٣)</sup> لذلك لم يكن عدد السفن والرجال الذين اشتركوا فيها كبيراً، فقد تحركت أولاً ثلاث سفن من ميناء دمياط، واتجهت إلى بيروت حيث انضمت إليها سفينة رابعة، ثم ابهرت جميعها صوب طرابلس، وهناك انضمت إليها سفينة خامسة، وبلغ عدد المجاهدين الذين اشتركوا فيها ستمائة مجاهد، وبصحبته ثلثمائة فرس<sup>(٤)</sup>. وبعد أن تكاملت تجهيزات الحملة أبهرت من ميناء طرابلس في أواخر رمضان ٨٢٧هـ / أواخر آب ١٤٢٤م. واتجهت صوب قبرص، وفي أثناء إبحارها هبت عليها ريح عاصفة فرققتها وردتها إلى السواحل الشامية، إلا

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٨، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٢١

(٢) إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٥٨.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٤، ص ٦٦٨، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٨٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٤٨.



أن الحملة ما لبثت أن تجمعت من جديد وأبحرت في أوائل شوال/ أيلول من السنة ذاتها<sup>(١)</sup>. ووصلت إلى رأس ألباق من الجزيرة، وكان به مركب تجاري للصليبيين محمل بالبضائع، فلما رأى بحارته السفن الإسلامية هربوا منه، فاستولى المجاهدون على ما به من البضائع ثم أحرقوه، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء ليماسول، وهناك فاجأ المجاهدون ثلاث سفن كانت مجهزة للاغارة على السواحل الإسلامية، فاستولوا على ما فيها ثم أحرقوها<sup>(٢)</sup> وفاجأوا ثلاث سفن أخرى فأغرقوها<sup>(٣)</sup>.

وقد حاول قائد القوات الصليبية في المدينة صد الهجوم الإسلامي في سبعين فارساً وثلاثمائة راجل، غير أن القوات الإسلامية احتوت هجومه وأردته قتيلاً مع عدد كبير من أفراد قواته في أرض المعركة<sup>(٤)</sup>. وبذلك أصبحت ليماسول مشرعة الأبواب أمام المجاهدين فدخلوها وسيطروا عليها، فقال أحد الشعراء في ذلك:

دخلنا ديار الكافرين وأرضهم	فولوا فرارا من أليم نصالنا
وصلنا عليهم صولة الأسد في الفلا	فولت خيول الكل خوف رجالنا
ضربنا ديارهم ومات أميرهم	وسوف ترى سلطانهم ما نوى لنا

ثم حاصر المجاهدون حصن ليماسول، ولما وجدوه «منيعاً تطول محاصرته»، اكتفوا بما حققوه وعادوا بسفنهم إلى ميناء دمياط وهم يحملون الغنائم والأسرى<sup>(٥)</sup>، «وكان عدد الأسرى ألفاً وستمائة نفس»<sup>(٦)</sup>.

وفي أعقاب هذه الحملة اتخذ السلطان الأشرف برسباي موقفاً دبلوماسياً فطنا إلا وهو فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس كي يخفف من حدة عداة الصليبيين، وليحول دون اجتماع كلمتهم بسبب الحملة وما أحدثته من تدمير، وتحسباً من أي هجوم صليبي

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨.

(٣) المقرئ، السلوك، ج٤، ص ٦٧٢.

(٤) المقرئ، السلوك، ج٤، ص ٦٧٢.

(٥) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٨.

(٦) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ٤٨.

قام بتحسين سواحل مصر والشام<sup>(١)</sup>.

أما ردة فعل الملك جانوس ملك قبرص، فقد أرسل سفينتين مشحونتين بالرجال والعدة إلى سواحل مصر والشام «ليأخذوا من وجدوه من المسلمين»<sup>(٢)</sup> وشنوا هجوماً على صور وجبلة وطرابلس، غير أن القوات الإسلامية المراقبة فيها تمكنت من صدّهم<sup>(٣)</sup>. «فصاروا كلما وصلوا إلى ساحل وجدوا عليه حرسية، فجاءوا إلى مكان يقال (له) نهر الكلب ليأخذوا منه ماء، فأطلقوا مدفعاً لينظروا أن كان به أحد، فأكمن المسلمون إلى أن طلعت الفرنج البر، ودقوا عليهم فمسكوا منهم جماعة واحضروهم إلى السلطان بعد أن هربت الأغربة (السفن) ومن بها مجرحين»<sup>(٤)</sup>.

#### الحملة الثانية: سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م:

كانت نتائج الحملة الأولى مشجعة للسلطان الأشرف برسباي لكي يبدأ بإعداد حملة جديدة، فقد دلت النتائج على ضعف مملكة قبرص وانحلال أمرها وعجزها عن المقاومة، على الرغم من المحاولة الفاشلة التي قام بها «جانوس» ملك قبرص في الاعتداء على السواحل الإسلامية، كما دلت على انفراط عقد التحالف الصليبي في الغرب الأوروبي وحوض المتوسط، لذلك ما أن عادت الحملة الأولى منتصرة حتى أمر السلطان ببناء سفن جديدة لتشكيل حملة ثانية، فتم بناء عدة سفن في موانئ الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس<sup>(٥)</sup>.

وعندما علم «جانوس» ملك قبرص بهذا الاستعداد، حرك حملة بحرية مؤلفة من تسع سفن ومشحونة بالرجال والعدة إلى دمياط لمحاصرتها ومنع السفن الإسلامية من الانطلاق منها، غير أن السفن التي كان قد تم بناؤها في الإسكندرية تحركت في ذلك الوقت باتجاه دمياط، الأمر الذي جعل السفن القبرصية تنسحب بغير قتال<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ٦٧٢، ٦٨٣، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ٦٨٣-٦٨٦.

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩.

(٥) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٦) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٨، ص ٧١-٧٢.



اما الحملة الإسلامية فبعد أن اكتملت تجهيزاتها أبحرت من ميناء دمياط في  
أواخر رجب سنة ٨٢٨هـ / أوائل تموز ١٤٢٥م واتجهت أولاً إلى بيروت حيث انضمت  
إليها السفن التي تم بناؤها هناك ثم اتجهت إلى طرابلس وهناك تكاملت أعداد السفن  
التي تشكلت منها، وبلغت عدتها ثلاثاً وأربعين سفينة متنوعة الأحجام والأغراض<sup>(١)</sup>.  
واقلعت الحملة من ميناء طرابلس في ١٤ رمضان / ١٩ تموز بقيادة الأمير جرياش  
الكرمي قاشوق حاجب الحجاب يعاونه عدد من الأمراء، على كل سفينة أمير<sup>(٢)</sup>، وكان  
مقدماً على إحدى هذه السفن المؤرخ المعاصر الأمير صالح بن يحيى، إذ ذكر ذلك بقوله:  
«فتوجهت معهم مقدماً على الغراب العتيق وهو غراب عمل ببيروت متقدماً على هذه  
الأيام الذي (توجه الشاميون) فيه إلى قبرص... وكان معي قريب من مائة رجل بحرية  
ومقاتلة، وكان الغراب المذكور أحسن الأغربة مشياً»<sup>(٣)</sup>.

وخاطب أحد الشعراء المجاهدين غداة انطلاقهم بقوله لهم:

سيروا على اسم الله ذي الجلال      ثم ابتغوا طريقة الحلال  
واجتنبوا جلال كل سوء      فانها قبيحة الخلال<sup>(٤)</sup>

وكان الأمير جرياش في أثناء اعداده للحملة وهو في بيروت، قد أرسل بأمر من  
السلطان برسباي رسولاً إلى الملك «جانوس» يطلب منه الدخول في طاعة السلطان منعا  
للقتال، إلا أنه أخذته العزة بالاثم، فأبى ذلك<sup>(٥)</sup>.

وابحرت الحملة صوب ميناء قرياص على الشاطئ الشمالي الشرقي للجزيرة، ثم  
تحركت باتجاه الماغوصة (فاما جوستا) فوصلتها في يوم الأحد العشرين من رمضان،  
وعلى الفور نزل المجاهدون من مشاة وخيالة إلى البر وضربوا خيامهم هناك<sup>(٦)</sup>. ولما

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك،

ص ١٣٩-١٤٠، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية ص ١٢١.

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٠.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٤.

(٤) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٥) ابن حجر العسقلاني، انباء الفجر، ج ٨، ص ٧٢.

(٦) م.ن، ج ٨، ص ٧٢.

رأى حاكم المدينة ضخامة القوات الإسلامية، أرسل إلى الأمير جرياش رسولاً يطلب الأمان ويعلن أنه داخل في الطاعة ويقول: «أنا مملوك السلطان، والمدينة مدينته، والرعية رعيته» فأعطاه الأمير أماناً وأرسل إليه راية سلطانية رفعها على القلعة في المدينة<sup>(١)</sup>.

ومكث المجاهدون في المدينة أربعة أيام شنوا خلالها غارات عديدة على الضياع المجاورة وأوسعوها تخريباً وتحريقاً، «واوقع الله الرعب في قلوب الذين كفروا حتى كان الثلاثة من المسلمين يدخلون الضيعة وفيها ما بين المائة والخمسين فلا يمتنع عليهم أحد»<sup>(٢)</sup>.

ثم أقلعت الحملة بعد ذلك باتجاه الملاحه (لارنكا)، وقد وضع قادة الحملة مخططاً حربياً لمسح المنطقة والإطباق على الصليبيين فيها براً وبحراً، فعندما وصلت الحملة إلى مكان يسمى رأس العجوز أنزلت هناك ليلاً سرية في نحو أربعمئة مجاهد إلى البر، هاجمت الصليبيين في المنطقة، فقتلت وأسرت وأحرقت، وكانت في سيرها تحاذي سفن الحملة التي استمرت تبحر باتجاه الملاحه<sup>(٣)</sup> إلى أن ظهر أسطول قبرصي مؤلف من ثلاث عشرة سفينة وأخذ يقترب من السفن الإسلامية، فأسرعت السرية بالعودة إلى السفن لمواجهة الأسطول القبرصي<sup>(٤)</sup>.

وكان الملك جانوس قد وضع خطة حربية أراد من خلالها احتواء الحملة الإسلامية عن طريق تشتيتها بين البر والبحر، ففي الوقت الذي أرسل فيه أسطولاً لاستدراج السفن الإسلامية إلى عرض البحر لإبعادها عن القوات البرية، قام بإرسال أخيه الأمير هنري على رأس جيش عدته سبعمائة فارس وثمانية آلاف راجل لقتال المسلمين براً وبحراً، واصطحب معه «خمس عجلات تجرها البقر عليها مدافع وسلاح احضروها ليقاتلوا بها مراكب المسلمين»<sup>(٥)</sup>.

أما السفن الإسلامية فقد لاحقت الأسطول القبرصي إلى عرض البحر، ولمّا لم

(١) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٧٢.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ص ٦٩٥، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٥ - ٢٤٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ص ٦٩٥، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٥.

(٥) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.



تستطع اللحاق به بسبب عجزها عن مجاراته في سرعته، عادت تبهر بمحاذاة الساحل، وأنزل قادة الحملة سرية إلى البر لتعاود مسح المنطقة من جديد، وذلك قبل اكتشاف أمر القوات العسكرية التي كان يقودها الأمير هنري، وكان هذا الأمير قد انطلق على رأس فرسانه وألف من مشاته إلى جهة البحر، أما بقية قواته فقد جعلها تختفي في المناطق القريبة، وشرع في مهاجمة السرية الإسلامية التي انزلت على الساحل، وكاد أن يحيط بها لولا سرعة نزول ما يقارب من ألف مقاتل من السفن الإسلامية إلى البر بواسطة قوارب صغيرة وشخاتير، وقد نزلوا مشاة لصعوبة إنزال الخيل في تلك اللحظات العصيبة، واستطاع مشاة المسلمين التغلب على فرسان ومشاة الأمير هنري وهزيمتهم «وقتلوا منهم خلق وقطعوا رؤوسهم، وجعلوها على أسنة الرماح». وكانت السفن الإسلامية تخوض في الوقت ذاته معركة بحرية مع الأسطول القبرصي، وجرى تبادل إطلاق المدافع بين الطرفين، وأمام شدة نيران المدافع الإسلامية، انسحب الأسطول القبرصي ووقعت إحدى سفنه في أيدي المسلمين<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تجمعت القوات الإسلامية على السفن، أبحر الأمير جرباش باتجاه الملاح، وعندما وصلها أنزل قواته بالخيول إلى البر، وضرب خيامه هناك، ثم وجه بعض قطاعات الجيش لشن الغارات على الضياع المجاورة، فأخذ المسلمون «يقتلون ويأسرون ويحرقون القرى، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم»<sup>(٢)</sup> وتمكن المسلمون من قتل أحد خواص الملك جانوس ويدعى الأمير عين غزال<sup>(٣)</sup>.

ثم أبحرت الحملة إلى أن وصلت إلى ليماسول في آخر رمضان ٨٢٨هـ / أوائل آب ١٤٢٥م، وفي صبيحة يوم عيد الفطر هاجم المسلمون حصن المدينة واقتحموه عنوة بالسيف، «ونهبوا وأسروا من كان فيه بعدما قتلوا منه جماعة»<sup>(٤)</sup>، وكان هذا الحصن

---

(١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك،

ص ١٤١، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٧٣.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٤، ص ٦٩٥.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٧٣.

(٤) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٧.

من أعظم حصون جزيرة قبرص مناعة وحصانة<sup>(١)</sup>، وبالسيطرة على هذا الحصن ملك المسلمون المدينة ورفعوا عليها الراية السلطانية<sup>(٢)</sup>.

وأراد الأمير جرياش الإبحار إلى بلدة الباف (بافوس) لمهاجمتها، إلا أن الرياح لم تساعد على ذلك، فرأى أنه من الأنسب العودة إلى مصر، وبخاصة بعد أن وصلت الأخبار عن إرسال البندقية لمجدة قوية إلى قبرص، وعن جمع الملك جانوس لقواته واستعداده لشن الهجوم على القوات الإسلامية، فأقلع بالحملة عائداً إلى مصر مزهواً بالنصر، ودخل القاهرة بالقوات الإسلامية الظافرة في ٢ ذي القعدة ٨٢٨هـ / ١٥ تشرين أول ١٤٢٥م، وقام السلطان برسبائي باستعراض الغنائم والأسرى، وأنعم على أفراد الحملة انعامات كثيرة<sup>(٣)</sup>:

وكان عدد من قتل من الصليبيين في هذه الحملة نحو خمسة آلاف. في حين استشهد من المسلمين ثلاثة عشر مقاتلاً<sup>(٤)</sup>، وعلى الرغم من المبالغة في عدد الصليبيين والقلة في عدد المسلمين الذين قتلوا في هذه الواقعة إلا أن الأمر يدل على أن المسلمين قد نجحوا في مباغته الصليبيين وإحداث خسائر كبيرة بين صفوفهم.

أما عدد الأسرى الذين جلبوا من قبرص فكانوا في نحو ألف وستين أسيراً وأما الغنائم، فكانت من الكثرة بحيث حملت إلى قلعة القاهرة على «مائة وسبعين حمالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال، ما بين خرج وصناديق وحديد والآت حربية وأواني»<sup>(٥)</sup>.

وأصدر السلطان برسبائي أمره ببيع الأسرى على أن يراعى عند البيع عدم التفرقة بين الأولاد وآبائهم، ولا بين القريب وقريبه، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم من أمراء وتجار وعوام على شرائهم<sup>(٦)</sup> أما الغنائم فقد أمر السلطان بتقويم

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٩٣

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٩.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ٦٩٥، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٧.

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ٧٣.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٤، ص ٧٩٦.

(٦) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٩٣، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ١٠٢



اصنافها<sup>(١)</sup>.

### الحملة الثالثة : ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م :

على الرغم من النتائج التي حققتها الحملة الثانية، إلا أنها لم تكن بالمستوى الكبير الذي كان السلطان الأشرف برسباي يتطلع إلى تحقيقه، فلم يكن الهدف مجرد السلب والنهب والتحريق والعودة بأسرى وغنائم، بل كان الهدف الأساسي هو الإستيلاء على الجزيرة واخضاعها لنفوذ وسيادة الدولة المملوكية، لذلك لم يلبث السلطان برسباي أن شرع في التجهيز لإرسال حملة ثالثة إلى قبرص، وزاد من عزيمته في الإسراع بإعدادها ما بلغه من أخبار عن استعداد ملك قبرص واستنجاهه بملوك أوروبا للهجوم على ثغور الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وغيرها<sup>(٢)</sup>، هذا فضلاً عن تحريض الجنوية للسلطان ضد جانوس ملك قبرص بسبب عدائهم له، وكذلك استنجاه أمير العلایا به للوقوف في وجه أطماع آل لوزجنان في إمارته<sup>(٣)</sup>.

وقد تم إعداد السفن في موانيء مصر والشام، وكان تجميعها في ميناء الإسكندرية وبلغت عدتها ما يقرب من مائة وثمانين سفينة<sup>(٤)</sup>، وجاء اندفاع الناس للمشاركة في هذه الحملة بأعداد غفيرة جداً لدرجة أن السلطان الأشرف برسباي اعتذر للكثيرين منهم بعدم اتساع السفن لحملهم<sup>(٥)</sup>، ولما انتهى إعداد الحملة استعرض السلطان الأشرف برسباي العساكر والمجاهدين بحوش القلعة في القاهرة ليقف على مدى استعدادهم وتسليحهم وليوزع عليهم نفقة السفر، وكان ممن شارك في هذه الحملة عدد من الأعيان والفقهاء<sup>(٦)</sup>.

ونذب السلطان الأميرين اينال الجكمي، وتغري بردى المحمودي، ليكونا قائدين للحملة، وجعل أمرة قوات البحر للأمير اينال الجكمي، بينما جعل أمرة قوات البر للأمير تغري بردى المحمودي، ووزع الصلاحيات بينهما بحيث لا يعارض أحدهما

(١) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ٦٩٦ .

(٢) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢ .

(٣) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ١٠٤ .

(٤) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٥٠ .

(٥) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ٧٢٠، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٦٠٢ .

للأمير تغري بردى المحمودي، ووزع الصلاحيات بينهما بحيث لا يعارض أحدهما الآخر<sup>(١)</sup>.

وأبحرت الحملة من ميناء الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٨٢٩هـ / أوائل تموز ١٤٢٦م، وفي ذلك الحين كانت عدة سفن صليبية أرسلها ملك قبرص تقترب من السواحل المصرية بين رشيد والإسكندرية، وقد صادف خروج قوة من المجاهدين في عدة سفن من ميناء رشيد باتجاه الإسكندرية، فلما شاهد المجاهدون السفن الصليبية أرسلوا بطلب النجدة من مدينة رشيد، ثم دخلوا في قتال مع الصليبيين إلى أن قدمت النجدة من رشيد، فولى الصليبيون الأدبار<sup>(٢)</sup>.

أما الحملة الإسلامية فقد وصلت إلى ميناء رشيد أولاً ثم أبحرت باتجاه قبرص، فوصلتها في ٢٧ شعبان / أوائل تموز، ورست عند «ليفادن» على شاطئ «افذية» على بعد بضعة أميال من ليماسول<sup>(٣)</sup>، وعلى الفور قامت القوات البرية بالنزول إلى البر وتمركزت على أرض الجزيرة، بينما أقامت القوات البحرية في المراكب وهي في أهبة الاستعداد، ثم تقدمت قوة على رأسها الأمير يشبك قرقرش إلى حصن ليماسول الذي كان القبارصة قد أعادوا عمارته وشحنه بالمقاتلين، وحفروا حوله خندقاً عميقاً<sup>(٤)</sup>، واستطاعت القوة الإسلامية الصعود إلى الحصن على سلم من خشب نصبت عليه «فهرب الفرنج الذين في الحصن بعد أن كانوا أوقدوا قدور الزفت تغلي ناراً ليصبوها على من يصعد إليهم من المسلمين، فهزمهم الله تعالى وملكوا البرج الأول» وبعد هذا الفتح توجهت قوة إسلامية أخرى إلى قرية قريبة من ليماسول تدعى «اسكتية»، وكانت تحت حكم البنادقة وخارجة عن حكم جانوس ملك قبرص، فطلب أهلها الأمان من المسلمين فأمنوهم، وقد أخبروا قادة القوة الإسلامية عن الحشد الذي كان يعده الملك جانوس، إذ كان مستعداً «في خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل»، وفي محاولة من قادة الحملة الإسلامية لحسم الموقف سلمياً، فقد أنفذوا رسولاً إلى الملك جانوس يعرضون عليه «بأن يدخل تحت الطاعة ليؤمنوه على نفسه وجنده وبلده وإلا مشوا عليه وخرّبوا

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ٩٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ٩٨.

(٣) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣٣٤.

(٤) الصيرفي، نزعة النفوس والاهدان، ج٣، ص ٨٧.



قصره وأسروه وقتلوه»،<sup>(١)</sup> إلا أن الملك جانوس رفض ذلك وإمعانا في صلفه قام بقتل الرسول وإحراقه<sup>(٢)</sup>، وشرع من فوره بحشد المزيد من قواته حتى بلغت عدتها ثلاثة وعشرين ألف فارس، فضلاً عن الراجلة، كما جهز أربع عشرة سفينة، «حتى إذا ظهر عسكر الإسلام للقاءه يحطمونه على المراكب ويأخذونها، وقطع وجزم أنه هو الغالب»<sup>(٣)</sup>. فلما بلغت أخباره قادة الحملة الإسلامية انقسموا في زحفهم إليه إلى قسمين قسم بري بقيادة الأمير تغري بردي الحمودي، وقسم بحري بقيادة الأمير اينال الحكمي -كما خطط السلطان الأشرف برسبائي-<sup>(٤)</sup>.

وفي أثناء زحف الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية، ظهر له الملك جانوس على رأس قواته عند «خيروكيتا» فيما بين ليماسول والملاحه، وهناك دارت بين الطرفين معركة شديدة في يوم الأحد مستهل شهر رمضان/٧ تموز. وقت الظهر، وانجلت بانتصار المسلمين وانهزام القبارصة، «وقيل إن جملة من قتل منهم في ذلك اليوم ستة آلاف»<sup>(٥)</sup> ووقع الملك جانوس أسيراً مع أعداد كبيرة من أفراد قواته في أيدي المسلمين، بينما قتل أخوه في أتون المعركة.<sup>(٦)</sup>

وبعد مسح المنطقة عسكرياً «توجه الأمير يشبك الشاد ومن معه إلى جبل الصليب فخرّب به وما حوله من الديارات واحضروا الصليب الذي كان به، وكانوا يعظمونه حتى سموه صليب الصلبان».

ثم توجه الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية إلى العاصمة «الأفقسية» (نيقوسيا)، فيما استمر الأمير اينال الحكمي على رأس السفن بالملاحه لحفظ جانب

---

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) م.ن، ج ٨، ص ١٠٠، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢.

(٣) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢.

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ١٠٠.

(٥) م.ن، ج٨، ص ١٠١، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٣.

(٦) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ١٠١، ١٠٢، سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية،

ص ١٠٨.

البحر، وبينما هو كذلك إذا بالأسطول القبرصي يقترب منه، فأرسل من فوره إلى الأمير تغري بردي يعلمه بالأمر «فأعاد عليه أكثر العسكر»، ودارت معركة بحرية بين السفن الإسلامية والأسطول القبرصي، واستمر القتال نهار وليل يوم الأربعاء ٤ رمضان ١٠ تموز، وثبتت القبارصة ثباتاً قوياً «وكان سبب ثباتهم في القتال أنهم لم يعلموا ما اتفق للملكهم من الأسر ولعسكره من الهزيمة»<sup>(١)</sup> أما القوات البحرية الإسلامية فقد أظهرت براعة حربية كبيرة لدرجة أن بعض المجاهدين كان يلقي بنفسه على مراكب القبارصة على الرغم من «تكاثر المدافع والسهام»<sup>(٢)</sup> وانفصلت المعركة بانتصار المسلمين وتم أسر إحدى السفن القبرصية بينما فرت باقي سفنهم إلى عرض البحر، بعد أن قتل من بحارتها ما يزيد على مائة وسبعين نفساً<sup>(٣)</sup>.

ويروي بعض المؤرخين أن سبب تراجع السفن القبرصية هو أن المسلمين اجبروا الملك جانوس المأسور لديهم على كتابة خطاب إلى قائد أسطوله يأمره فيه بالرجوع فرجع<sup>(٤)</sup>.

أما الأمير تغري بردي المحمودي فقد وصل على رأس قواته إلى العاصمة نيقوسيا «فلما أقبل إليها وصحبه فرقة من العسكر وإذا بأكابرها وأساقفتها وقسيسها ورهبانها معهم الإنجيل وهم داعون للمسلمين، وطلبوا الأمان، فأمنهم الأمير ثم فتحوا المدينة»<sup>(٥)</sup> فدخلها في يوم الجمعة، وأمر أن ينادى في أنحاء البلاد بالأمان وبأن الجزيرة «صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسبای»، ثم دخل تغري بردي القصر الملكي فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، وأذن المسلمون لصلاة الجمعة على صوامع

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الفمر، ج ٨، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، ج ٣، ص ٩٠١ ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٦٥ .

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، ج ٣، ص ٩١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٣ .

(٤) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ١١٣ .

(٥) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٣ .



الكنائس، ثم أقاموا بها الصلاة.<sup>(١)</sup>  
 واتفق أعيان نقيوسيا وتجارها على أن يجمعوا مالا للسلطان نظير الأمان الذي  
 منح لهم، فقدموا للأمير تغري بردي ما جمعه وتعهّدوا بدفع الباقي<sup>(٢)</sup>.  
 وغادر المسلمون نيقوسيا يوم السبت «ومعهم الغنائم الكثيرة والأسرى فكان  
 ثلاثة آلاف وسبعمائة نفس»<sup>(٣)</sup> وفي أثناء مقامهم أرسل أهل الماغوصة (فاما جوستا)  
 يطلبون الأمان، من قادة المسلمين، فأمنوهم<sup>(٤)</sup>.  
 وبعد أن أقام المسلمون في الملاحه مدة سبعة أيام «أراحوا فيها أهدانهم وأقاموا  
 شعائر الإسلام من الصلاة والأذان» تحركوا عائدين إلى مصر ومعهم الغنائم والأسرى  
 وعلى رأسهم الملك جانوس مكبلاً بالحديد.  
 ووصلت الحملة الإسلامية إلى ساحل بولاقي في مصر في ٧ شوال / منتصف آب.  
 وفي اليوم التالي سارت القوات الإسلامية بالأسرى والغنائم إلى القلعة في القاهرة في  
 موكب حافل «وقد اجتمع لرؤيتهم من الرجال والنساء خلائق لا يحصي عددها إلا الله  
 الذي خلقها»<sup>(٥)</sup>.  
 «وطلعت الغنائم على رؤوس ثلاثة آلاف حمّال وأحمال محزومة على جمال»<sup>(٦)</sup>  
 أما الملك جانوس فقد أركب «بغلاً أعوجاً» وسير في ذيل الأسرى مع خواصه وأعلامه  
 منكسة<sup>(٧)</sup>، «فلما وصلوا به إلى القلعة كشف رأسه وكب على وجهه حتى قبل الأرض  
 عند الباب» ثم أحضر بين يدي السلطان فقبل الأرض مراراً وسقط مغشياً عليه، فلما  
 أفاق ردّوه إلى مكان أعد له<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٣-١٤٤، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ١٠٣.

(٢) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ١١٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ١٠٣.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٧٣، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٠٨.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٢٤. (٦) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٤.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ص ٧٢٤، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦١٢ - ٤١٤.

(٨) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٨، ص ١٠٣.

ثم أن السلطان الأشرف برسبائي عفا عنه وقرر عليه مبلغ مائتي ألف دينار، يدفع نصفها وهو بمصر ويرسل النصف الآخر عند عودته إلى قبرص، كما تم الاتفاق معه على أن يكون نائبا عن السلطان في قبرص وما معها<sup>(١)</sup>، مع دفع جزية سنوية لدولة المماليك قدرها عشرون ألف دينار<sup>(٢)</sup>.

ولمّا لم يكن جانوس يملك من المبلغ المقرر عليه شيئا في ذلك الحين، فقد طلب من الفرنج المقيمين بالإسكندرية اقراضه المبلغ المطلوب منه، فلما أقرضوه المبلغ دفعه للسلطان، فأذن له بالمغادرة وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب، فغادر مصر عن طريق الإسكندرية<sup>(٣)</sup>، «واستقر نائبا عن السلطان بالجزائر القبرصية».

وأنشد احد الشعراء في ذلك:

عفونا ومن شأن الملوك أولى النهي  
بأن يتركوا الذنب العظيم عن الجاني  
فلا خير في شخص يرى العفو بدعة  
عن المخطيء الجاني وإن كان نصراني<sup>(٤)</sup>

وظلت قبرص تتبع لسلطان المماليك وتدفع الجزية بانتظام ، وعندما آل حكم قبرص للبنادقة سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م حرص هؤلاء على عدم استفزاز السلطات المملوكية، فأرسلوا سفارة إلى مصر للاتفاق مع المماليك بشأن قبرص، كما استمروا في دفع الجزية المفروضة على قبرص وإرسالها إلى القاهرة حتى سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م حين استولى العثمانيون على مصر، وعندئذ حول البنادقة الجزية إلى السلطان العثماني، إلى أن تمكن العثمانيون من فتح قبرص، فحكموها حكماً مباشراً<sup>(٥)</sup>.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ١٠٤ .

(٢) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ٧٢٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٨، ص ١٠٥.

(٤) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٥.

(٥) العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٣٣٦، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ج٢، ص ١٢٣١ -



### الفصل الثالث

#### غزو جزيرة رودس ومحاولات الاستيلاء عليها

اتخذ الصليبيون في أعقاب طردهم من بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م جزيرة قبرص مركزاً جديداً لهم بتشجيع من الملك القبرصي هنري الثاني الذي وجد فيهم أداة صالحة لتنفيذ سياسته العدوانية ضد دولة المماليك - كما أسلفنا من قبل - وكان من بين الصليبيين فرسان الإسبتارية، وقد اعتبر هؤلاء أن إقامتهم في قبرص هي إقامة مؤقتة ريثما يتمكنوا من إيجاد مركز دائم لهم لا ينضون فيه تحت قيادة ملك قبرص وإنما شركاء له، ليمارسوا من خلاله أعمال القرصنة البحرية ضد السواحل الإسلامية في حوض البحر المتوسط، وفي سبيل ذلك دخلوا في مفاوضات مع الامبراطورية البيزنطية لنقل حقوق ملكية جزيرة رودس إليهم، غير أن القسطنطينية لم ترغب في التخلي عن الجزيرة، ولما لم يتمكن الإسبتارية من تحقيق هدفهم بالطرق الدبلوماسية فقد أخذوا يتحينون الفرصة لاحتلال الجزيرة عسكرياً<sup>(١)</sup>، ولم يطل انتظارهم فقد قصدهم سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م أحد كبار القراصنة الجنوبيين - واسمه «فيجنولو» - الذي استولى من الامبراطور البيزنطي «أندرونيق» على جزيرتي كوس وليروس في حوض المتوسط، وكان أن عرض ذلك القرصان الجنوبي على مقدم الإسبتارية «فولك فيلارت»، مشروعاً ضخماً خلاصته أن يتعاون الطرفان في غزو جميع جزر الدوديكانيز - في بحر الأرخبيل - على أن يكون للإسبتارية ثلثا الغنيمة وللقرصان الثلث.

وبموافقة من البابوية ومباركتها، شرع الإسبتارية في غزو جزيرة رودس بمساعدة بعض السفن الجنوبية، ولم تلبث أن أخذت حصون الجزيرة تتساقط في أيديهم واحداً بعد الآخر، حتى سقطت مدينة رودس نفسها سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م وبذلك فقدت الدولة البيزنطية جزيرة كبرى من جزرها في حوض المتوسط، وغدت رودس حصناً حصيناً للإسبتارية<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ٢٤٤.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٣٣ - ١٢٣٤.

ولم تلبث رودس أن شكلت قاعدة حربية مركزية لتجمع الصليبيين وانطلاقهم لمهاجمة السواحل الإسلامية، مثلما فعل الملك القبرصي بطرس لوزجنان عند مهاجمته مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م وظلت كذلك بعد استيلاء السلطان برسباي على جزيرة قبرص، مما دفع برسباي نفسه إلى محاولة الاستيلاء عليها لولا توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة لها بالشرق الإسلامي من تيموريين (مغول) وعثمانيين (أتراك) وإمارات التركمان بآسيا الصغرى في ذلك الحين، هذا فضلاً عما حلّ بالبلاد المصرية في آخر عهد برسباي من جملة الطواعين والمجاعات والقتل المملوكية وارتفاع الأسعار، فاضطر برسباي إلى إرجاء فتح رودس ريثما تحين فرصة ذلك<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من إرجاء برسباي هذا إلا أن الإسبتارية في رودس شعروا بالخطر يحدق بهم بعد النجاح الكبير الذي حققه برسباي في قبرص، فأسرعوا بإنفاذ رسول إلى السلطان سنة ٨٣٠ / ١٤٢٧م لطلب الصلح والكف عن القتال، وفي ذلك قال المقرئ «وقدم رسول صاحب رودس يسأل الأمان، وأن يعفى من تجهيز العسكر إليه وأنه يقوم بما يطلب منه، فأركب فرساً، وفي صدره صليب من ذهب وطلع القلعة، وقبل الأرض بين يدي السلطان، وأدى رسالته ثم نزل إلى القاهرة»<sup>(٢)</sup>.

غير أن الإسبتارية لم يلتزموا بما أخذوه على أنفسهم تجاه الدولة المملوكية، فما لبثوا أن عادوا إلى سيرتهم الأولى في القرصنة والاعتداء، ويبدو أن عدم تمكن السلطان برسباي ومن بعده ابنه السلطان الملك العزيز جمال الدين يوسف من توجيه حملة بحرية لوقفهم عند حدهم، بسبب الظروف الداخلية والخارجية، قد جعلهم يستمرون في الاعتداء على السواحل الإسلامية، وعندما تولّى السلطنة المملوكية السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م،<sup>(٣)</sup> استمر الإسبتارية في خطهم العدواني ومن ذلك أن

---

(١) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٥٨، محمد زيادة، المحاولات الحربية للاستيلاء على

جزيرة رودس، ص ١١، ١٠٧ - ١٠٩، ١٩٦، إبراهيم حسن، البحرية في عصر السلاطين المماليك،

ص ٢٦٨. Atiya. op. cit, PP 341-342.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٤، ص ٧٤١.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الفخر، ج ٨، ص ١٦ - ١٨.



أربع سفن لهم أغارت على رشيد سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م وأخذت منها أبقاراً وغيرها<sup>(١)</sup>.  
إزاء ذلك كان لابد للسلطان الظاهر جقمق من أن يواجه الموقف بمحاولة اجتثاث  
الإسبتارية من جذورهم، ولا يكون ذلك إلا بغزو جزيرة رودس حصنهم الحصين، ويقال إن  
من الأسباب التي شجعت على غزو الجزيرة أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرصه  
على ذلك، وكان السلطان مراد يهدف إلى صرف الفرسان الإسبتارية كي يجعلهم  
ينشغلون بالدفاع عن جزيرتهم بدلاً من الانضمام إلى الحلف المسيحي الذي أوشك أن  
يتكون في أوروبا آنذاك لشن حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين في منطقة البلقان.  
على أن أخبار استعدادات السلطان الظاهر جقمق الأولية وصلت إلى فرسان  
الإسبتارية عن طريق الرهبان الفرنسيين المقيمين بدير صهيون وبيت لحم، فأرسل  
«لاستيك» رئيس الإسبتارية سفينتين إلى السواحل المصرية بغية الوقوف على ما  
يحدث هناك، وتمكن الإسبتارية من معرفة كل ما يدور من استعداد لغزو رودس بواسطة  
أحد النصارى من أهل دمياط<sup>(٢)</sup>، فأخذوا يستعدون في سرعة، كما أرسلوا إلى القوى  
النصرانية في أوروبا يستنجدون بها خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرص، وإلى  
هذه الاستعدادات يرجع السبب في فشل السلطان الظاهر جقمق في إخضاع رودس  
وجعلها تابعة لسلطنة المماليك في مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرص<sup>(٣)</sup>.  
أما الحملات التي أرسلها السلطان جقمق ضد رودس فكانت ثلاث حملات وهي:

#### الحملة الأولى: سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م

بعد أن أتم الأسطول الإسلامي المملوكي استعداداته الحربية أبحر من ساحل  
بولاق في ٩ ربيع الأول ٨٤٤هـ/٨ آب ١٤٤٠م وكان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة،  
وعلى متنها مائتان من الجند بقيادة الأميرين تغري برمش الزردكاش السلحدار  
ويونس المحمودي أمير آخور، وقد انضم إلى الحملة عدد كبير من المتطوعين من

(١) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ١١٦٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٠٦.

(٢) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ١١٢.

(٣) سعيد عاشور، مصر والشام، ص ٢٤٢.

أهالي القاهرة ودمياط حتى بلغ مجموع المقاتلين قرابة الألف مقاتل<sup>(١)</sup>.  
واتجهت الحملة أولاً إلى جزيرة قبرص حيث زودها الملك حنا الثاني بما تحتاجه  
من مؤن، ثم تابعت إبحارها باتجاه العاليا شمالاً حيث انضمت إليها سفينتان  
مشحونتان بالمقاتلين<sup>(٢)</sup>.

ووصلت الحملة إلى جزيرة رودس في أواخر ربيع الآخر، أواخر أيلول من السنة  
ذاتها، ورسّت بالقرب من الرأس الرملية بأقصى شمال الجزيرة<sup>(٣)</sup>، وأرسل قاداتها من  
هناك كتاباً موجهاً من السلطان جقمق إلى صاحبها<sup>(٤)</sup>، غير أن الحملة فشلت في  
تحقيق هدفها، إذ كان الصليبيون مستعدين للمواجهة، كما تبين ذلك لعيون الحملة،  
وقد انقضت عشر سفن للروادسة على السفن الإسلامية، وبسبب عنصر المبادأة  
بالهجوم، اضطرت السفن الإسلامية إلى الإبحار في وسط الليل والروادسة  
يتعقبونها<sup>(٥)</sup>.

وما لبثت أن وقعت في صبيحة اليوم التالي معركة حربية بين الفريقين، على  
مقربة من ساحل آسيا الصغرى، ولم تكن نتيجتها حاسمة، فتراجعت الحملة بعد أن  
استطاعت الخلاص من قتال الروادسة<sup>(٦)</sup>، وفي طريق العودة إلى مصر، هاجمت  
الحملة إحدى القرى وخربتها «فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها»<sup>(٧)</sup> وقد علق ابن حجر  
العسقلاني على أحداث هذه الحملة ونتائجها بقوله: «وفي يوم الثلاثاء الثاني  
والعشرين منه (جمادى الأولى) قدم المجاهدون من بحر الفرنج وكانوا أرسوا على  
رودس وراسلوا صاحبها بكتاب من السلطان، فجاءهم من أنذرهم أن الفرنج أرادوا  
أن يبيتوهم، فخرجوا من الساحل فأحاطوا بهم فقاتلوهم إلى الليل، فهبت ريح  
شديدة ومطر، فأفرجت لهم، فساروا كما هم إلى أن مروا على بعض سواحل البلد،

(١) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ١٢٠٥ - ١٢٠٦.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٤، إبراهيم حسن، البحرية، ص ٢٧٠.

(٣) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ١١٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، انباء الفجر، ج٩، ص ١٢٧.

(٥) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ١١٣.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ١٢١٠، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٤.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج٤، ص ١٢١٠، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١١٤.



فرأوا في طرفها معصرة قصب سكر، فنزلوا عليها فنهبوا ما فيها وأسروا من وجدوه من المزارعين وغيرهم، ورضوا بهذه الغنيمة التافهة، ونجوا بأنفسهم بعد أن قتل منهم نحو الأربعين وجرح جماعة، ولم يظفروا بما خرجوا بسببه - ولله الإرادة يفعل ما يشاء وينصر من يشاء»<sup>(١)</sup>.

#### الحملة الثانية: سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م

لم يضعف فشل الحملة الأولى من عزم السلطان الظاهر حتمق على مواصلة سعيه للاستيلاء على الجزيرة، فشرع يستعد لإرسال حملة أخرى، ولكنه هذه المرة قام بإرسال قوة بحرية استطلاعية إلى رودس مؤلفة من خمس سفن لكشف أخبار الجزيرة ومعرفة مدى استعداد أهلها في أعقاب الحملة الأولى<sup>(٢)</sup>، كما شدد الحراسة في الموانئ المصرية لمنع الفرنج من تسقط الأخبار كما حصل في المرة الأولى، وقد نجح هذا الاحتراز عندما ألقى القبض على جماعة من الفرنج في ناحية رشيد قدموا لتسقط الأخبار، فحملوا إلى القاهرة<sup>(٣)</sup>.

أما إسمتارية رودس فكانوا قد شنوا غارة بحرية على ساحل بيروت في أعقاب الحملة الأولى، بقوة بحرية قوامها عشر سفن، وأخذوا من هناك مركباً مشحوناً بالبضائع وباعوا ممن أسروه من المسلمين أربعين رجلاً، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد<sup>(٤)</sup>.

وكانت هذه الإغارة قد قوت عزم السلطان جتمق على الإسراع بتجهيز حملته الثانية، وعندما أدرك إسمتارية رودس خطورة الموقف أسرعوا بتنفيذ وقد إلى السلطان في أواخر سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٣م «لطلب المهادنة ومعهم مقدمة وأسرى من المسلمين»، غير أن السلطان الذي خبر مكرهم وخبثهم خشي من أن يكون ذلك مجرد مخادعة لكي يبطل غزو الجزيرة، فيعودون بعد فترة إلى شن الإغارات من جديد على السواحل الإسلامية، فأمر بحبس وفدهم، وفي ذلك يقول السخاوي: لأنه «فهم منهم المخادعة

(١) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٩، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص ٤٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج٩، ص ١٥٦.

(٤) المقرئ، السلوك، ج٤، ص ١٢٢٧.

لكونهم أحسوا بالتجهيز إليهم»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تم إعداد سفن الأسطول الإسلامي في موانئ مصر والشام، اتفق قادة الحملة على أن يتم اجتماع العسكرين الشامي والمصري، في ساحل قبرص بين الملاحة (لارنكا) واللمسون (ليماسول) للتزود بالمؤن ثم مهاجمة رودس من هناك، فأبحرت السفن المصرية في شهر ربيع الآخر سنة ٨٤٧هـ / آب ١٤٤٣م من ميناء دمياط بقيادة الأمير اينال الأجرود والأمير قرباي، ووزع السلطان جقمق الصلاحيات العسكرية بينهما بحيث يكون الأمير اينال «باش العسكر المتحدث في أمره والنظر فيه برأ وبحراً» ويكون الأمير قرباي «أمير البحر»<sup>(٢)</sup>.

وفي أثناء إبحار السفن المصرية هبت عليها ريح عاصفة فرقت شملها فاتجه بعضها إلى بيروت واتجه البعض الآخر إلى طرابلس، وكان العسكر الشامي قد أبحر في وقت سابق إلى قبرص في خمسة عشر مركب، ثم تجمعت سفن الحملة بأكملها بين الملاحة وليماسول حسب الخطة الموضوعة في أوائل جمادى الأولى / أيلول، وبلغت عدتها ثمانين سفينة «ما بين أغرية وحمالات ومربعات وزوارق وسلالير سوى ما يتبعها من القوارب»<sup>(٣)</sup>، أما عدد القوات فوصل إلى ألف وخمسمائة مقاتل من المماليك السلطانية فضلاً عن «جمع كثير من المطوعة المستعدين بالأسلحة والعدد الكاملة».

ثم أبحرت الحملة بعد أن مكثت في قبرص بعض الوقت إلى العلايا على ساحل آسيا الصغرى، واتجهت بعد ذلك إلى «أنطاليا فاغو»، ثم أبحرت صوب رودس ووصلت إلى جزيرة صغيرة فرست هناك، وعلى الفور حاصرت القوات الإسلامية حصن الجزيرة المعروف بحصن «قشيل الروج» «وهو حصن منيع على جبل رفيع في طرفها»<sup>(٤)</sup> وبعد قتال عنيف مع الصليبيين الذين كانوا يتحصنون به تمكن المسلمون من إحداث ثغرة في سورهم، مما دفع الصليبيين إلى طلب الأمان، مقابل عدم تعرضهم للقتل فتم الاتفاق على ذلك، «وبادر المسلمون إلى الحصن فصعدوا إليه وعلوا عليه ونكست

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) م.ن، ص ٦٣.

(٣) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٩، ص ٢٠١.

(٤) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٣.



تلك الأعلام، وانتصبت رايات الإسلام وكسرت الصليبان وعلت كلمة الإيمان وزعق هناك الزمر السلطاني وحمدوا الله لحمد الأمر الشيطاني، وكان يوماً على المسلمين مطيراً وعلى الكافرين عبوساً قمطيراً، وساوت جدران الحصن الأرض... وتقسم أمراء السرية الأبراج فهدمت» وكان ذلك في ١٧ جمادى الآخر/ ١٢ تشرين أول من السنة ذاتها<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من هذا الانتصار الأولي الذي حققه المسلمون، إلا أنهم لم يواصلوا حملتهم على رودس بسبب شدة هطول الأمطار، فاتفق رأي الأمراء، على أن يمضوا فصل الشتاء في بلدة من بلاد الروم يقال لها «مكرى»، ثم ما لبثوا أن غيروا رأيهم بالعودة إلى مصر، بسبب اشتداد الريح العاصفة، وفي أثناء عودتهم هبت الريح في وجه سفنهم ففرقت شملها، فمناها ما وصل إلى دمياط ومنها ما وصل إلى الإسكندرية ومنها ما وصل إلى ساحل رشيد، ولم يجتمع شمل الحملة إلا على ساحل بولاق في ١١ شعبان/ ٢١ كانون أول من السنة ذاتها<sup>(٢)</sup> وقد علق السخاوي على نتائج هذه الحملة بقوله: «وبالجملة فلم يبلغوا ما كان المسير لأجله لكن على كل حال هي أحسن من السفارة الأولى ولذلك كانت الغزاة الثالثة»<sup>(٣)</sup>.

#### الحملة الثالثة: سنة ٤٤٨هـ/ ١٤٤٤م.

لم يفت فشل الحملة الثانية في عضد السلطان الظاهر جقمق، ولم يؤثر في عزيمته على مواصلة جهوده للاستيلاء على جزيرة رودس، إذ كان يطمح إلى تجديد عهد السلطان برسباي الذي أخضع جزيرة قبرص بعد حملات متتالية، ولذلك شرع في إعداد حملة بحرية جديدة، وبعد أن اكتملت تجهيزاتها عهد بقيادتها للأميرين اينال الأجرود وقرباي، وأناط بهما المهمات والصلاحيات كما في الحملة السابقة، إلا أنه أضاف إليها قائداً جديداً وهو الأمير يلخجا الناصري، وأناط به مهمة محددة إذ «رسم له يكون في البحر وقت الحصار لحفظ المراكب»، وقد شارك في هذه الحملة أكثر من ألف وخمسمائة

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٤، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٩، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

Lane-Poole, op. cit. P339

(٢) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٤ - ٦٥، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر ج ٩، ص ٢١٠ - ٢١٣.

(٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٦٥.

من الممالك السلطانية، «سوى من سافر معهم من المطوعة الفقهاء والفقراء وغيرهم»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن استعرض السلطان الظاهر جقمق وحدات الحملة، أقلعت من بولاق في ٢٢ محرم ٨٤٨هـ/ ٣ تموز ١٤٤٤م إلى الإسكندرية، فدمياط، قم أبحرت صوب طرابلس حيث انضمت إليها بعض القوات الشامية، ومن هناك أبحرت باتجاه رودس<sup>(٢)</sup>، وفور الوصول إلى برها نزل المسلمون بالقرب من عاصمتها رودس: «فوجدوا أهلها خزاهم الله قد حصنوا أبراجهم بالآلات والسلاح والمقاتلة بحيث صارت في غاية من الحصانة، فأخذ المسلمون في حصار أسوارها ونصبوا المجانيق والمكاحل على أبراجها وصار القتال بين الفريقين أياماً، وقتل من كليهما بالرمي جماعة كثيرين» وفي الوقت ذاته قامت قوة إسلامية بمهاجمة القرى والبساتين والضياع المحيطة بالعاصمة فسبوا ونهبوا وأحرقوا، وأقامت قوة عسكرية إسلامية في كنيسة تجاه مدينة رودس لحفظ الطريق، غير أن قوات كبيرة من الصليبيين طرقتهم على حين غفلة، فاستشهد من المسلمين ما يزيد على عشرين مقاتلاً فيما نجا من تبقى منها والتحق بالسفن<sup>(٣)</sup>.

وحاول الإسبتارية بعد أن وصلتهم النجدة البحرية من غرب أوروبا مهاجمة السفن الإسلامية في البحر على حين غرة ظناً منهم بعدم وجود من يحفظها، إلا أن الأمير يلخجا الناصري المكلف بحماية السفن تصدى لهم بمن معه من القوات واستطاع دحرهم بعد معركة بحرية عنيفة بالرغم من خسارته لثلاث سفن<sup>(٤)</sup>.

ومع اشتداد مقاومة الإسبتارية لحصار القوات الإسلامية، ولما لاقاه المسلمون من الضيق بسبب كثرة ما أصيب منهم، فقد أرسل قادة الحملة إلى السلطان جقمق يطلبون منه المدد، فأمدهم بقوة قوامها خمسمائة مملوك على رأسهم ثلاثة من الأمراء الصغار، وكان أن خاض المسلمون آخر معركة كبرى مع الإسبتارية على أمل تحقيق نصر حاسم، غير أن النتيجة كانت على المسلمين فقد خسروا ثلاثمائة مقاتل وجرح خمسمائة، هذا

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) محمد مصطفى زياد، المحاولات الحربية، ص ٢٠١ - ٢٠٢، إبراهيم حسن، البحرية، ص ٢٧٢.

Atiya. op. cit, P475

(٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٨٨.

(٤) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٨٨، محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ٢٠١.



فضلاً عما فرّ من المماليك إلى الكفار ارتداداً، بعد اليأس الذي لا قوة لضعف إيمانهم ولفقدان حس الجهاد ومعنى الاستشهاد عندهم.<sup>(١)</sup>

أمام ذلك كله اتفق قادة الحملة على فك الحصار عن العاصمة وإيثار السلامة بالعودة إلى مصر، فعادوا أرسالاً، وكان آخر من وصل كبيرهم الأمير اينال<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن هذه الحملة قد أثرت في نفسية المماليك لدرجة أن السلطان جقمق لم يحاول بعدها إرسال حملة أخرى، وقد علق السخاوي على ذلك بقوله: «وبالجملة فلم يتم للعسكر قصد ولا رجوعوا بطايل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، ولله عاقبة الأمور»<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من توقف الحملات الإسلامية المملوكية على جزيرة رودس إلا أن الصليبيين وعلى رأسهم البابا، تخوفوا من معاودة الهجمات الإسلامية، فأرسل البابا إلى فرسان الإسبتارية يحثهم على إيجاد حل مع المماليك يكون مقبولاً للطرفين، فاختار الإسبتارية وسيطاً على صلة بالسلطان جقمق وهو التاجر الفرنسي «جاك كير» فقام بمهمة الوساطة بينهما، وأرسل مبعوثاً من قبله إلى السلطان وبصحبته مسؤول إسبتاري، وبعد مفاوضات مع السلطان تم الاتفاق على عقد صلح مع الإسبتارية، تعهدوا فيه بعدم الاعتداء على السفن والمتاجر الإسلامية أو التعرض لها<sup>(٤)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك الصلح إلا أن العلاقات ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً أخرى بقية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ولم يحجم الإسبتارية في كثير من الأحيان عن الإغارة على سفن المسلمين، ولما كانت الدولة المملوكية لا تقوى على القيام بعمل حربي كبير ضدهم بسبب ما أصابها من إعياء اقتصادي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه، فضلاً عن الخطر العثماني الذي أخذ يهدد حدودها الشمالية، فقد كانت تكتفي بالقضاء القبض على التجار الأوروبيين وبعض رجال الدين -النصارى- مثلما حدث ذلك سنة ٩١٣هـ / ١٥١٠

(١) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٨٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٩، ص ٢٢٤.

(٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٨٩.

(٤) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية، ص ٢٠٢، ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين

المماليك، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

فقد رد السلطان قونصوه الغوري على اعتداء الإسبتارية في تلك السنة بالقاء القبض على جميع رجال الدين في القدس والأوروبيين في الإسكندرية ودمياط، وأغلق كنيسة القيامة في السنة التالية، ولم يلبث ميزان القوى أن تغير في حوض المتوسط عندما تمكنت الدولة العثمانية من إسقاط الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وما أن أتت سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م إلا وكانت الدولة العثمانية تستولي على رودس فأضحت دار إسلام بعد أن كانت قاعدة حربية كبيرة للإسبتارية.<sup>(١)</sup>

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٢٣٦ طرخان، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة،



## الفصل الرابع

### اعتداءات البرتغال على سواحل

### شبه الجزيرة العربية ورد المجاليك

تميز القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري، بتطورات كبيرة أدت إلى قلب موازين القوى في قلب العالم القديم (آسيا وإفريقيا وأوروبا) فقد تمكن الأوروبيون من التوصل إلى نتائج هامة في مجال الكشف الجغرافي وفي تاريخ العالم، وقد جاءت هذه الكشف مدفوعة بدوافع عديدة كان أهمها دافعين اثنين.

أولهما دافع ديني صليبي، إذ سعت أوروبا وعلى رأسها البابوية إلى تطوير العالم الإسلامي في محاولة للقضاء عليه، وذلك بعد النجاح الكبير الذي أحرزته الدولة المملوكية في تحرير بلاد الشام من براثن الاحتلال الصليبي، ونقل المعركة إلى مداخل أوروبا في حوض البحر المتوسط عندما سيطرت على جزيرة قبرص، وحاولت ذلك مع جزيرة رودس، كل ذلك في تعبئة جهادية إسلامية رائدة، كان المسلمون قد تاقوا إليها كرد فعل للعدوان الصليبي، وإحياء لفريضة الجهاد.

ويضاف إلى ذلك تلك الفتوحات الإسلامية الكبيرة التي حققتها الدولة العثمانية الفتية في منطقة البلقان -في قلب أوروبا- ثم التبرع على عرش الامبراطورية البيزنطية التي طوى صفحاتها السلطان العثماني محمد الفاتح-وانعم به من فاتح- بفتح القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م.

وكانت نتيجة ذلك أن حظيت حركة الكشف الجغرافية باهتمام كبير من قبل البابوات، أملاً في تحقيق سعيهم إلى تطوير العالم الإسلامي وتخطيطه، فأصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك اسبانيا والبرتغال -رواد الكشف الأولى- الحق في ملكية كل إقليم جديد، وتورط بعضهم في هذه المراسيم، فوصفوا الإسلام بأنه طاعون، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التي كشفت أو سوف تكتشف، والحيلولة بينهم وبين دخولهم الإسلام، كما أن البابوات أخذوا يعدون المشتركين في الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب في اليوم الآخر.

وأرسل البابا نيقولا الخامس سنة ١٤٥٤م مرسوماً إلى الملك هنري ملك

البرتغال، اشتمل على ما أطلق عليه اسم «خطة الهند» وهي تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية على الإسلام وأهله للقضاء عليه.

أما الدافع الثاني، فكان دافعا اقتصاديا، وقد جاء منبثقا من الدافع الأول وخادما له، إذ سعى الغرب الأوروبي إلى إيجاد طريق تجاري لا يمر عبر أراضي الدولة المملوكية ومياهاها، كي يكون مقدمة لإنهاكها اقتصاديا.<sup>(١)</sup>

وقد ساعدت سياسة الاحتكار التجاري التي اتبعتها بعض سلاطين الدولة المملوكية على تدعيم ذلك الاتجاه، وإن اختلفت أسباب هذه السياسة، فمن السلاطين من سعى للتعويض عن الخسائر التي لحقت بالدولة نتيجة لاختلال نظامها الاقطاعي، ومنهم من سعى للحصول على المال من أسسر الطرق، مدفوعا بدافع الجشع والطمع، فاتخذ من سياسة الاحتكار وسيلة لذلك.

وبلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي، وسك الدينار الأشرفي ليكون أساسا للتعامل مع التجار الأوروبيين. مما أثار أولئك التجار وجعلهم يجدون في البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول على حاصلات الشرق من التوابل والبخور وغيرها مباشرة.<sup>(٢)</sup> دون وسيط تجاري وهو الدور الذي كانت تقوم به الدولة المملوكية بحكم موقعها الجغرافي المتحكم بطريق المحيط الهندي - البحر الأحمر - برزخ السويس - البحر المتوسط.

على أنه يجب ألا يفهم بأن الكشف الجغرافية التي قامت بها أوروبا قد انحسرت في هذا الدافع أو ذاك، وإنما جاءت هذه الكشف بطبيعتها نتيجة عملية للنهضة العلمية الأوروبية.

وقد تزعمت البرتغال الجهود الأولى لحركة الكشف الجغرافية، بهدف التجارة والاستعمار أولاً، وللنزعة الصليبية التي كانت تسيطر على روح أميرها هنري الملاح ثانياً، ويظهر هذا الأمر الأخير من خلال المرسوم الذي بعث به إليه البابا نقولا الخامس سنة ١٤٥٤م وجاء فيه أن سرورنا العظيم أن نعلم أن ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه جون بوصفه جندياً قديراً من جنود المسيح ليقضي على أعداء

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، ص ٥٩ - ٦٢ .

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، حسن إبراهيم، البحرية، ص ١٨٠ - ١٨١ .



الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة مع سخافة هذا القول طبعاً الذي ينم عن مدى الحقد الدفين ضد الإسلام وأهله، ثم أنها السياسة الأسهل لتحقيق الهدف.

وكانت الخطوات الأولى للكشوفات الجغرافية قد بدأت في عهد الأمير هنري الملاح، فقد وصل البرتغاليون إلى ماديرا ثم جزر الأزور ثم مصب نهر السنغال والرأس الأخضر وذلك حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، ثم واصل البرتغالي بارثلميو دياز نهج الأمير هنري، فوصل إلى طرف إفريقية الجنوبية واجتاز رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م. ثم تبعه فاسكو دي جاما الذي وصل سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م إلى موانئ شرق إفريقية وكان منها موزمبيق ومبسة وماليندي، وكانت هذه الثغور غاصة بالتجار العرب، ومن ثغر ماليندي اتجه إلى الهند بمساعدة الملاح العربي «أحمد ابن ماجد» فوصل إلى كاليكوت (قاليقوط) على الساحل الغربي للهند المسمى ساحل ملبار.

وبذلك تحقق أمل الغرب الأوروبي والبابوية في كشف طريق جديد لا يمر عبر أراضي ومياه الدولة المملوكية، ومن ثم بدأت البرتغال في إقامة مراكز تجارية مسلحة لها في إفريقية الشرقية وفي الساحل الغربي للهند، وفي جزر المحيط الهندي والخليج العربي، وعملت على بسط سيطرتها العسكرية والتجارية على هذه المنطقة ابتغاء احتكار تجارة الشرق ونقلها إلى أوروبا عبر الطريق الجديد -المحيط الأطلسي- رأس الرجاء الصالح - الهند -. وبذلك استطاعت البرتغال تحويل التجارة عن البحر الأحمر الذي تسيطر عليه الدولة المملوكية، فغدت بذلك الوسيط التجاري الجديد بين الشرق والغرب بدلاً من الدولة المملوكية.<sup>(١)</sup>

وفي ذلك قال المؤرخ اسماعيل سرهنك وفي مدته ( السلطان قونصوه الغوري) كان أهل البرتغال اكتشفوا طريق الهند من جهة رأس عشم الخير (رأس الرجاء الصالح)، واستولوا على عدة ثغور بحرية، وقطعوا تجارة الهند عن مصر.<sup>(٢)</sup>

وقد أدى ذلك إلى حرمان دولة الماليك من الأرباح التي كانت تحصل عليها من بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا.<sup>(٣)</sup> فغدت الدولة المملوكية منهكة من الناحية الاقتصادية بسبب هذا الأمر، وكان

(١) عمر عهد العزيز عمر، أوروبا، ص ٦٣ - ٦٥.

(٢) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ص ١٨٨.

(٣) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٢٦٦، إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٨.

ذلك بداية نهايتها، إلا أنها لم تستسلم بسهولة، بل قاومت ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ولم يكتف البرتغاليون بما حققوه من الانتصارات، بل عملوا على الاستحواذ على مراكز المسلمين في الشاطئين الإفريقي والعربي وفي مضيق هرمز وعدن، كي يتمكنوا من مهاجمة الملاحة الإسلامية في جميع وجوه نشاطها.<sup>(١)</sup>

وأخذوا في مهاجمة السفن الهندية المحملة بالبهار والتوابل والمتجهة إلى ميناء جدة، كما هددوا بغزو بلاد الحجاز وتخريبها بقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويل متاجر الشرق الأقصى بالقوة إلى أسواق عاصمتهم لشبونة.<sup>(٢)</sup>

وحاول السلطان المملوكي قونصوه الغوري منعهم من تنفيذ مآربهم وذلك باللجوء إلى الوسائل السلمية تارة وإلى التهديد تارة أخرى، ذلك أنه أرسل إلى ملوك أوروبا يحذرهم بأنه سيقوم مكرها بقتل جميع الفرنج المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً، وبإغلاق كنيسة القيامة في القدس فيما إذا استمر البرتغاليون في موقفهم العدواني في مياه المحيط الهندي، غير أن هذه التهديدات لم تجد نفعاً لدى الدول الأوروبية، وتمادى البرتغاليون في طغيانهم.<sup>(٣)</sup>

وبلغ خطرهم مداه عندما دخلوا بأساطيلهم إلى مياه البحر الأحمر، أزاء ذلك وخوفاً على طريق مكة المكرمة فقد شيد السلطان الغوري قلعة في جدة -لأنها فرضة الكعبة المشرفة- وشحنها بالعدد والعساكر، ولم تمض أيام من إقامتها حتى وصلت أساطيل البرتغال أمام جدة واطلقت عليها المدافع، فقابلتها حامية القلعة بالمثل، فخاف البرتغاليون سوء المنقلب، فاقلعوا بسفنهم عنها.<sup>(٤)</sup>

ونتيجة لهذه الغارة رأى السلطان الغوري ضرورة إنشاء أسطول يكون قادراً على ردع الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، فشرع بإنشاء سفن حربية في مياه السويس وذلك سنة ١٥٠٥/٩١١م<sup>(٥)</sup> كما قام في الوقت ذاته بالاتصال

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، أوروبا، ص ٦٥.

(٢) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢، العبادي تاريخ البحرية ص، ٢٦٦.

(٣) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢.

(٤) إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) م.ن.، ص ١٨٩، إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٣.



بالبندقية وبالسامري ملك كاليكوت، للوقوف معاً ضد البرتغال.  
وكانت البندقية تواقّة إلى التعاون مع الماليك، غير أنها حرصت في بداية الأمر على عدم التورط في القيام علانية بالمساعدة، ولكنها أبدت بعض الوسائل التي يستطيع السلطان الاعتماد عليها في بناء الأسطول دون أن يؤدي ذلك إلى إظهارها أمام الدول الأوروبية بمظهر الدولة التي تساعد دولة الماليك علانية.<sup>(١)</sup>

غير أن التضمر الشديد الذي لحق بالبندقية جعلها تغيّر من موقفها فقد اشتركت بأسطولها مع الأسطول المملوكي في مطاردة البرتغال بالبحر الأحمر، وأقامت عند عيون موسى مجاري من البناء لتوصيل المياه العذبة إلى حوض عملته هناك -على ساحل البحر الأحمر- لتنتفع به سفنها، وفي ذلك قال المؤرخ اسماعيل سرهنك: «وذكر... أن مراكب البنادقة اشتركت مع الأسطول المصري المذكور في مطاردة البرتغال بالبحر الأحمر لإعادة التجارة الشرقية إلى طريقها الأصلي لأن انتقالها إلى طريق عشم الخير (رأس الرجاء الصالح) أضر بالبنادقة جداً لما كانوا ينالونه من فائدة نقلها على سفنهم في البحر الأحمر ونقلها ثانية من ثغور مصر الشمالية إلى أوروبا... وفعل البندقانيون عند عيون موسى مجاري من البناء لتوصيل مائها إلى حوض عملوه على ساحل البحر الأحمر لتنتفع به مراكبهم».<sup>(٢)</sup>

وما أن أتمت دولة الماليك صناعة السفن في ميناء السويس حتى أمر السلطان الغوري بإنزالها إلى البحر الأحمر وشحنها بالمقاتلين، وأسند رئاسة الأسطول (مسؤولية الإشراف على السفن) إلى أحد رؤساء البحر ويدعى سلمان، فيما أسند قيادة المقاتلين على سفن الأسطول إلى الأمير حسين الكردي، وكان قوام الأسطول ثلاث عشرة سفينة.<sup>(٣)</sup>

واتجه الأسطول المملوكي لطرد الأسطول البرتغالي عن طريق الهند، وكان هذا قد تراجع إلى سواحل الهند عندما علم بوجود الأسطول المملوكي في جدة. وسار الأسطول المملوكي في أثره وهناك انضمت إليه سفن ملك إياس حاكم الجزيرة، ثم التقى بالأسطول البرتغالي في بندر شول ١٥٠٨/٩١٤م وانتهت المعركة البحرية بهزيمة الأسطول

(١) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٢

(٢) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار، ص ١٨٩

(٣) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ١٠٧ .

البرتغالي ومقتل قائده «لورنزو دي الميدا» وأسر إحدى سفنه، فيما فرت بقية السفن<sup>(١)</sup> وبهذا النصر سيطر الأسطول المملوكي على الموقف العسكري في المحيط الهندي وأرسل السامري ملك كاليكوت أربعين سفينة إلى الأمير حسين الكردي لتكون في خدمته وفي ذلك قال ابن إياس: «ورجع الأمير حسين تخفق على هامته وعلى سوارى أسطوله المصري رايات الظفر وأعلام النصر، فاقام بميناء ديو عدة شهور حتى انقضى فصل الأمطار وأرسل إليه السامري أربعين غرابا لتكون في خدمته»<sup>(٢)</sup>.

غير أن الأسطول البرتغالي ما لبث في السنة التالية ٩١٥هـ/١٥٠٩م أن داهم الأسطول المملوكي في خليج ديو بعد الامدادات التي وصلتته فما كان من الأمير حسين الكردي إلا أن قام بإخراج السفن التي كانت معه من غير استعداد. وخرج معه الهنود بسفنهم بلا استعداد أيضا، وانتهت المعركة التي دارت بينهما في خليج ديو إلى تدمير معظم قطع الأسطول المملوكي بشكل خاص، إذ أن البرتغاليين كانوا يهدفون إلى الانتقام منه بسبب مقتل ابن قائد أسطولهم «لورنزو دي الميدا» ابن نائب ملك البرتغال بالهند، وبهذه الهزيمة اضطر الأمير حسين الكردي إلى الانسحاب بما سلم معه من السفن إلى جدة<sup>(٣)</sup>.

وكانت نتيجة هذه المعركة البحرية أن أعاد البرتغاليون سيطرتهم على المحيط الهندي من جديد وبخاصة بعد أن وصلت أعداد سفنهم إلى حوالي خمسين سفينة<sup>(٤)</sup> وبهذه السيطرة عاث البرتغاليون فساداً في سواحل الهند والمحيط الهندي، مما جعل ملوك الهند يوفدون إلى السلطان الغوري يستنجدون به لدفع الضرر عنهم<sup>(٥)</sup> غير أن السلطان لم يستطع فعل أي شيء بعد تدمير معظم قطع أسطوله، واستطاع الأسطول البرتغالي في غياب القوة البحرية المملوكية الاستيلاء على جزيرة سوقطرة الواقعة أمام

(١) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ٨٣، اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٩ .

(٢) ابن إياس بدائع الزهور ج٤ ص ١٤٢، احمد دراج، الماليك والفرنج، ص ١٣٧ .

(٣) م.س، ج٤، ص ١٨٢ - ١٨٥، احمد دراج، الماليك والفرنج، ص ١٣٧ .

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٨٥ .

(٥) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٤ .



مدخل البحر الأحمر، فاحكم البرتغاليون بذلك سيطرتهم على طريق مصر-الهند<sup>(١)</sup> وقد مكنهم ذلك من إرسال أسطول مؤلف من ست عشرة سفينة إلى مياه البحر الأحمر بقيادة «الفونسو البوكيرك» سنة ٩١٩هـ/١٥١٢م، فبدأ بحصار عدن وحاول الاستيلاء عليها، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه بسبب صمود أهل المدينة واستبسالهم في الدفاع عنها، فاتجه البوكيرك بأسطوله إلى اليمن وحاول الاستيلاء على بعض موانئها، فلم ينجح إلا بالاستيلاء على جزيرة قمران لبعض الوقت ثم انسحب عنها بعد ثلاثة أشهر من احتلالها وعاد إلى الهند.<sup>(٢)</sup>

وأمام استمرار خطر البرتغاليين عمل السلطان الغوري على إعادة بناء الأسطول للوقوف في وجههم، وعلى الرغم من انشغاله بمواجهة غارات فرسان الإسبتارية في حوض البحر المتوسط إلا أنه تمكن من تجهيز أسطول مكون من اثنتين وعشرين سفينة أنفق عليه من ماله الخاص أكثر من أربعمئة ألف دينار، وحضر بنفسه إنزال السفن إلى مياه السويس<sup>(٣)</sup> وقد ضم إليه عسكرياً من الترك والمغاربة، وأربعة آلاف مقاتل من أجناد المماليك وجعل قيادته للأمير حسين الكردي.<sup>(٤)</sup>

وعندما أخذ الأسطول المملوكي يخر عباب البحر الأحمر انسحب الأسطول البرتغالي واتجه إلى الهند فاستغل حسين الكردي ابتعاد الأسطول البرتغالي فاستولى على صنعاء وزيد تحت الدولة العامرية وضمها إلى الأملاك المصرية، وقبل أن يتحرك بالأسطول لملاحقة الأسطول البرتغالي أقام حامية في اليمن جعل على رأسها الأمير برسباي<sup>(٥)</sup> ولم يقو الكردي على منازلة الأسطول البرتغالي عندئذ أرسل بطلب النجدة، وكان السلطان الغوري قد وصلت له نجدة بحرية أرسلها له السلطان العثماني بايزيد بقيادة سليمان الرومي ليتقوى بها ضد البرتغاليين فأرسلها من فوره إلى الأمير حسين

---

(١) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٤ .

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور ج٤ ص ١٨٢-١٨٥ .

(٣) م.ن، ج٤، ص ٣٦٥ المعبري، تحفة المجاهدين . ص ٤١ .

(٤) إبراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٥ .

(٥) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار ص ١٨٩ .

الكردي.<sup>(١)</sup>

والواقع أن هذه النجدة العثمانية تظهر بشكل جلي مدى التعاون الكبير الذي كان يتم بين دولتي المماليك و العثمانيين للوقوف معاً في وجه أعداء الأمة الإسلامية، وكان ذلك قبل حدوث التصدع في العلاقات بينهما.

وعلى الرغم من هذه النجدة إلا أن الأمير حسين الكردي لم يتمكن من إحراز نصر حاسم ضد البرتغاليين، وذلك بسبب القواعد القوية التي أنشأها البرتغاليون على الشاطئ الهندي<sup>(٢)</sup> على أنه نجح في إبعاد خطرهم عن البحر الأحمر، وعندما توجه الأسطول المملوكي إلى عدن سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م التحم مع بعض قطع الأسطول البرتغالي وألحق به الهزيمة<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من الإعياء الشديد الذي أصاب دولة المماليك إلا أنها ظلت أمينة في الدفاع عن حمى الإسلام، وظلت كذلك حتى انهارت على يد العثمانيين الذين تمكنوا من الاستيلاء على بلاد الشام ثم مصر بين سنتي ٩٢٢-٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م، وقد انبرى العثمانيون لمواجهة البرتغاليين في مياه البحر الأحمر، وتمكنوا من دحرهم، وانتهى الموقف بأن دان البحر الأحمر للعثمانيين فيما دان المحيط الهندي للبرتغاليين.<sup>(٤)</sup>

---

(١) المعبري، تحفة المجاهدين ص ٤٥ .

(٢) ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٥ .

(٣) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ٤٢ - ٤٦، ابراهيم حسن، البحرية، ص ١٨٦.

(٤) المعبري، تحفة المجاهدين، ص ٨٤ - ٨٥، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٩٠، العبادي، تاريخ

البحرية الإسلامية، ص ٢٦٨، سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٣٣ .



## الختام

مع الانتهاء من هذه الدراسة، لا بد من وقفة نستعرض فيها مجمل النتائج التي أوصلتنا إليها، فقد أوضحت أن دولة المماليك التي قامت في مصر وبلاد الشام قد انقسمت إلى قسمين:

دولة المماليك البحرية: وحكمت بين سنتي ٦٤٨ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م وكان سلاطينها من الأتراك وأشهرهم - فيما يتعلق بموضوع هذه الدراسة - الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون. دولة المماليك البرجية: وحلت محل دولة المماليك البحرية، وحكمت بين سنتي ٧٨٤ - ٩٢٣ / ١٣٨٢ - ١٥١٧م، وكان سلاطينها من الشركس، وأشهرهم: الأشرف برسباي، الظاهر جقمق، قونصوه الغوري، وانتهت بقضاء العثمانيين عليها.

وأوضحت الدراسة أن مسيرة الجهاد الإسلامي التي قادها المماليك ضد الصليبيين انقسمت إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: وهي مرحلة تحرير بلاد الشام وتطهيرها تطهيراً شاملاً، وقد استغرقت الفترة الواقعة بين سنتي ٦٥٩ - ٦٩٠هـ / ١٢٦١ - ١٢٩١م، وقادها ثلاثة من السلاطين على التوالي وهم: السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون، والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

وبينت الدراسة أن كلاً من السلطان الظاهر والسلطان المنصور قد عقدا عدة مهادنات مع الصليبيين أثناء هذه المرحلة، وكانت هذه المهادنات خطأً تكتيكياً حريماً دافعه تفتيت القوى الصليبية لمواجهة بشكل انفرادي، وقد أتت هذه السياسة البارعة أكلها.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الدفاع والوقوف في وجه تجدد الحروب الصليبية، والتي تمثلت في محاولات أوروبا والبابوية القيام بحملات صليبية جديدة على الشرق الأدنى الإسلامي لاعادة اختلال بيت المقدس وما فقدته في بلاد الشام، وكانت أكثر هذه المحاولات موجهة صوب مصر لإسقاطها والعبور من بوابة إلى

بيت المقدس، وكان أخطرها ما قام به الملك القبرصي بطرس لوزجنان من هجوم على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، غير أن كل هذه المحاولات كان مصيرها الفشل.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة نقل المعركة إلى جزر البحر المتوسط التي كانت تنطلق منها الحملات الصليبية نحو مصر وبلاد الشام، وأول هذه الجزر هي جزيرة قبرص، وقد شن السلطان الأشرف برسباي ثلاث حملات متتالية عليها إلى أن تكن من إخضاعها للسيادة المملوكية.

وكانت رودس هي الجزيرة الثانية، فبعد أن اتخذها الصليبيون الإستراتيجية قاعدة عسكرية لهم لشن الهجمات على السواحل الإسلامية على أثر إخضاع قبرص للسيادة المملوكية، وجه إليها السلطان الظاهر جقمق ثلاث حملات متتالية في محاولة للسيطرة عليها، إلا أن ذلك لم يتحقق له.

وعلى الرغم من هذا الفشل إلا أن المماليك قزموا الصليبيين في رودس، وحدوا من هجماتهم على سواحل مصر وبلاد الشام.

وبينت الدراسة أن أوروبا وعلى رأسها البابوية قد سعت إلى تطبيق العالم الإسلامي في محاولة للقضاء عليه، بعد النجاح الكبير الذي حققه المماليك ضد الصليبيين، وتلك الانتصارات الإسلامية العظيمة التي حققتها الدولة العثمانية الفتية في منطقة البلقان، وقد تمخض هذا السعي عن ظهور الاكتشافات الجغرافية والتي آلت إلى وصول البرتغاليين إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، ونقلهم التجارة عبر هذا الطريق بدلاً من طريق البحر الأحمر - برزخ السويس - البحر المتوسط - الذي تسيطر عليه دولة المماليك، وحاول البرتغاليون أيضاً تهديد مداخل الجزيرة العربية والدخول إلى البحر الأحمر وضرب ميناء جدة فرضة الكعبة المشرفة، وقد أدى ذلك إلى حرمان المماليك، من الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة، أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا، مما أصابها بالإعياء والإنهاك الاقتصادي.

لكل هذه الأسباب بينت الدراسة أن دولة المماليك قد أنزلت أساطيلها في البحر الأحمر، فلاحقت الأساطيل البرتغالية في المحيط الهندي وانتصرت عليها في معركة شول البحرية سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، وعلى الرغم من هزيمة الأساطيل المملوكية من قبل البرتغاليين في معركة خليج ديو في السنة اللاحقة، إلا أن المماليك ظلوا يحكمون



سيطرتهم على البحر الأحمر ومداخله.

وبينت الدراسة أن نوعاً من التعاون العسكري قد تم بين المماليك والبندقية ضد البرتغاليين، نظراً لأن البندقية قد تضررت تجارتها بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، وأظهرت كذلك أن العثمانيين قد وقفوا بأساطيلهم إلى جانب المماليك في حربهم ضد البرتغاليين مما يظهر بشكل جلي مدى التعاون الكبير الذي كان يتم بين الدولتين للوقوف معا في وجه أعداء الأمة الإسلامية، وكان ذلك قبل حدوث التصدع في العلاقات بينهما.

وخلاصة الموقف أن دولة المماليك قد اتبعت استراتيجية في مسيرة الجهاد الإسلامي، ضد الصليبيين قامت على ما يلي:

- مع وجود القوى الصليبية في الساحل الشامي،
- مسار عسكري: حروب عسكرية ونفسية مذهلة.
- مسار سياسي: مفاوضات شاقة ومهادنات تكتيكية شائكة.
- النتيجة: تحرير الساحل الشامي وتطهيره من براثن الاحتلال الصليبي تطهيراً شاملاً ونهائياً.
- مع تجدد الحروب الصليبية ومحاولة الالتفاف على العالم الإسلامي:
- منحى دفاعي: صد الهجمات عن السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر والمحيط الهندي.
- منحى هجومي: نقل المعركة إلى أرض الخصم ومواقعه.
- النتيجة: السيادة على جزيرة قبرص وتحجيم الصليبيين في جزيرة رودس، وفرض نطاق أمني على السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر وبحر العرب وسواحل الجزيرة العربية ضد الاعتداءات البرتغالية.

## - الملاحق -

### نص الهدنة المقتودة

#### بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الإسبتارية

في حصن الأكراد وحصن المرقب ومكاسنة ١٢٦٥هـ / ١٢٦٧م

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالح النجمي، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت الإسبتار الفلاني بعكا والبلاد الساحلية، وبين فلان مقدم حصن الأكراد، وبين فلان مقدم حصن المرقب، وجميع الأخوة الإسبتار لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة الف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيليب اليوناني-على أن جميع المملكة الحمصية والشيرزية والحموية وبلاد الدعوة المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة، وبلادها الموصوفة، وقراها وضياعها، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها ومزروعها ومعطلها، وطرقاتها ومياهاها، وقلاعها وحصونها- على ما يفصل في كل مملكة، ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها.

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات: عامرا ودائرا وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها- تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن كلا من الجهتين يجتهد ويحرص في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيره، أو القنائة كان عليهم العداد كجاري العادة، ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره



واتباعه، ومن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة، وكذلك مقدم بيت الإسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة.

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه: سواء أقام أو لم يقيم، وكان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص، ويعود إليها، ومن غرب منهم ومات وكان عليه العداد.

وعلى أن يكون أمر فلاحي بلد المناصفت في الحبس والإطلاق والجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان باتفاق مع نائب بيت الإسبتار على أن يحكم فيه شريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد، وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفت جميعها مطلقين من السخر من الجانبين.

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ في بلد المناصفت المذكورة من تركمان ولا عرب ولا أكراد ولا غيرهم عدداً ولا حقاً من حقوق بلد المناصفت، إلا ويكون النصف منه للملك الظاهر، والنصف الآخر لبيت الإسبتار.

وعلى أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفت من الرجوع إليها، والسكن فيها إذا اختاروا العود، وكذلك بيت الإسبتار لا يمنعون أحداً من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفت من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود.

وعلى أن الملك الظاهر لا يمنع أحد من العربان والتركمان وغيرهم ممن يؤدي العداد، من الدخول إلى بلد المناصفت، إلا أن يكون محارباً لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة، فله المنع من ذلك، وأن تكون خشارات (من الدواب) الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلدة ترعى في بلد المناصفت آمنة من الفرنج والنصارى كافة، وكذلك خشارات بيت الإسبتار وخشارات عسكرهم وغلمانهم وأهل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفت، وعند خروج الخشارات من المراعي وتسليمها لأصحابها، لا يؤخذ فيها حق ولا عداد ولا تعارض من الجهتين.

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية مهما تحصل منها، يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، كذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، ويكون لبيت

الإسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صورية عن القش، ويكون القش جميعه للملك الظاهر يتصرف نوابه فيه على حسب اختيارهم، ويكون اللينوفر (نوع من الرياحين) مناصفة، النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الإسبتار، وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الإسبتار ايضا يكون مناصفة. وان يكون متولي أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة الإسبتار، يتوليان أمرهما والتصرف فيهما وقبض متحصلهما. وتقرر أن مهما يجده بيت الإسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الإسبتار.

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة، فهي شيزر، وأبو قبيس وأعماله، وعينتاب وأعمالها، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الإسبتار وأعمالها، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها وقراها المستقرة بها، وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها.

وما استقر بمملكة الملك المنصور ناصر الدين (محمد) / بن الملك المظفر أبي الفتح (محمود) بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فهي: حماة المحروسة وقلاعها ومدنها، وقراها وسهلها وجبلها وانهارها، ومنافعها وثمارها وعامرها، وبلاد رقية وبلاد بارين بحدودها وتخومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها على أن الملك المنصور لا يرخص للتركمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقية وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الإسبتارية والاتفاق معهم على ذلك.

وعلى أنه أن تعدى أحد من أصحابه بأذية، أو تعدى أحد من الفرنجية في بلاده بأذية كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما، فإن انكشف الاخيذة اعيدت. والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست، وكما لهم، كذلك عليهم.

والمستقر لمملكة الصاحبين: نجم الدين وجمال الدين، والأمير صارم الدين نائبى الدعوة المباركة، وولد الصاحب رضي الدين وهي: مصياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها ودائرها ومدنها وبلادها وضياعها وطرقاتها، ومياها ومنابعها، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبلى بهرا واللكام كل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتخومها أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذي بشيزر إلى



نهاية الأراضي بحصون الدعوة وبلادها، وحماية القرية المعروفة «بعرطمار» يكون له أسوة الإسماعيلية. وإن علم الأصحاب أن أحداً من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الإسمتار لأذيه، أعلموا بيت الإسمتار قبل أن تجري أذية، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به، وإن لم يحلفوا يردوا الأذية التي تجري .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الإسمتار راثحين وغادين ومنصرفين في بيعهم وشرائهم، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم. وكذلك جميع فلاحي بلاد الاسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الإسمتارية، وإن تعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار، تكون المهلة خمسة عشر يوماً، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم، ومن توجهت عليه اليمين حلف، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية. وتكون الضيعة التي رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الإسمتار، وهي المشيرقة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه المهادنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم، ويحمل الأمر في الحقوق.

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الإسمتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية وخمسون مداً حنطة، وخمسون مداً شعيراً، ولا تبقى قطيعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الإسمتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد ولا منكر ولا ماض ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه.

وتقرر أن تكون جميع المباحثات من الجهتين مطلقة بما يختص بالملكة الحمصية، يسترزق بها الصعاليك، وأن نواب الملك الظاهر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وإن نواب بيت الإسمتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة. ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة إلى بلاد الإسمتارية بأذية ولا إغارة. ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الإسمتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة.

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصفت أحد ممن يجب عليه العداد وامتنع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضراً: أما عداد ديوان الملك الظاهر، وأما عداد بيت الإسمتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن

العداد أو الخارج من بلد المناصفت رهنا بمقدار ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفت، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد.

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه: فإن دخل بلد من بلاد الملك الظاهر، كان على النواب إيصال بيت الإسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج من العداد. وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الإسبتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد. وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة.

وعلى أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين: الجهة الإسلامية، والجهة الفرنجية والنصرانية في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - وعلى النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم، يحميهم السلطان ونوابه، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من جميع المسلمين، ويحميهم بيت الإسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من الفرنج والنصارى كافة.

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر، وبلاد معاهدية، وبلاد المناصفت، وخاص بيت الإسبتار والمناصفت، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال، تحمي كل جهة الجهة الأخرى.

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات: الإسلامية، والفرنجية الإسبتارية لا يكون عداداً على مالها في المناصفت: من الدواب والغنم والبقر والجمال وغيرها، على العادة المقررة في ذلك.

وعلى أن اطلاق الرؤساء باتفاق من الجهتين: الإسلامية والفرنجية الإسبتارية، ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً، فإن ظهرت أعيدت إلى صاحبها، وإن لم تظهر حلف ثلاثة نفر ممن يختارهم صاحب الدعوى، على ما يعلمونه في تلك الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها، وإن كان قد تعوض عنها أعيد العوض.



وعلى أن يكشفوا عن الأخيذة بجهدهم وطاقاتهم. ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها، فإن حلفوا ببرؤون من الدعوى، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت على صاحبها، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعي، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شيء، مثله، وكذلك يجري الأمر في القتل: عوض الفارس فارس، وعوض الراجل راجل، وعوض البركيل بركيل وعوض التاجر تاجر، وعوض الفلاح فلاح. وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعي وجب عليه العوض حتى يرد، وإن رد اليمين على المدعي ومضى على ذلك عشرة أيام ولم يحلف صاحب الدعوة بطلب دعواه وحكمها، وإن حلف أخذ العوض. ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد، ومعه مال لغيره أعيد جميع ما معه، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود. وإن هرب عبد وخرج عن دينه، أعيد ثمنه، وإن كان باقياً على دينه أعيد. وعلى أن لا يدخل من القاطنين في بلد المناصفات: من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم، وإلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لاغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر وبلاد معاهدية ولا يدخل أحد بلاد المسلمين لاغارة ولا أذية بعلم بيت الإسماعيل ولا رضاهم ولا إذنهم.

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الإسماعيل. وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقص بموت أحد من الجهتين ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة. وهي: عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه.

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركوا أحداً من التركمان ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الإسماعيل أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله، لئلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وبلاد النصارى. ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الإسماعيل في غد نزولهم المكان، أن كان المكان قريباً، وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الإسماعيل.

وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفات والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، أو ما استقر الحال عليه إلى آخر وقت. وعلى أن تخلص أمور المملكة الحمصية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر»

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين، وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري: حجة بمقتضاه، وتأكيذاً لما شرح أعلاه. كتب في تاريخ كذا وكذا.<sup>(١)</sup>

### نص الهدنة المفقودة

بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت سنة

٦٦٧هـ / ١٢٦٩م

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة ابنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع ايار سنة الف وخمسمائة وثمانين يونانية على بيروت وأعمالها المضافة اليها، الجاري عاداتهم في التصرف فيها أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة اليها: من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسن الفيل بحدودها والرح والشويف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقة، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين اليها من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان فلان، وهي الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبله واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكار وما هو منسوب اليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣١ - ٣٩.



الرحبية وما هو مختص بها: من قلاع وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الشقيفية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها: بشغورها وحصونها وممالكها، وبلادها وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها برأ وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيتها، وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته، برأ وبحراً، ليلاً ونهاراً: في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيته.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عُدَّ لأحد من الجانبين مال، أو أخذت أخيدة، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن كان لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى، ويرثت جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعى عليه عن اليمين حلف والي المدعى، وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ أو عمداً كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره: فارس بفارس وبركيل ببركيل، وراجل براجل، وغلام بغلام، وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بما لغيره، رد من الجهتين هو والمال ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين: لا ينقصها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا اوان ولا تنقص بموت أحد من الجانبين. وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق، في تاريخ كذا وكذا.<sup>(١)</sup>

### نص الهدنة المعقودة

بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد بركة

مع الإسماعيلية في قلعة لدا سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى قسيم امير المؤمنين، وبين المباشر المقدم الجليل أفريز أولد كال مقدم جميع بيت الإسمتار. سراجون بالبلاد الساحلية وبين جميع الأخوة الإسمتارية لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للإسكندر بن فيليب اليوناني، على أن تكون قلعة لدهكمالها وريضا وأعمالها وما هو منسوب إليها ومحسوب بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان وما استقر لها الآن، ويتعلق بذلك من المواضع والمصايد والملاحات والبساتين والمعاصر والطواحين والجزائر: سهلها وجبلها وعامرها ودائرها، وما يجري بها من أنهار وينبع منها من عيون وما هو مبني بها من عمائر، وما استجد بها من القراح، وكل ما عمر في أراضي المناصفت على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها، وحصن برغين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياح والقرى التي كانت مناصفة تكون جميع بلده

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٩ - ٤٢ .



وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة تكون جميع بلده وهذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد للملك الظاهر، ولا يكون لبیت الإسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب، وكذلك مهما كان مناصفة، كقلعة العليقة في بلادها لبیت الإسبتار، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبیت الإسبتار.

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى لا تكون فيها مناصفة لبیت الإسبتار ولا للمرقب ولا حق. ولا رسم ولا شرط ولا طلب في جميع بلاد الدعوة، مصياف الحمروسة والكهف والمنيقة والقدموس والخوابي والرصافة والعليقة، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة، يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر، وليس لبیت الإسبتار ولا الفرنجية فيه حديث ولا طلب.

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لد ومقرباً إلى حدود بلاد مرقية المعروفة بها، والداخل جميعها في الفتوح الشريف، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف، وحد البيوت المحاذية لسور الرض، تستقر جميعها مناصفة بين السلطان وبين بيت الاستبار نصفين بالسوية، وما في جميع هذه البلاد، من بساتين وطواحين وعمائر ومصايد وملاحات ووجوه العين والمستغلات الصيفية والشتوية والقطاني والحقوق المستخرجة، وما هو مزروع من الفدن لأهل الرض وبيادرها: يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الإسبتار سرجوان بالسوية نصفين.

وما هو داخل الرض وداخل المرقب فإنه مطلق من الملك الظاهر للمقدم الكبير أفریز أولد كال مقدم الإسبتار سراجون وخيالته، ورجاله ورعيته، برسم إقامتهم وسكناهم من داخل الأسوار، وعن سور الرض المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها بما فيه من حقوق طرقات واحكار، ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها وجميع السخريات، وكل أرض مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عداد يكون مناصفة.

وكل ما هو من المواني والمراسي البحرية المعروفة جميعها بحصن المراقب: من مينا بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود مرقية، تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردین والتجار. وما ينعقد عليه ارتفاعها، وتشهد

به الحسابات- جميعه مناصفة، وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الإسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة.

ويعتمد ذلك في كل ما يصل للمتريدين والمقيمين بالقلعة والريضة: من عامة وغير عامة، وخيالة على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للأخوة ولغلمانهم المعروفين بالأخوة الإسبتارية من الحبوب والمثونة والكسوة، والخيال التي هي برسم ركوبهم خاصة، ولا يكون عليها حق بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه.

وعلى انه لا يحمي أحد من الأخوة الخيالة والوزراء والكتاب والنواب والمستخدمين شيئاً عن اسم بيت الإسبتار ليستطلق الحق ويمنع من استيادته، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم. إذا أظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين، للديوان السلطاني المعمور ولبيت الإسبتار، إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر، صادراً ووارداً، وكذلك في البر صادراً ووارداً بعد المحافظة على ذلك وصحته.

وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الإسبتار، وولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانهم يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم بجميع ما يتعلق بهم، وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا بلادنا آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم، متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق وسائر المقاسمات والطرق والبساتين والطواحين والحقوق المقررة على الفدن على اختلاف أجناسها وكذلك الرأسة واستخراج وجوه العين والحبوب والتصاريف الجاري بها العادة المقررة على الفدن من جميع ما يتعلق بها.

وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الإسبتار متفقين جملة على ذلك لا ينفرد أحد منهم بشيء، إلا باتفاق وتزليل في دفاتر الديوان المعمور وديوان بيت الإسبتار، ولا يطلق ولا يحبس إلا باتفاق من الجهتين. ولا ينفرد واحد دون آخر.

وعلى أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف في تأديبه، يعتمد ذلك فيه نائبنا، من شئق يجب عليه أو قطع، وأدب بحكم الشرع



الشريف: من شقق وقطع وكحل أعين، بحيث لا يعمل ذلك إلا بحضور نائب من جهة بيت الاستبار حاضر يعاين ذلك بعينه، ويكون قد عرف الذنب وتحققه، وإن كان ذنبه يستوجب جناية أو غرامة دراهم أو ذهب أو مواشي أو غير ذلك على اختلاف أجناسه، يكون ما يستأدي مناصفة للديوان المعمور لبيت الإسبتار وصاحب المرقب. فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه، وصاحبه مسلم، يأخذ بضاعته من غير اعتراض من الجهتين بعد أداء الحق للديوان المعمور لبيت الإسبتار، وإن لم يعرف صاحب البضاعة وكانت لمسلم أعيدت للخزانة السلطانية ولا يكون لبيت الإسبتار تعلق، وإن كان صاحب البضاعة نصرانياً على اختلاف أجناس النصارى: تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهتنا بعد الحق، وإن لم يعرف صاحب البضاعة، وكانت لنصراني، تبقى تحت يد بيت الإسبتار، خلا ما كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه: إن كان نصرانياً أو ذمياً، على اختلاف جنس دينه، ليس لبيت الإسبتار عليهم اعتراض، ويحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان المعمور.

وعلى أنه متى انكسر مركب، وظهر إلى بر الموانيء بضاعة، وقصد صاحبه شيله إلى جهة يختارها في البر والبحر، ولا يتبع، فيؤخذ الحق منه: إن باع يؤخذ الحق، ويكون الحق للجهتين، وهو الحق المعروف الجاري به العادة.

وعلى أن التجار السفارة والمترددون بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من الموانيء المحدودة في أعلاه، يتوجهون بخفارة الجهتين من غير حق: لا يتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين، ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانيها، فالترتيب على الخفارة من الجهتين مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرق صادراً ووارداً، بحيث أنهم يحضرون إلى بلاد المرقب وإلى الموانيء بالمرقب المحدودة أعلاه، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ما شرحناه.

وعلى أن غلمان المباشر المقدم لبيت الإسبتار والأخوة والخيالة والرعية المقيمين بقلعة المرقب والريض يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذ بهم ويتعلق في حال صدورهم وورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البر، منا ومن نوابنا بالمملكة والبلاد الجارية في حكمنا، ومن ولدنا الملك السعيد ومن أرائنا



وعساكرنا المنصورة، وإن قتل قتيل أو أخذت أخيدة في حدود المناصف ببلاذ المرقب فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوما، فإن وجد فاعل ذلك يؤخذ الفاعل بذنبه، وإن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوما فيمسك رؤساء مكان قطع الطريق وأخذ الأخيدة وقتل القتيل، إن كان أخذ وقتل فكان من قتل القتيل أو أخذ الأخيدة- أقرب القرباء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلًا، فإن خفي الفاعل لذلك وعجز عن إحضاره بعد عشرين يوما، يلزم أهل نواب الجهتين من الغرباء الأقرب لذلك المكان بألف دينار صورية: للديوان السلطان النصف، ولبيت الإسمتار النصف، ولا تتكاسل الولاية في طلب ذلك، ويكون طلبه يداً واحدة ولا يختص الواحد دون الآخر ولا يحابي أحد منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد واستخراج الحقوق ومقاسمة الغلال وطلب المفسدين ليلاً ونهاراً.

وعلى أن لا تغير الهدنة المباركة بأمر من الأمور، ولا من جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد إلى انقضاء مدتها المعينة أعلاه وفروعها ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الإسمتار الحاكم على المرقب وغيره، وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يوما، فمن يكون للبداية يخرج منها على من شغب، ويكون قد عرف دينه الذي بدا من جهة كل واحد، وإذا تغير النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنته هذه الهدنة، ولا يخرج عن هذه المواصفة وإذا تسحب أحد من المسلمين على اختلاف أجناسه، إن كان مملوكاً أو غير مملوك أو معتوقاً أو غير معتوق، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم، وإن كان غلاماً أو غير غلام- يرد، بجميع ما يوجد معه، إن كان قليلاً أو كثيراً يرد، ولو أن المتسحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه، وإن كان خيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه، وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصاري إلى أبوابنا الشريفة أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما حضر معه: من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً يمسكه لنوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب. وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه.

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ولا الرعية الذين فيها، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها: لا بكتاب ولا بمشافهة ولا برسالة ولا بقول: ولا يطلع



أحد من جهتهم إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم والوصول إلى جهتهم من القلعة المذكورة، ولا تسير إليهم مثنوة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه، ولا تكون بينهم معاملة، وإن حضر أحد من جهة العليقة إليهم يسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذون بذلك خطوطهم.

وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة، ولا في القلعة عمارة، ولا في البدنة ولا في أبراجها، ولا يعتمدون إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ولا يجددون عمارة في روضها ولا في سورها ولا في أبراجها، ولا يجددون حفر خندق وعمارة خندق، أو تجدد بناءة خندق، أو قطع جبل أو تحصن عمارة أو تحصن بقطع جبل، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع ولم نأذن لهم بسوى البناءة على أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد، وقد أذننا لهم في عمارة باطن الرض على أثر الأساس القديم.

وعلى أن صهيون وأعمالها ولرومة (٢) أعمالها والقلعة وأعمالها وعيدوب وأعمالها الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون-يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة.

وعلى أنه لا يمكن بيت الإسبتار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا بأذية ولا ضرر يعود على الدولة وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا، إلا أن يكونوا أيد غالبية صحبة ملك متوج.

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة وهو برج معاوية الذي عند المحاصصة الداخلة في مناصف المرقب الآن يخرب ما يخصنا فيه، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه، وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الإسبتار فيه شيء من البرين، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الإسبتار، وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس لا تكمل عمارتها ويبقى على حاله، وهو وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه.

وعلى أن نواب الإسبتارية بالمرقب لا يخفون شيئاً من مقاسمات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجاري بها العادة أن بيت الإسبتار يستخرجونه ولا يخفون منه شيئاً، وكل

ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الإسمتار قبل هذه الهدنة يطلعون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك.

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته، وكذلك الماستر المقدم أفريز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى، ومتى وقع - والعياذ بالله - فسخ بسبب من الأسباب، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم، ولا يمنعوا من السفر إلى أماكنهم من الجهتين، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً. وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة، مستقرة بقواعدها المسطورة للمدة المعينة وهي عشر سنين وعشرة أشهر كوامل، أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها متتابعة متوالية، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين ولا بعزل والٍ وقيام غيره موضعه ولا زوال رجل غريبة ولا حضور يد غالبه، بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخراً، والخط أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى. في تاريخ كذا وكذا.<sup>(١)</sup>

### نص الهدنة المعقودة

بين السلطان المنصور قلاوون وبين متملك طرابلس سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م

تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام « بيمند بن بيمند » - ملك الفرنج - لمدة عشر سنين كوامل متوالات، أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة (٦٨٠هـ - ١٥ يوليو ١٢٨١م) - الموافق للخامس من شهر تموز سنة ألف وخمسمائة واثنين وتسعين للإسكندر اليوناني - وذلك على بلاد الملك المنصور، والملك الصالح ولده قريبا وبعيدا، وسهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس، ومجاور لها من المملكة البعلبكية وجبالها، وقراها الرحلية والجبلية. وجبال الفينيين والعقبيين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة وهي حصن الأكراد وأنليس والقليعات، وصافيتا وميعار، واطليعا وحصن عكار ومرقية، ومدينتها وبلادها ومناصفاتهما، وهي بلاد الملكية.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤٢ - ٥٠ .



وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الإسماعيل وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى وبلاد الست وبلاطنس وبلادها وجبلية والاذقية، وأنطاكية والسويدية، وبلاد ذلك، وحصن بغراس وحصن ديركوش، وصهيون، وبرزية، وحصون الدعوة، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور، ويد ولده، وعلى الموانئ والسواحل، والأبراج، وغير ذلك. وعلى بلاد الإبرنس وعلى طرابلس. وما هو داخل فيها وأنفة البترون، وجبيل، وبلاد ذلك، وعرقا وبلادها، المعينة في الهدنة وعدتها إحدى وخمسون ناحية. وما هو للخيانة. والكنائس وعدتها إحدى وعشرون بلدا. وما هو للفارس «روجار ولا لولاي» من قبلي طرابلس يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية، ومينائها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً، وهم المشد والشاهد والكاتب، وثلاث غلمان لهم، وعشر رجالة في خدمة المشد. ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعون ما يجب منعه من المنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لا يعارضهم المشد فيه. وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق. ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس، ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها، وعلى أن الإبرنس لا يستجد خارج مما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولا يمنع وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى. ولا ينقض ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره، وأن لا يحسن لأحد من أعداء السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة. وتقرررت الحالة على ذلك، وعادات الرسل.<sup>(١)</sup>

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٢١٠ - ٢١١ .

## نص الهدنة المعقودة

بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح

وبين حكام عكا وصيدا وعثليت، سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٢م

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي-خلد الله سلطانهما- وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة. وهم السنجال أود، كفيل المملكة بعكا، والمقدم افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير فيكول للورن مقدم بيت الإسبتار، والمرشان افرير كورات نائب بيت مقدم اسبتار الأمن لمدة عشر سنين كوامل، وعشرة شهور وعشر ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، الموافق الثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين لغلبة الإسكندر ابن فيلبس اليوناني. على جميع بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي، جميع القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع والأراضي، وهي مملكة الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية، وثغر دمياط وثغر الإسكندرية ونسترية وسنترية وما ينسب إلى ذلك من الموانيء والسواحل والبرور، وثغر فوة وثغر رشيد، والبلاد الحجازية، وثغر غزة المحروس وما معها من الموانيء والبلاد، والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، وبصرى وأعمالها، ومملكة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها، والأردن وبيت لحم وأعماله، وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت جبريل ومملكة نابلس، وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها ومملكة يافا والرملة ومينائها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها ومينائها، وقيسارية ومينائها وسواحلها وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، ولد وأعمالها، وأعمال العوجا وما معها من الملاحاة وبلاد الفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها، وبيسان وأعمالها وبلادها والطور وأعماله واللجون وأعماله وجنين وأعمالها، وعين جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله، وما ينسب إليه وطبرية وبحيرتها وأعمالها وما معها، والمملكة الصفدية، وما ينسب إليها، وتبنين، وهونين، وما معها من البلاد والأعمال، والشقيف المعروف بشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال، وما هو منسوب إليه، وبلاد القرن وما معه خارجا عما في هذه



الهدنة، ونصف مدينة إسكندرونة، ونصف ضيعة مارن بقراها وكرومها وساتينها وحقولها، وما عدا ذلك (من أعمال إسكندرونة المذكورة) يكون جميعه بحدوده وبلاده لمولانا السلطان ولولده والنصف الآخر لمملكة عكا، والبقاع العزيزي وأعماله، ومشغرا وأعمالها وشقيف تيرون وأعماله والعامر جميعها في لايا وغيرها وبانياس وأعمالها، وقلعة الصبيبة وما معها من البحيرات وأعمالها، وكوكب وأعمالها وما معها، وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق والمملكة الدمشقية وما لها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود ومملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها، وبلاطنس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وبرزية وأعمالها، وفتوحات حصن الأكراد وأعمالها وصافيتا وأعمالها، وميعار وأعمالها والعريمة وأعمالها وقدفيا وأعمالها ومرقية وأعمالها وحلب وأعمالها، وحصن عكار وأعماله وبلاده والقلعة وأعمالها، وقلعة شيزر وأعمالها وأفامية وأعمالها، وجبله وأعمالها، وأبو قبيس وأعماله، والمملكة الحلبية، وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوحات المباركة، ويغراس وأعمالها، والدريساك وأعماله، والرواندان وأعمالها وجازم وأعمالها، وعينتاب وأعمالها، وتيزين وأعمالها، وسبخ الحديد وأعماله، قلعة نجم وأعمالها، وشقيف دير كوش وأعمالها، والشغر وأعماله، وبكاس وأعماله، والسويداء وأعمالها، والباب وبزاعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والرجية وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميميس وأعمالها، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إلى جميع ذلك وما لم يعين من الحكام بمملكة عكا. وهم كفيل المملكة، والمقدم افريركليام ديباجوك مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير نيكول للورن مقدم بيت الإسبتار، والمرشان افرير كورات نائب مقدم بيت اسبتار الأمن، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم و(ما) تحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح ولا حصونهما ولا قلاعهما، ولا بلادهما، ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما، ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما ولا رعاياها على اختلاف الأجناس والأنفار ولا ما تحويه من المواشي والاموال والغلال وسائر الأشياء منهم



ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية أيديهم، وكذلك كل ما يستفتح مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح على يدهما ويد عساكرهما ونوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات برأ وبحراً، سهلاً وجبلاً، وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة من البلاد الساحلية وهي مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وطواحينها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة، وعدتها «بما فيها من مزارع» ثلاث وسبعون ناحية خاصا للفرنج، وكذلك حيفا والكروم والبساتين والعدة بحيفا سبع نواحي وكذلك ما رسا بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج. وكذلك دير السياج، ودير مارلياس يكون للفرنج. ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصا، عفا والمنصورة وباقي بلاد الكرمل وهي ثلاث عشرة ناحية للفرنج، وعثليث القلعة والمدينة، والبساتين التي قطعت والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها، ويكون لها من البلاد ست عشرة ناحية وتكون خاصاً لمولانا السلطان ما يذكر وهو قرية الهراميس بكاملها وحقوقها ومزارعها، وبقيّة بلاد عثليث تكون مناصفة خارجاً عما للخاص الشريف، وعما لخاص عثليث يكون مناصفة وهي ثمان نواحي. وفلاحة الإسبتار بعمل قيسارية يكون خاصا للفرنج بما فيها، ونصف مدينة إسكندرونة ونصف قرية مارن بما فيها للفرنج وما عدا ذلك يكون خاصا لمولانا السلطان. ومهما كان في إسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والغلة يكون مناصفة. وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصا للفرنج، ويكون لها من البلاد خاصا خمس عشرة ناحية، وما في الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم يكون خاصا لهم. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان ولولده بكمالها. وتكون هذه البلاد العكاوية وما عُن في هذه الهدنة آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة وما هو خاص وما هو مناصفة آمنة مطمئنة ومن بها، وليس للفرنج أن يجددوا في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً ولا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قديماً ولا مستجداً، وعلى أن شواني مولانا السلطان وشواني ولده متى عمرت وخرجت لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها، وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً



للحكام بمملكة عكا فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها ولا تتزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها، وإن انكسر شيء من هذه الشواني - والعياذ بالله - من ميناء من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهداً أو مع مقدمها فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ويمكن رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر فيها والعود إلى البلاد الإسلامية، ويبطل حركة ما ينكسر منها أو يرميه البحر فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت فلها أن تتزود وتعمّر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها. ويعتمد هذا الفصل من الجهتين. وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجية وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لحضرة مولانا السلطان أو حضرة ولده في بلادهما المنعقدة عليها هذه الهدنة فليلتزم نائب المملكة والمقدمون بعكا تعريف مولانا السلطان بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين وأن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون برآء من عهدة اليمين في هذا الفصل، وإن تحرك عدد من جهة البر من التتار وغيرهم فأى من سبق إليه من الجهتين فيعرف الجهة الأخرى وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياذ بالله - عدد من التتار وغيرهم في البر وانعازت العساكر قدامهم، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدها بمضرة فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه. فإن حصل جفل - والعياذ بالله - من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونوا آمنين مطمئنين بما معهم وعلى أن نائب المملكة بعكا والمقدمين يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها أنهم لا يكتنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء وإن ظفروا بأحد منهم يسكون، وإن باعوا عندهم بضائع يسكوا حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه، وكذلك يعتمد مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد. وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان. وتكون

البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الراخلة في هذه الهدنة. وإذا نقت الحجارة التي بالكنيسة ترمى براً ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان في ذلك على وجه الهبة بغير حق. وتضمنت الهدنة تقرير الشروط الجاري بها العادة. ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين أياز أمير حاجب والقاضي بدر الدين بن رزين لتحليف الفرنج فحلفوا واستقر ذلك<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص ٣٤ - ٤٣ .



## نص الهدنة المعقودة

بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولديه

الملك الصالح والأشرف خليل وبين مالكة صور سنة ١٢٨٤هـ / ١٢٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم. استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين قسيم أمير المؤمنين وولده، وولي عهده المولى السلطان الملك الصالح علاء الدنيا علي خليل أمير المؤمنين، وولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل خلد الله سلطانهما وأدام دولتهم- وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هري بن الإبرنس بيمند مالكة صور حال استقرار هذه الهدنة ونائبها بمملكة صور، وهو القومص الجليل سير ريمون يسكند لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات أولها يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية، صلوات الله على صاحبها وسلامه، الموافق لثامن عشر تموز سنة ألف وخمسمائة وستة وتسعين للإسكندر بن فيليبس اليوناني، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة أربع وتسعين وستمائة الموافق للثامن عشر من تموز سنة ألف وستمائة وخمسة للإسكندر، يتبع بعضها بعضا، على حكم ما استقر عليه الحال إلى آخر أيام الملك الظاهر-رحمه الله-متتاليات الساعات والأيام والشهور والسنين إلى آخرها على جميع البلاد الإسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالح قسيم أمير المؤمنين، وبلاده وقلاع ومدنه وحصونه، وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية، وما فيها من الثغور والسواحل والقلاع والمدن، والمملكة الشامية وما اشتملت عليه من الثغور والقلاع والحصون والمدن، والشعور الساحلية، وما اشتملت عليه من الحصون، ومن برور ومن موانئ، ومن بلاد. والبلاد البعلبكية والحمصية والحموية والفتوحات الشريفة بحصن الأكراد وحصن عكار، وما يضاف إليها، ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهديه وحصون وبرور وسواحل، والمملكة الحلبية والفتوحات الأنطاكية، وما هو مجاور لصور من المملكة الصفدية والشقيفية وغيرها من القلاع والحصون والبلاد، على كل ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين من ممالك وحصون وقلاع وثغور ومدن وقرى وسواحل وموانئ وبرور، قريبتها وبعيدها، سهلها وجبلها، عامرها



وداثرها، غورها ونجدها، شرقها وغربها، يمنها وحجازها، شاميها ومصريها، وما تشتمل عليه من قرى ومزارع وأنهار و طواحين وأبراج ويساتين، وعلى من حوته هذه الممالك وتحويه من عساكر وجند ورعايا وعرب وتركمان وأكراد وفلاحين وسائر أجناس الناس على أجمعين على اختلاف أجناسهم وتغاير أشكالهم وأديانهم، وعلى أموالهم ومواشيهم على تغاير أصوافها وأوبارها والأموال على تغاير أجناسها.

تكون هذه الممالك المذكورة. وما اشتملت عليه، ومن فيها من سائر الناس أجمعين الساكنين بها والقاطنين والمتردددين إليها، ومنها وفيها من التجار والسفار آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم في حالتهم صدورهم وورودهم وسفرهم، وإقامتهم، وما لمعاهديه من البلاد والجهات، وما سيفتحه الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور وعلى يد أولاده ويد عساكرهم وجنودهم، وجيوشهم من الحصون والبلاد والقلاع يجري عليها وعلى من فيها، وما فيها حكم هذه الهدنة المباركة إلى آخر مدتها، وعلى بلاد الملكة دام مراريت بنت سيرهري بن الإبرنس بيمند المعينة لها خاصا، ومناصفة في هذه الهدنة، وهي مدينة صور وما دارت عليه أسوارها وضواحيها خاصة، وما فيها من الأراضي التي فيها البقول والأقصاب والمعاصر التي لا دمنة لها، وهي المعوكة ورشمون- أراضي الزيتون- من الضواحي التي لا دمنة لها، وبستان العوجا الذي لا دمنة له، والحكورات والطواحين التي حول مدينة صور تكون هذه الضواحي خاصة لصور، وذلك بشرط أن تكون رشمون والمعوكة وبستان العوجا أراضي من ضواحي صور بغير دمن، ولا قرى، وعلى أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده السلطان الملك الصالح والملك الأشرف نصرهم الله خاصة لهم الخمس الضياع من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة التي استقرت في الخاص الشريف السلطاني من الأيام الظاهرية وهي: قانا ومزرعتها، القروية، إصريفيا ومزرعتها، حانا يخن وما بكمالها، المجادل بكمالها، كفر دبين بكمالها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية، تكون هذه الخمس القرى خاصة جميعها بأراضيها وحدودها وحقوقها، وكل ما هو داخل فيها ومنسوب إليها لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده من غير مشاركة لهم في ذلك.

وتكون للملكة مراريت مالكة صور من ضياع صور، عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصة لها على ما هو مستقر في الهدنة الظاهرية: أن هذه العشر الضياع تكون



خاصا لمملكة صور حسبما عينت بأسمائها فيها وهي: عين أبي عبدالله، القاسمية، سدس، قحلب، المرفوف، الجارودية، الجمادية، مرفلة، رأس العين، برج الإسمتار، تكون هذه العشر الضياع المذكور بحقوقها وحدودها وأراضيها وما هو داخل فيها خاصا للملكة صور دام مراريت مالكة صور، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثمان وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي: الطالية، درتية، الدهرية، الفنونية القية، وادي الحجاج، العرتية، البحتية، المالكية، دير عمران، التقبية، الكبية، بابلية، الحمية، دير قالون، غرايغال، الزيادات، وحيوية، ريعين، بني دفتح، مارنين، عيا، صديقي، رسيانية رفلية، عثليث ومزرعتها، الملاحات، السحنونية، الفراخية، طرقات الدير، المعلية، الخميرا، روتية، بابوح، فقعة، البارورية، كفر دال، حوبا ومزرعتها، سرفية، مجدل، بيت روح، طرسا، فسون، التفاحية، أمد، ركنا، مارون، طرسنحات، كفرناي، بني باقتلة، معولة، طفلسة، أشحور، الرمر، الفهرون، دورغيا، ابروخية، هرين، الصواني، حلوسية، معروب، بعليث، درفانون، طرديا، بدياس، النعمانية، بدوث، الحمرانية، طورا، السرفيات، بردسيل الجديدة، العباسية، الخيثة، السفلسة، أشحور، الفاه، شادسة، العجيلية، المصرية، وذلك خلا المعوقة، ورشمون، ويستان العوجا التي ذكرناها ليست بقراه، وأن المعوقة اسم المعصرة، ويستان العوجا غير قرية، ورشمون غير قرية، وإن كانت قرى كانت من جملة بلاد المناصفت، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها.

وحود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة، وقرية دير عمران، وبرج وادي الحجاج، والعربية، وريف، وبارين، ومن الشرق عناقة، سكاسه، ومجدل شرقية، والسحنونية الداخل ذلك المناصفت، وقانا، ومحروما، والمجادل، وكفر دبين الداخل في الخاص الشريف، ومن الشمال أصريفا الداخل في الخاص الشريف، ونهر القاسمية، ومن الغرب تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بمزارعها وحقوقها، وأنهارها، وبساتينها ودمنها، ومتحصلات مغلاتها من وجوه العين، والغلة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها من وجوه العين والغلة، وحقوق، وزكاوات وعداد وحكورات، وأجر وضمانات، وخراجات وجبايات، وموارث، وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسوية.



ويستقر الحال في جميع الاشياء، كما كانت إلى آخر الأيام الظاهرية، وعلى أن يكون المباشر لهذه الضياع والمناصفات المذكورة والمستخرج لأموالها وغلالها نواب مولانا السلطان الملك المنصور عز نصره باتفاق مع نواب الملكة دام مراريت مالكة صور بحيث لا تنفرد جهة باستخراج درهم ولا غيره، وعلى أن يستمر الشخص بأرض الزهرية في المكان الذي جرت به عادته في الأيام الظاهرية، وعلى أن تكون هذه البلاد المختصة بمالكة صور آمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها وخیاليتها ورجالتها ورعييتها وتجارها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومواشيهم في حالتها صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم إلى آخر هذه الهدنة، وعلى أن التجار والسفار والمترددين من الجهتين يترددون ويبيعون ويشتررون ويوردون ويصدرون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وعلى أنهم لا يحدث عليهم شيء غير ما جرت العوائد به من الجهتين، وأن الممنوعات مستقر حالها في البيع على حالتها، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر تكون كل فرقة منها من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى مطمئنة في البحور والمراسي والدخول والخروج، تلتزم كل طائفة من الجهتين كف الأذية عن الجهة الأخرى، وعلى أنه متى انكسر مركب من الجهتين إن كان لمسلم تسلمه له إن كان موجوداً، ولنواب مولانا السلطان إن كان مفقوداً، وإن كان لنصراني من بلاد مولانا السلطان -عز نصره- فالحكم فيه كحكم المسلم، وإن كان من أهل صور ومن رعية الملكة مالكة صور يسلم له المال إن كان موجوداً، ولديوانها إن كان مفقوداً. وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى ولم يكن له وارث يجري عليه هذا الحكم من الجهتين ولا يخفى ماله، وعلى أنه متى قتل أحد من الجهتين ووجد القاتل مسلماً يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور -عز نصره الله- بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المطهرة، وإن كان نصرانياً من أهل صور تحكم فيه الملكة دام مراريت مالكة صور، كل جهة بحضور نائب من الجهة الأخرى يباشر الحكم فيه بما تقتضيه أحكام الجهتين، وذلك يكون الحكم في كل من تعدى وأسرف وأغتال، يتولى ذلك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم، وتأديب النصراني يتولاه نواب الملكة مالكة صور، وإن خفي أمر القتل كانت دية الفارس من الجهتين ألفاً ومائة صورية، والتركلي مائتي درهم، والفلاح مائة دينار، والتاجر تكون ديته على قدر جنسه وأصله ومقدرته، يؤخذ ذلك من أهل القرايا التي يقتل فيها ذلك الشخص جناية لهم وتأديباً جملة واحدة، يعتمد ذلك من الجهتين وإن كان المقتول في



المناصفات كان متحصل الجناية مناصفة، وعلى أنه متى أخذت أخيدة ترد بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة، وإن خفي أمر القتل أو أمر الأخيدة كانت المهلة في الكشف عن أمره أربعين يوماً، وإن لم يظهر له خبر حلف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار ممن تختارهم الجهة الأخرى. وإن امتنعوا من اليمين لزمت الجناية المذكورة وقيمة الأخيدة، وعلى أنه متى هرب أحد من الجانبين يرد بما معه، ومتى هرب مملوك من أي جنس كان يرد بجميع ما معه ذكراً كان أو أنثى، عبداً كان أو حراً. يعتمد ذلك على الجانبين. على أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا تستجد بناء قلعة ولا تجديد سور ولا حفر خندق ولا ما يتحصن به مما يمنع أو يدفع.

وعلى أن مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره ولا من جنوده ولا من أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر ولا سرقة ولا عدوان ولا غدر لا في بر ولا بحر ولا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه للملكة دام مراريت مالكة صور لا في نفسها ولا في خيالتها وأصحابها خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان. ولمولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مالكة صور بالسوء والضرر متى أراد، وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرم أو مفسد أو رجل غريبة وسائر الإفرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارة أو فساد أو عدوان.

وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا توافق أحداً من سائر الفرنجية على أمر فيه أذية لبلاد مولانا السلطان أو على ممالكه أو رعاياه وسائر من فيها وما فيها ولا تساعد أحداً على ذلك برمز ولا كتابة، ولا إشارة، ولا رسالة إلى حين انقضاء هذه الهدنة. ولها من مولانا السلطان مثل ذلك، وعلى أنه متى انقضت الهدنة أو وقع - والعياذ بالله - فسخ من أحد من الجهتين كانت المهلة للتجار والسفار والمترددین أربعين يوماً حتى يعود كل واحد بماله إلى مأمنه ووطنه آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين. تستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة، وقواعدها المقررة، لا تنتقض أحكامها، ولا ينفك نظامها بموت أحد من الجهتين ولا بعزل وال ولا تزيله غيره، ولا برجل غريبة ولا بيد غالبية، بل تستمر مدتها وتوفى عدتها، وهي عشر سنين كوامل متتاليات، أولها الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تموز من سنة ألف وخمسمائة وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة

أربع وتسعين وستمئة الموافق الثامن عشر من تموز من ألف وستمئة وخمسة لإسكندر  
بن فيليبس اليوناني.

يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها  
والخط الشريف أعلاه بمقتضاه إن شاء الله تعالى. <sup>(١)</sup>

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٠٣ - ١١٠ .



نص رسالة السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون إلى الملك ليو - أرجون

سرمان - ملك أرمينية الصفري وذلك بعد فتحه عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

نعلم الملك أرجون سرمان وفقه الله في سره وجهره، وجعله ممن يلتقي المصيبة في أهل ملته إذا عجز أن يلتقيها بصدرة، أما بعد: فإننا فتحنا عكا التي هي دين الصليب، في هذا الأحد القريب، فلو رأيت خندقها العميق مردوما، وكل برج كان بها منيعا قد عاد مهدودما، وفرسانها في خنادقها جاثية، قد أصبحوا بسيوفنا «صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية»<sup>(١)</sup> ولما أحاط بها ركابنا المنصور، كما يحيط بها السور، أظهروا الجلادة في القتال، ورموا بالمجانيق والنبال، وحسبوا أن بأسهم يصونهم، وأن مانعتهم حصونهم، فما نفعهم الحديد، ولا كثرة العدد والعديد، لما قومنا لهم كل سنان، وجاهم الموت من كل مكان، أشرفنا عليهم من الأسوار، وأحطنا بهم كما يحيط بالزند السوار، فولوا من بين أيدينا منهزمين، وأصبحوا على مافعوا نادمين، فكل منهم يرى طريقاً أو أسيراً، لما دمرناهم وديارهم تدميراً

أما الديوية فما منعهم طارقة ولا جنوية، وأما الإسبتار فأفناهم سيفنا البتار، وأما الزنادقة البنادقة، القوا بأنفسهم في البحر لما رأوا حملاتنا الصادقة، وأنت أيها الملك، إذ لم تعتبر بعكا لأنكيناك على أقصى وجودك، وأعدمتك بعد وجودك، وتندم ندامة أهل عكا حيث لا نفعهم الندم، وتصبح بعد الوجود في العدم، فتحمل القطيعتين الأولى والثانية، وتحضر بنفسك إلى أبوابنا العالية، وإن خالفت وأطعت إبليس لنطيلن حزنك على بلاد سيس، ويكون رأيك على نفسك ويس، فكل منكم يقل: لم يبق بعد عكا إلا أنا، فأنجو بنفسك قبل أن تقع في الويل والعناء، وافهم هذا الكلام والسلام.<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الحاقة الآية ٧-٨.

(٢) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

## نص مرسوم الأمير يلبغا الفخاصكي

الصادر إلى الأمير سيف الدين منكلي بغا نائب دمشق

حول أخذ ريع أموال النصارى في أعقاب واقعة الإسكندرية

سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، وموقف ابن كثير من ذلك

... وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ريع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعا، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنسا كثيرا، ورأيت أنه كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له : هذا مما لا يسوغ شرعا، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة الصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد -الفرد - فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير، فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكنني أن أخالفه؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام: «إئتوني بالسكين أشقه نصفين»، كما هو الحديث مبسوط في الصحيحين، فجعل يعجبه هذا جدا، وذكر أن هذا كان في قلبه وأنتي كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد رحمه الله، ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول فبشر في أنه قد رسم بعمل الشواني والمراكب لغزو الفرنج ولله الحمد والمنة ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين اجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه وهم قريب من أربعمائة فحلفهم كم أموالهم والزمهم بأداء الربع من أموالهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقد امروا إلى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالي البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك، وجردت أمراء النواحي



لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

---

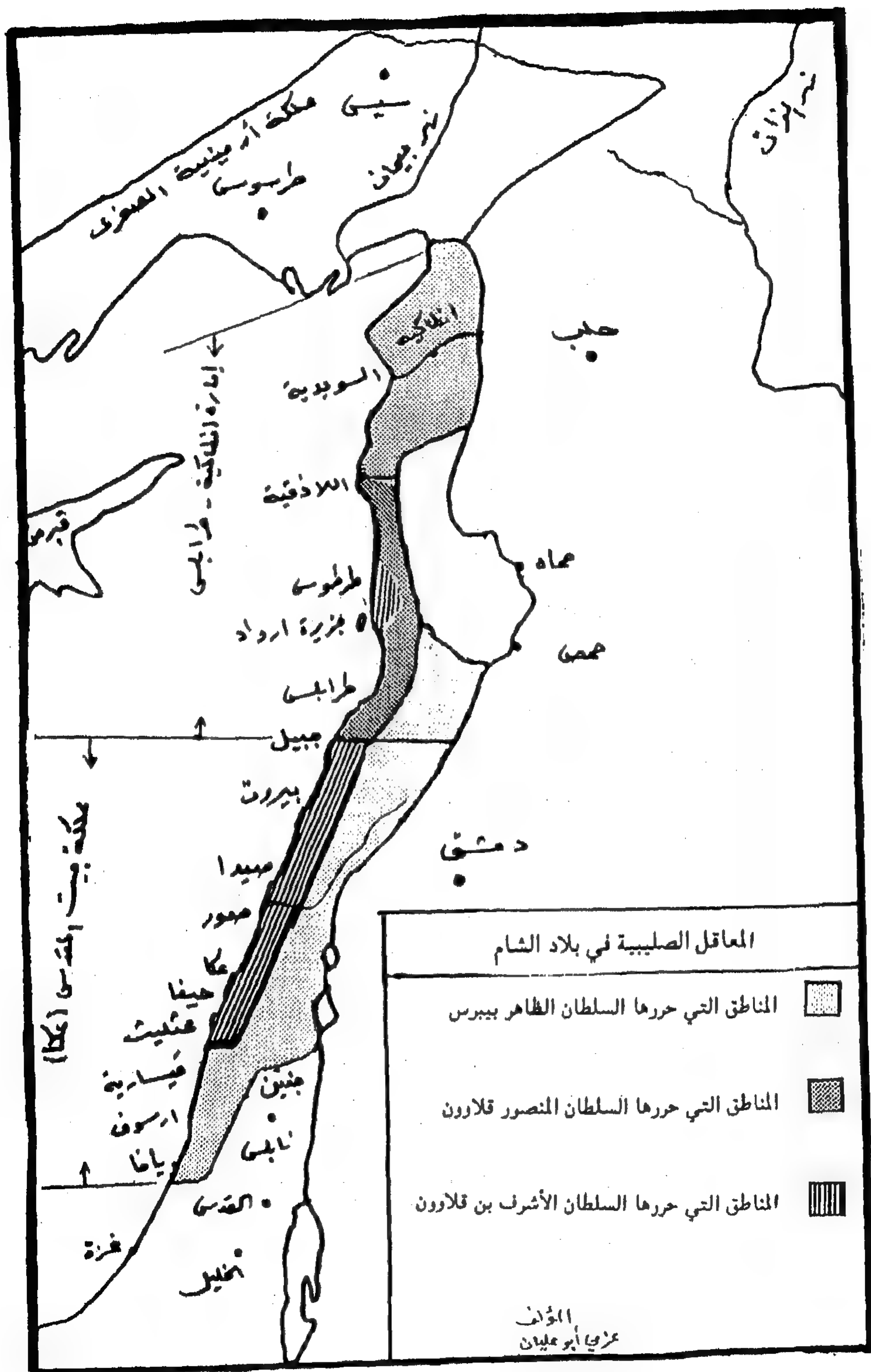
(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣١٤ - ٣١٥



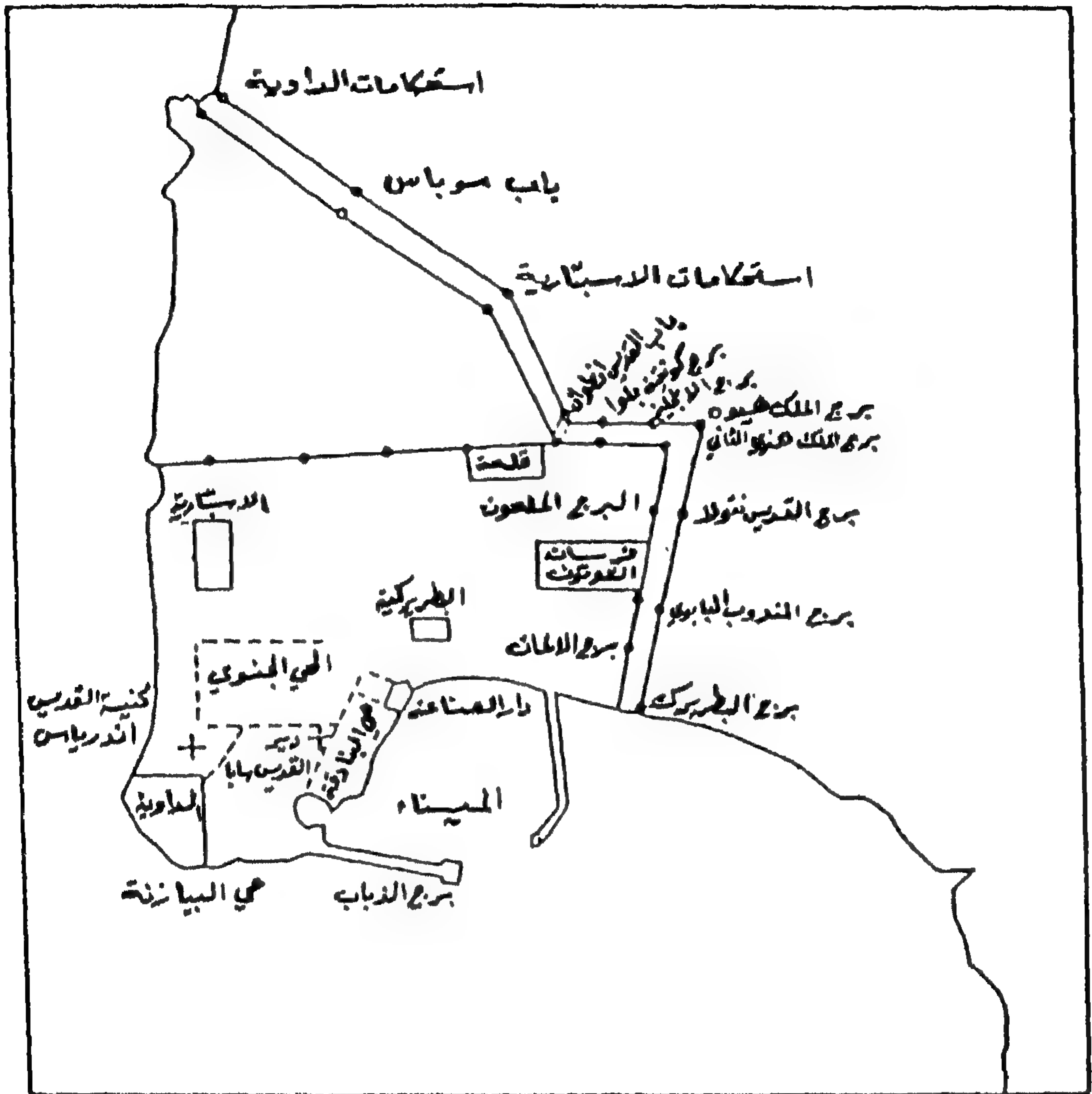
عن كتاب مصر وبلاد الشام في عصر الأيوبيين والمماليك - لمؤلفه سعيد عاشور





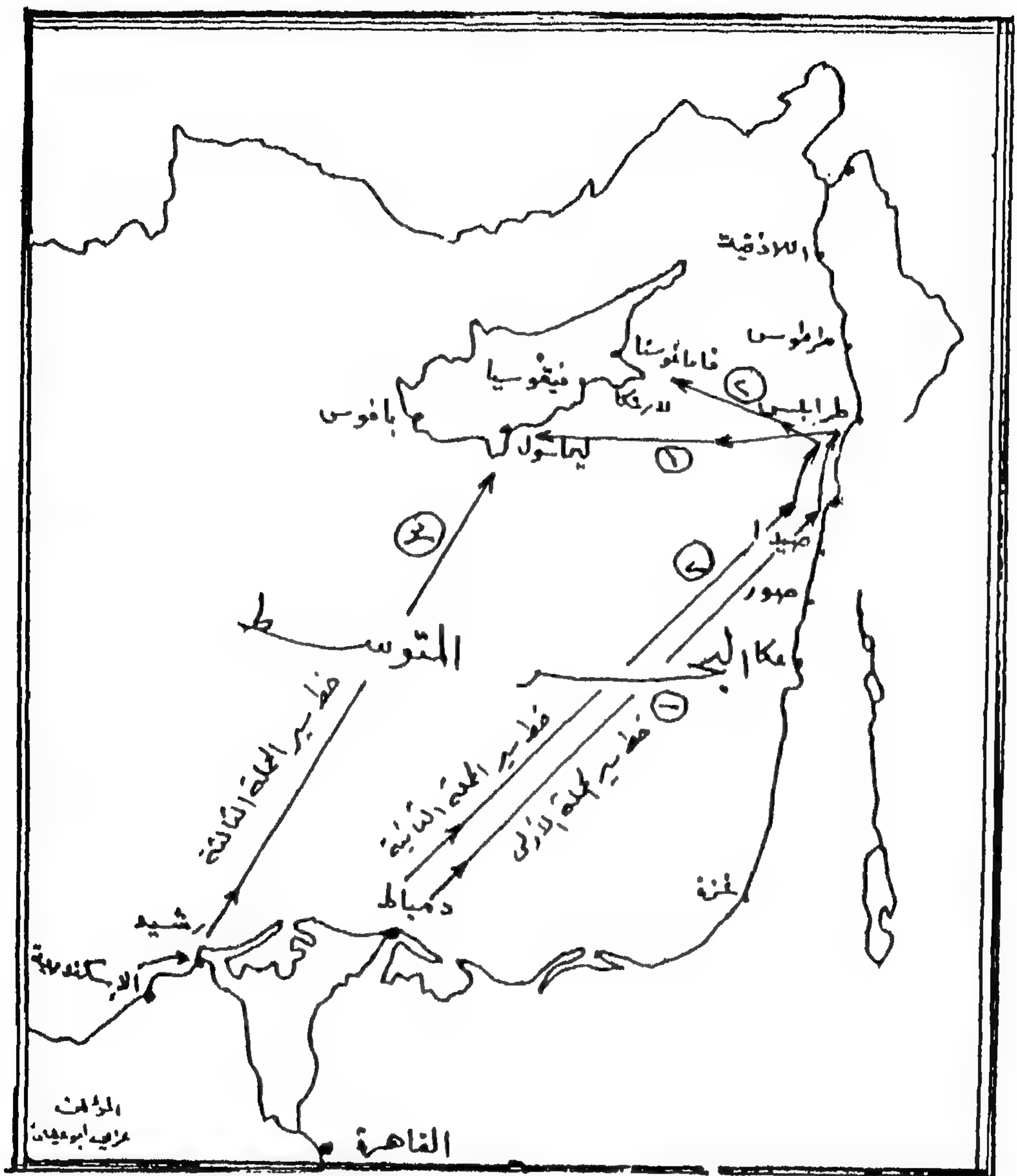






## عكا سنة ١٢٩١

عن كتاب تاريخ الحروب الصليبية - لمؤلفه رنسيان



حملات الماليك على جزيرة قبرص









## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر:

- ١- ابن الأثير: عز الدين محمد بن عبد الكريم (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)،  
الكامل في التاريخ - بيروت (دار الكتاب العربي) ط ٢،  
١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- ٢- ابن أبياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت. ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)،  
بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (مطبعة  
لجنة التأليف) ١٩٦٠ - ١٩٧٤م.
- ٣- ابن أبيك الدواداري، أبو بكر عبدالله (ت. ٧٣٤هـ/١٣٣٤م)،  
الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية - تحقيق أولرخ هارمان - القاهرة  
(مطبعة عيسى البابي وشركاه) ١٣٩١هـ/١٩٧١، ج ٨.
- ٤- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر - تحقيق هانس روبرت روير، القاهرة،  
(مطبعة لجنة التأليف) ١٩٦٠، ج ٩.
- ٥- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد  
(ت. ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، انباء الغمر بابناء العمر - تحقيق عبدالمعيد خان،  
بيروت (دار الكتب العلمية) ط ٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٦- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)  
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم  
من ذوى السلطان الأكبر: بيروت (مكتبة المدرسة، ودار الكتاب  
الليبناني)، ط ٣، ١٩٦٧م.
- ٧- ابن خلكان، أبو العباس أحمد (ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م)  
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق احسان عباس، بيروت (دار  
الثقافة)، ١٩٦٨ - ١٩٧٢م.
- ٨- ابن شاعر الكتبي، محمد بن شاعر بن أحمد (ت. ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)  
عيون التواريخ - تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، بغداد (مكتبة  
الرشيد) ١٩٨٠م، ج ٢٠.

- ٩- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - تحقيق بولس رويس، باريس (المطبعة الجمهورية) ١٩٨٤م.
- ١٠- ابن شداد الحلبي، عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - الجزء المنشور بعنوان تاريخ لبنان والأردن وفلسطين - تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢م.
- ١١- تاريخ الملك الظاهر - تحقيق أحمد حطيط. فرانز شتاينر بفيبسادن ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ١٢- ابن الصيرفي، علي بن داود الخطيب الجوهري (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان - تحقيق حسن حبشي، القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.
- ١٣- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٤هـ / ١٥٤٦)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان - تحقيق محمد مصطفى، القاهرة (المؤسسة المصرية) ١٩٦٢ - ١٩٦٤.
- ١٤- ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م)، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور - تحقيق مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، القاهرة (الشركة العربية للطباعة والنشر)، ١٩٦١م.
- ١٥- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط ١، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- ١٦- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) تاريخ الدول والملوك - نشر بعنوان، تاريخ ابن الفرات - تحقيق قسطنطين زريق - بيروت (المطبعة الأميركانية)، ١٩٣٦ - ١٩٤٢م.
- ١٧- ابن قاضي شهاب، تقي الدين أحمد (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهاب - تحقيق عدنان درويش، دمشق (المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية) ١٩٧٧م، ج ٣.
- ١٨- ابن القلانسي، أبو علي حمزة (ت ٥٥٠هـ / ١١٥٥م)،



- ذيل تاريخ دمشق - تحقيق هـ، امدروز، بيروت (مطبعة الأباء  
اليسوعيين) ١٩٠٨ م.
- ١٩- ابن كثير، أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/  
١٣٧٢) البداية والنهاية في التاريخ - بيروت (دار الفكر).
- ٢٠- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨ م)،  
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ج ١-٣ تحقيق حسنين محمد ربيع  
وراجعه سعيد عاشور، القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ - ١٩٧٧ م.
- ٢١- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى الشافعي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م)،  
تتمة المختصر في أخبار البشر - تحقيق أحمد رفعت البدرأوى، بيروت  
(دار المعرفة) ١٩٧٠ م.
- ٢٢- ابن يحيى، صالح (ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦) تاريخ بيروت - تحقيق فرنسيس  
هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، (دار المشرق).
- ٢٣- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦ م)  
الذيل على الروضتين، بيروت (دار الجيل) ط ١، ١٩٤٧ - ١٩٧٤ م.
- ٢٤- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١ م)  
المختصر في أخبار البشر، بيروت (دار المعرفة).
- ٢٥- أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠ م).  
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة (المؤسسة المصرية).
- ٢٦- الدواداري المنصوري، بيبرس (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥ م)،  
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوط، الجامعة الأردنية، ميكروفيلم  
رقم ٢٠.
- ٢٧- الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيسار (ت ٧٤٨هـ/  
١٣٤٧ م)، سير أعلام النبلاء - تحقيق بشار عواد معروف ويحيى هلال  
السرхан، بيروت (مؤسسة الرسالة)، ط ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م.
- ٢٨- سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٣٥٦ م)  
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - حيدر - اباد الدكن (مطبعة مجلس دائرة  
المعارف العثمانية)، ط ١، ١٩٥٢، ج ٨.

- ٢٩- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)،  
التبر المسبوك في ذيل السلوك، نشره أحمد زكي، القاهرة (المطبعة  
الأميرية) ١٨٩٦م.
- ٣٠- السيوطي، الحافظ جلال الدين (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)،  
تاريخ الخلفاء - بيروت (دار الفكر) ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ٣١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - تحقيق محمد أبو الفضل  
ابراهيم، القاهرة، ١٣٢٧هـ.
- ٣٢- شافع بن علي، ناصر الدين (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م)،  
حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية - تحقيق عبدالعزیز  
الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
- ٣٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)،  
الوافي بالوفيات، ج ٩ تحقيق يوسف خان، ج ١٠ تحقيق جاكين سوبلة  
وعلي عمارة، فرانز شتاينر بفسبادن، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٣٤- العيني، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥٢م)  
عقد الجمان، ج ١ حققه محمد محمد أمين، القاهرة، (الهيئة المصرية)،  
١٤٠٧هـ.
- ٣٥- القرمانی، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ / ١٦١٠م)،  
أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، بيروت (عالم الكتب).
- ٣٦- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ /  
١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الأنشا، القاهرة (المؤسسة المصرية).
- ٣٧- المعبري، زين الدين بن عبد العزيز (ت ق ١٠هـ / ١٦م)،  
تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين - تحقيق أمين توفيق الطيبي،  
طرابلس - ليبيا - ( كلية الدعوة الإسلامية )، ١٩٨٧م.
- ٣٨- مفضل بن أبي الفضائل (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م ).  
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد ابن العميد، باريس، ١٩٢٠م.
- ٣٩- المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)،  
السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١-٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة،



- (لجنة التأليف) ١٩٥٦ - ١٩٥٨، ج٣-٤ تحقيق سعيد عاشور، القاهرة (مطبعة دار الكتب) ١٩٧٠ - ١٩٧٢ م.
- ٤٠- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - لبنان (مطبعة الساحل الجنوبي).
- ٤١- النويري السكندري، محمد بن قاسم بن محمد (ت بعد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م) الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمر المقضية في وقعة الإسكندرية بدأ تحقيقه اتين كومب واتم تحقيقه عزيز سوربال عطية، حيدر اباد الدكن (دائرة المعارف العثمانية)، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).
- ٤٢- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبر اليقضان، حيدر اباد الدكن (مطبعة دار المعارف النظامية) ط١، ١٣٣٩هـ.
- ٤٣- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، حيدر اباد الدكن (مطبعة دائرة المعارف العثمانية) ١٩٥٤م.
- ثانياً: المراجع العربية :
- ٤٤- برجاي (سعيد أحمد) الحروب الصليبية في المشرق، بيروت، (دار الافاق الجديدة) ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
- ٤٥- توفيق (عمر) الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة)، ١٩٨٦م.
- ٤٦- حسن (إبراهيم) البحرية في عصر سلاطين المماليك، مصر (دار المعارف) ١٩٨٣م.
- ٤٧- دارج (أحمد) المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القاهرة، (دار الفكر العربي) ١٩٦١م.
- ٤٨- رنسيما (ستيفان) تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني (دار الثقافة)، ١٩٦٧ - ١٩٦٩م.
- ٤٩- زيادة (محمد مصطفى) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، مجلة الجيش المصري، يناير (كانون ثاني) ١٩٤٦م.

- ٥٠- زيادة (نقولا) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت ١٩٤٣م.
- ٥١- سالم (عبد العزيز) دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي - الإسكندرية (مؤسسة شباب الجامعة) ١٩٨٦م.
- ٥٢- طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي - الإسكندرية، ١٩٦٧م.
- ٥٣- سرهنك (اسماعيل) حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة (المطبعة الأميرية) ١٣١٢هـ / ١٣٣٤هـ.
- ٥٤- سرور (محمد جمال الدين) دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، (دار الفكر العربي) ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.
- ٥٥- طرخان (إبراهيم علي) مصر في عصر المماليك الجركسة، القاهرة ١٩٥٩م.
- ٥٦- عاشور (سعيد عبدالفتاح) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، (دار النهضة العربية) ١٩٧٢م.
- ٥٧- الحركة الصليبية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ط ١، ١٩٦٣م.
- ٥٨- العصر المالكي في مصر والشام، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٦٥م.
- ٥٩- قبرس والحروب الصليبية، القاهرة ١٩٥٧م.
- ٦٠- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.
- ٦١- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٧٠م.
- ٦٢- العبادى (أحمد مختار) بالأشتراك مع عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨١م.
- ٦٣- العبادى، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩م.
- ٦٤- عبد السيد (حكيم أمين) قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة (دار الكاتب العربي) ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.
- ٦٥- عمر (عبد العزيز عمر) أوروبا من عصر النهضة إلى الثورة الفرنسية، بيروت (مطبعة كريدية اخوان) ١٩٧٦م.
- ٦٦- العمروسي (محمد) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب - بيروت (دار



الغرب الإسلامي) ط ٢، ١٩٨٢م.

٦٧- ماهر (سعاد) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة (دار الكاتب العربي).

٦٨- موير (وليم) تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، القاهرة (مطبعة المعارف) ١٩٢٤م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية :

- 69- Atiya. A.S  
The Crusade in The Later Middle ages, London. 1938
- 70- Holt .P. M  
Qalawan,s 'Treaty with Acre in 1283' The English History Review Vol, Xcl, October, 1976. No cccixi, PP 802-812.
- 71- Khowiter, Abdul-Aziz  
Baibars the First  
London, The Green Mountain Press, 1978
- 72- King  
The Knights hospitallers in Holy Land.  
London 1931
- 73- Lane-Poole, Stanley  
A History of Egypt in the Middle ages  
London, 1924

## فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
— الأهداء .....	٤
— المقدمة .....	٧
— الباب الأول: تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي .....	٩
الفصل الأول: قيام دولة المماليك .....	١١
الفصل الثاني: المعادل الصليبية في بلاد الشام عند قيام دولة المماليك .....	٢١
الفصل الثالث: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الظاهر بيبرس .....	٢٧
الفصل الرابع: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان المنصور قلاوون .....	٧٠
الفصل الخامس: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .....	٨٥
— الباب الثاني: تجدد الحروب الصليبية ورد المماليك .....	١٠١
الفصل الأول: اعتداءات الصليبيين في حوض البحر المتوسط على سواحل مصر وبلاد الشام .....	١٠٣
الفصل الثاني: غزو جزيرة قبرص وإخضاعها لسيادة المماليك...	١٢٨
الفصل الثالث: غزو جزيرة رودس ومحاولات السيطرة عليها...	١٤٢
الفصل الرابع: اعتداءات البرتغال على سواحل شبه الجزيرة العربية ورد المماليك .....	١٥٢
— الخاتمة .....	١٦٠



- نص الهدنة المعقودة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين الإسماعيلية  
في حصن الأكراد وحصن المرقب وعكا سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م .... ١٦٣
- نص الهدنة المعقودة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة  
بيروت سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م ..... ١٦٩
- نص الهدنة المعقودة بين السلطان الظاهر بيبرس وولده الملك  
السعيد بركة مع الإسماعيلية في قلعة لد سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م... ١٧١
- نص الهدنة المعقودة بين السلطان المنصور قلاوون وبين متملك  
طرابلس سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م ..... ١٧٧
- نص الهدنة المعقودة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولده  
السلطان الملك الصالح وبين حكام عكا وصيدا وعثليث  
سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م ..... ١٧٩
- نص الهدنة المعقودة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولديه الملك  
الصالح والأشرف خليل وبين مالكة صور سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م.. ١٨٤
- نص رسالة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون إلى الملك ليو  
-أرجون سرمان - ملك أرمينية الصغرى، وذلك بعد فتحه  
عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ..... ١٩٠
- نص مرسوم الأمير يلبغا الخاصكي الصادر إلى الأمير سيف الدين  
منكلي بغا نائب دمشق حول أخذ ربع أموال النصاري في  
أعقاب واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م. وموقف ابن كثير  
من ذلك ..... ١٩١
- الخرائط ..... ١٩٣
- المصادر والمراجع ..... ٢٠٠





## هذا الكتاب

خلاصة للدور الهام والكبير الذي لعبه المماليك في مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين بأسلوب أكاديمي مبسط وموثق مبني على أهم المصادر المعاصرة للأحداث ، وعلى المراجع ذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، ويبين الكتاب الإستراتيجية التي اتبعها المماليك في مسيرة الجهاد والتي قامت على ما يلي :

- مع وجود القوى الصليبية في الساحل الشامي
  - مسار عسكري : حروب عسكرية ونفسية مذهلة .
  - مسار سياسي : مفاوضات شاقة ومهادنات تكتيكية شائكة .
- ★ تحرير وتطهير شامل .
- مع تجدد الحروب الصليبية ومحاولة الالتفاف على العالم الإسلامي
  - منحى دفاعي : صد الهجمات عن السواحل الإسلامية في المتوسط والأحمر والمحيط الهندي .
  - منحى هجومي : نقل المعركة إلى أرض الخصم ومواقعه .
- ★ سيادة ونطاق أمني .